

ملكات بمحض الصدفة

نساء حكمن في العصر الحديث

ترجمة:

د. أماني فوزي حبشي

نبذة عن المؤلّفة:

شيزارينا كازانوفا أستاذة التاريخ الحديث في جامعة بولونيا الإيطالية. من أبحاثها المنشورة «العائلة والقرابة في العصر الحديث» و«تاريخ الإجرام بين القضاء المدني والقضاء الكنسي».

نبذة عن المترجمة:

أماني فوزي حبشي كاتبة ومترجمة مصرية تقيم في إنجلترا. من كتبها المترجمة: رواية «بندول فوكو» للكاتب أومبرتو إيكو، ورواية «اذهب حيث يقودك قلبك» للكاتبة سوزانا تامارو، وصدر لها ضمن مشروع «كلمة» ترجمة كتاب «العبودية في العصر الحديث» للكاتبة باتريسيا ديلبيانو.

ملكات بمحض الصدفة.. نساء حكمن في العصر الحديث

استخفّت الثقافة الأوروبية، منذ وقت طويل، بالتجارب الكثيرة لحكم الملكات والحاكمات بالوصاية، بل وعدّتها هامشية. لكن مع تسعينيات القرن العشرين، سَلّطت أبحاثٌ تاريخيةٌ جديدة الضوء على الموضوع. وهو ما أدّى إلى إعادة التفكير في انتقال السلالة الملكية في السلطة إلى النساء، وزرع الشك في أن المبدأ الذي كان يُشرّع ذلك الاستبعاد هو مبدأ مبني على أسباب مرتبطة بالجنس بسبب تقسيم «طبيعي» للأدوار بصورة عامة. إلا أن فكرة السلطة النسائية المنتشرة منذ فترة طويلة بين المؤرّخين المتخصّصين، التي لم يتم استبعادها تماماً حتى يومنا هذا، تؤيّد أن حكومات النساء كانت سيئة الحظ أو موفّقة في حالات عابرة.

السعر 60 درهماً









شيزارينا كازانوفا

ملكات بمحض الصدفة

نساء حكمن في العصر الحديث

ترجمة: د. أماني فوزي حبشي

مراجعة: د. عزالدين عناية

بيانات الفهرسة أثناء النشر

D107.3 .C3712 2016

Casanova, Cesarina,

[Regine per caso : Donne al governo in età moderna]

ملكات بمحض الصدفة : نساء حكمن في العصر الحديث / تأليف شيزارينا كازانوفا ؛ ترجمة أماني فوزي حبشي ؛ مراجعة عز الدين عناية. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.

323 ص. ؛ 14 × 21 سم.

ترجمة كتاب : Regine per caso : Donne al governo in età moderna

تدمك : 1-524-13-9948-978

1- أوروبا- تاريخ. 2- أوروبا- الملكات.

أ- حبشي، أماني فوزي. ب- عناية، عز الدين. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:

Cesarina Casanova

Regine per caso: Donne al governo in età moderna



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

فهرس عام

مقدمة

نساء في الحكم، هل هي حالة من سوء حظ؟

«الطاعون يملأ الجوّ، إنها إيريني السامّة».. هكذا يبدأ وصف الملكة السوداء، إيريني السامّة التي سببت الاختناق بجرائمها وغدرها. بهذه العبارات المشينة، التي نُشرت عام 1616م، أكد الكاتب والشاعر البروتستانتي ثيودر أغريبا دي أوبينييه[1] الأسطورة سيئة السمعة لكاترينا دي ميديتشي -أرملة هنري الثاني، التي حكمت فرنسا منذ عام 1560-، وأسطورة أولادها الضعفاء.. لقد تمّ تقديم شخصيتها على أنها الصورة المكثفة لكل الكليشيهات عن الأدوار التي استقطبها عصر النهضة من العالم الكلاسيكي والثقافة الذكورية للعصور الوسطى: من أن المرأة على رأس الحكم لا يمكن إلا أن تكون سخرية الأقدار، ساحرة، سامّة، منحلة جنسياً، مُسافحة ومهرطقة.

ويعود الفضل في فتح الطريق أمام التطورات الناتجة عن البحث في العلاقات بين الجنسين منذ بضعة أعوام إلى ناتالي زيمون ديفيز، عندما كتبت بحثاً شيّقاً في المفارقة الثقافية بين السيدات الحاكمات، وفي الصور الساخرة لصراع الحمالات -السراويل، ذلك اللباس الذكوري الذي اُتّخِذ منذ الأزل

(1) T.A. d'Aubigné, *Poema tragico*, Rizzoli, Milano 1979, pp. 78 sgg.

رمزاً للتمرد النسائي على النظام التقليدي للحياة العائلية والاجتماعية-، وفي رفض الكثيرات قبول الدَّور الخاضع الذي فُرض على النساء منذ القرن الخامس عشر بقوة أشدّ مما كان يحدث في الماضي[1].

في القرن الرابع قبل الميلاد، تخيّل سقراط إمكان أن تتولى المرأة منصب القيادة، على الرغم من اختلاف التركيب الفيزيولوجي بين الجنسين: فلنتأمل حال إناث كلاب الحراسة التي عليها أن تتولى الحراسة مع الكلاب الذكور، وأن تطارد معهم اللصوص، إذ كل شيء بينهم مشترك؛ هل كان عليها أن تحرس المنزل فحسب لأنها لا تستطيع عمل شيء آخر بسبب الإنجاب وإرضاع الجِراء، بينما يقوم الذكور بحماية القطيع كله؟

وكانت إجابة التلميذ غلوكون على هذا السؤال أن «لا بدّ من الاعتراف بوجوب مشاركة النساء للرجال في كل شيء، ولكن لنتعامل معهن على أساس أنهن الأضعف، وأن الذكور هم الأقوى». هكذا كانت إجابة التلميذ غلوكون على هذا السؤال. ويؤكد سقراط أن شرط استخدام «النساء في الوظائف التي يؤديها الرجال» هو أن نمنحهن التعليم نفسه، أي الموسيقى والألعاب الرياضية وفنون القتال، و«معاملتهن المعاملة نفسها». إلا أن سقراط كان يرى صعوبة شديدة في إيجاد نوع من العلاقة بين الفتيات والفتيان من الذكور، من النخبة على الأقل، قادرة على أن تستبعد الاستحواذ على الشرعية المرتبطة بالجنس، وهو ما من شأنه أن يقمع التحكم الجنسي

(1) N. Zemon Davis, Le *culture del popolo. Saperi, rituali e resistenze nella Francia del Cinquecento*, Einaudi, Torino 1980, pp. 175-209 (ed. Orig. 1975).

ويمكن الاطلاع أيضاً على:

P. Bureau, *La «dispute pour la culotte». Variations littéraires et iconographiques d'un thème profane (XIIIe-XVIe siècles)*, in «Médiévales», 29, 1995, pp. 105-129.

للرجال في النساء[1].

ويبقى رأي سقراط -وكذلك سائر أفكاره- رأياً فردياً، غير مسموع. ويلاحظ نيكول لورو أن أرسطو، في كتابه الثالث عن السياسة، لا يخصّص كلمة واحدة لفئة النساء عندما يذكر كل فئات «غير المواطنين» نظراً إلى أن المنظومة «السياسية» الجامدة، تتمَ كلها بين الرجال[2]. أصبح الأمر يتعلق بالنجاة من خطر محدق: هجرت التراجيديا اليونانية الصور النسائية التي صارت مصدراً للتهديد، وقد عبّرت عن الخوف من أن تتمكن سلطتهن الكامنة والمقموعة من الإفلات من سيطرة الرجال. إن أسطورة باندورا، التي قصّها هيسيودوس، لا تختلف كثيراً عما ورد في الثقافة اليهودية- المسيحية التي تنسب إلى المرأة أصل متاعب الإنسانية وآلامها. إن لهذا الخوف -المتمثل بصورة متكررة في الأعمال المسرحية التراجيدية- مقابله الكوميدي في الفرضية المتقدمة الرائعة لأريستوفان عن عمل المرأة السياسي؛ سواء بالمعنى التراجيدي أو الكوميدي، فالسلطة النسوية تمت معالجتها دائماً وكأنها إعاقة للمسار الطبيعي للأشياء[3].

إن أحد أدوار السلطة النسوية -السلطة الملكية- حتى وإن لم يتم الاعتراف به، هو ذلك المُمثل في روما الأغسطية [أغسطس]، وهو ما يظهر في التجليات المختلفة لحالة ليفيا التي تزوجت بأوتافيانو عام 38 قبل الميلاد، وكانت موضوعاً لمديح الدعاية الملكية، إذ كانت تُجسد، بالاشتراك مع زوجها، تقدير قيمة الزواج، وما يفترض فيه من إصلاح للعادات الجنسية

(1) Platone, Politeia, libro V.

يمكن للقارئ الاطلاع في هذا الشأن على:

J. Redfield, *L'uomo e la vita domestica*, in *L'uomo Greco*, a cura di J.P. Vernant, Laterza, Roma-Bari 1991, pp. 153-185, pp. 163-171.

(2) N. Loraux, *Il femminile e l'uomo Greco*, Laterza, Roma-Bari 1991, p. 250.

(3) Redfield, *L'uomo e la vita domestica* cit., p. 161.

التي كان أغسطس يعدُّها أساساً لتحقيق الاستقرار الاجتماعي وزيادة المواليد. إلا أن الخصوم هاجموا ليفيا، تلك الزوجة المصلحة، لأنها امرأة تشارك في القرارات السياسية التي يتمّ اتّخاذها في القاعة الملكية: فهي قد طالبت بسلطة أبعد من الواجبات المكلفة بها في إطار المشاعر العائلية -التي كانت ملزمة بها وهي زوجة الإمبراطور- لتتدخل في مناطق النفوذ العامة داخل القصر الإمبراطوري، فاشتهرت بتآمرها بسبب تلك المبادرات[1].

تتأسس التقاليد المعادية للنساء في العالمين: اليوناني الروماني، واليهودي المسيحي، إذن، على نوع من الفصل بين الأدوار التي تحقِّق الاستقرار الاجتماعي في شكل من أشكال الهيكلة الجنسية التي يمكنها أن تسمح للمرأة بتولي أدوار في السلطة في البلاط الإمبراطوري فقط، ولكنها تُصنَّف دائماً بكونها غير رسمية، وبذلك يمكن إبطالها لكونها متعدّية أو غير لائقة. في الكتاب المقدس، إضافة إلى ذلك، تظهر شخصيات نسائية مؤثّرة مثل يهوديت وأستير، اللتين قادهما الله لتنقذا شعبيهما من الإبادة، وذلك باستخدام جمالهما. ولكننا نجد في سِفرَي الحكمة والجامعة أن النصيحة الموجَّهة باستمرار إلى رب الأسرة في الحياة اليومية، هي أن يحد من تحركات المرأة وأن يحميها جيداً داخل المنزل. وبالنسبة إلى سيدات الطبقة الاجتماعية الرفيعة أيضاً، فقد كانت تلك النظرة الذكورية هي السائدة في القرن الرابع الميلادي في أوروبا المسيحية، النظرة التي دعمتها تفسيرات رسائل القديس بولس لتعليم الإنجيل، والتي لقيت أثناء انتشارها، المعارضة الشديدة، والمؤامرات الإقليمية من المناطق القريبة من الثقافة الفرنسية-الألمانية.

إن اللحظة التي عاد فيها انتشار القبول الحقيقي من جديد في كل أوروبا للمساواة في الحقوق؛ بما في ذلك أيضاً حقوق المرأة، يمكن أن نرصدها

(1) F. Cenerini, *La donna romana*, Il Mulino, Bologna, 2002, pp. 73-80.

في القرن التاسع عشر، وذلك عندما قام أكورسيو، بارتولو الساسوفيراتي، وبالدو الأولبالدي بفصل القانون المدني عن مجموعة القوانين المؤسسية والإقطاعية[1]. ثم أسهم علماء اللغويات، في القرن الموالي، في العودة إلى أصول المفاهيم مثل «الهشاشة»، و«العجز»، و«الدونية الجنسية»، التي شوّهتها التصنيفات الرومانسية الغربية. ثم إن التعاليم التأديبية المطبّقة على قضايا أخرى متنوعة قد ناقشت الإمكانيات المختلفة المنسوبة إلى المرأة. ورغم أن هذه الاختلافات لم تؤسس تعريفاً محدداً، فإنها تؤدي إلى اتجاه يمكن استنباطه من طيات النقاش القضائي، إذ سُجل في توصيات القضاة أو في التطبيقات المخففة للعقوبات أن يوضع الجنس في الحسبان.

إن هذا النوع من عدم المساواة في المعاملة كان في كل الأحوال الأمر الذي عرفه أحدهم بـ«الفروسية القضائية»[2]، وهو وصمة الدونية التي صنعت فرضية منع المرأة من تولي المناصب العامة، إضافة إلى عدم تمكينها من الإبلاغ عن الجرائم أو الإدلاء بشهادتها.

إن تلك الاتجاهات السائدة بين أهم رموز الثقافة القضائية قد وَجَدَت لنفسها موقعاً مهمّاً في الكتابات الكثيرة حول الحقوق العائلية والزوجية لأندريه تيراكو، وهو يُعلن فيها صراحة عدم الثقة الكاملة في عقل المرأة: إذ ينطلق من تأكيد الضعف الجسدي ليصل إلى تأكيد الإمكانية في استعمال العقل[3]. إن التساؤلات التي طرحها تيراكو –مبدئياً في ما إذا كانت المرأة

(1) I. MacLean, *The Renaissance Notion of Woman: a Study in the Fortunes of Scholasticism and Medical Sciences in European Intellectual Life*, Cambridge University Press, Cambridge-New York 1980, pp. 68 sgg.

(2) D. Palk, *Gender, Crime and Judicial Discretion. 1780-1830*, The Boydell Press, Woodbridge 2006.

(3) Andreae Tiraquelli Regii in Curia Parisiensi Senatori *De Legibus Connubialibus, & Iure Maritali, ab ipso authore adeo reformata, totque ac tantis thesauris locupletata, ut non immerito nouum opus censeri debeat*, Parisiis, apud Odoënum Paruum, in vico Iacobæo, sub intersiginio Lilii aurei, 1546.

إنساناً أم حيواناً– وهو ما استنبط منه الحكم الخاص بتسليط عقوبات أقلّ عليها بما أنها ضعيفة روحاً وعقلاً، هو ما يصنع إطاراً واسعاً، لا يمثّل فيه اختلاف الإمكانات سوى جزء بسيط منه ليطرح من خلاله فكرة الخضوع الكامل للمرأة.

نجد ارتباطاً، في السياق ذاته، حول الدونية «الطبيعية» للمرأة بين كلّ من الجانب القضائي وتعريفات أخرى خارج الأطر القانونية. إن استبعاد المرأة كشاهدة في المحاكمات، على سبيل المثال، تبرره نزعتها الأنثوية للكذب وعدم مصداقيتها. ولذلك فقد تمّ، من جهة، تأكيد وجود اختلافات تبرّر عقابها عقاباً تأديبياً أقل، بما في ذلك تخفيف العقوبة مثل تلك العقوبات الخاصة بوحشية أحكام الإعدام ضدّ الساحرات بدءاً من القرن السابع عشر. وجرى من جهة أخرى تأكيد استبعاد المرأة من المهام الذكورية مثل الاشتراك في الحرب وتولي المناصب في الحكومة، ووراثة الخصومات ليس فقط لأن هذه المهام تستلزم حِدّة الطباع، ولكن أيضاً بسبب طموح المرأة إلى السلطة، إذ أنَ التعطّش إلى السلطة هو ما تطمح إليه كجزء من طبيعتها، وهو الأمر الذي يؤدّي بها إلى أن تضحّي حتى بأفضل أبنائها في سبيل تعطّشها للسلطة[1].

إن الأبحاث التي نُشرت في القرن السادس عشر تجادل فكرة عدم أهلية المرأة لممارسة السلطة بسبب الضعف الناتج عن تركيبتها الجسدية أو الأخلاقية. فإذا كان المقصود هو أن «ضعف جنسها» يجعلها بالطبيعة غير قادرة على أن تقود الجيوش، فإن الكذب والشهوة الجامحة، والطبائع المتقلّبة تجعلها أيضاً غير مناسبة لإدارة الحكم بالعدل وبالثبات القوي الذي خلعته الكتب المقدسة على الملك سليمان. نادراً ما ظهرت بعض الحالات المفاجئة

(1) Ivi, c.9, §59; c.11, §77; c.61, §28; c. 102, §9.

والمشؤومة لوصول النساء إلى الحكم في أتون العصور الوسطى ومع بداية العصر الحديث، وهي حالات تمثلها ملامح ذات ألوان قاتمة من الملكات والوصيات على الحكم، أسيرات لرذائل لا حصر لها. إن للصورة السلبية للملكة التي تعادي الطبيعة بأن تنكر كلّ حياء وتستولي على السلطة بفنون الخداع والمراوغة لها، وعلى الرغم من هذا، نوعين إيجابيين في أنظمة الحكم: ذلك النوع الخاص بالمرأة «المتفوّقة على جنسها»، والمرأة «ذات الملامح الذكورية» التي تتقمّص شخصية بنثيسيليا (Pantasilea)، ملكة الأمازون، أو ديانا العفيفة التي تمثل الرحمة والقداسة البطولية لبعض الملكات العظيمات. إن النموذج المثالي الإنجيلي قد يُبرر الحالة الاستثنائية للحكم النسائي وهو ذلك الخاص بالملكة بتشبع، بينما المثال المضاد له هو ذلك الخاص بإيزابل الشريرة.

أعاد الطابع السياسي والجدلي لكراهية النساء تشكيل النزعات البطولية الباهرة للملكات والوصيات على الحكم، بدءاً من القرن السادس عشر، مما أدى إلى إخفاء الأخبار الخاصة بإعادة الوجود النسائي في حكم الإقطاعيات والمقاطعات، إذ كان مسموحاً للنساء بتولي الحكم حتى نهاية القرن الخامس عشر، في حالة عدم وجود ورثة من الذكور. وكان تعبير «السقوط على المغزل» (Tomber en quenoiulle)[1]، هو المصطلح المستخدَم للتعبير عن الحسرة لحدوث ذلك الأمر المؤسف وتأثيراته الناتجة عن عدم الاستقرار و«الفوضى»، مع انقطاع استمرار الملكية في السلالة الذكورية، فيُشار إليه كأحد الأسباب الرئيسية للصراع من أجل إعادة التعريف المستمرة لعلاقات القوة في الإطار الجغرافي السياسي الأوروبي التالي لتلك الفترة. فقد اشتعلت

(1) لا يمكن ترجمة التعبير حرفياً، وهو يعبر عن الاضطراب لمن يسقط في وضع أقل، أي ذلك الذي للمرأة، وهنا يتم التعبير عنها بكلمة المغزل.

حرب المائة عام، والحروب الإيطالية بسبب خلافات متعلقة باعتراضات حول تولي شخصيات نسائية الحكم، إضافة إلى صراع القرن الثامن عشر الذي كان يتعارض مع تولي ماريا تيريزا عرش النمسا، وتلك مجرد أمثلة لبعض الحروب الأكثر شهرة ودماراً.

إذا كان ممكناً في فترة ما أن تتولى الابنة الحكم عند وفاة أبيها، في حالة عدم وجود أبناء من الذكور، فإن إعادة إحياء القانون السالي في فرنسا قد استبعد ذلك، وذلك في محاولة لمنح السلالة الحاكمة القدرة على البقاء والاستمرار بانتقال لقب العائلة مع الحكم. إذ كان يحدث في حالة تولي امرأة السلطة بحكم صلة البنوة، أن تتنازل عنها لزوجها، فيتغير اسم العائلة ولقبها. ولقد كان الفرنسيون يخشون الوضع الذي كانوا يشيرون إليه بـ«السقوط على المغزل»، وهو تعبير سبق ذكره، إذ كانت كلمة «المغزل» تعبّر عن الأداة الوحيدة المناسبة لتوضع في اليد النسائية. إن التشدّد في تمثيل التوحيد الذكوري للسلالة الحاكمة استمرّ على المنوال نفسه، بدءاً من القرن الخامس عشر، وذلك من خلال عملية توحيد الولايات ومن خلال قمع حكم النخبة من المواطنين، وهي أشياء قد أصبحت ممارسات وراثية. فلتلْتزِم المرأة غزل الصوف بالمكوك والمغزل وتترك السلاح! كانت فكرة الحروب التي تقودها النساء ليست مجرد مجازٍ بل كانت مرتبطة بالذكرى القريبة والمقلقة لجان دارك، تلك البطلة القومية الفرنسية، التي تم حرقها بعد ذلك بوصفها ساحرة، وقد حاربت وحررت فرنسا من الاستعمار الإنجليزي بعد أكثر من مائة عام من الحروب، وأيضاً تلك الذكرى الأبعد لإيليونورا الأكويتانية، وهي امرأة أخرى قد ارْتدَت الدرع وأمسكت بالسيف في زمنها لتشارك في الحرب الصليبية الثانية مع زوجها لويس السابع، قبل جان دارك بثلاثمائة عام.

إن حياة بعض الملكات، أو بعض النساء اللواتي يمكن اعتبارهن «شخصيات استثنائية»، لأن دورهنّ حاسم على الصعيد العام تؤكد الإجابة السلبية للسؤال: «هل كان ثمة عصر نهضة للنساء؟»[1]. إن عصر النهضة يُعدُّ المعبر الرئيسي في بناء ما نعتبره حتى الآن أوروبا «الحديثة»: التوسع فيما وراء القارات، الدولة المركزية، قصر عمليات قمع العنف على المؤسسات القضائية، وتأسيس المجتمع الهيكلي، الثقافة السياسية والتجديد الديني[2]، ولكن هذا التقييم الإيجابي «ذكوري» في الأساس، فبالنسبة إلى النساء، لم تكن آثار قرون العصر الحديث سوى مزيد من المنع، وفرض الحدود الثقافية، إذ فُرضت قواعد مستوحاة ومستمدة لقيمتها من التفسير الأكثر تشدداً لكتابات بولس الرسول: فرض العفة، والإجبار على «تغطية الرأس» أمام الرب في الكنائس بينما يقف الرجال بروؤس مكشوفة، فيمنحهم جنسهم هذه السلطة ليتخذوا موقعاً مباشراً مع الذات الإلهية، وإذ يتم أيضاً فصل الجنسين، كل في مكان منفصل عن الآخر[3].

يكمن التناقض في صلب نظام التسلسل الوراثي للحكم في الأسر

(1) J. Kelly-Gadol, *Did Women Have a Renaissance?, in becoming Visible: Women in European History*, a cura di R. Bridenthal e C. Koonza, Houghton Mifflin, Boston 1977.

(2) من المؤكد أن هذا مجرد ذكر سريع. ولكن للتعمق أكثر في تصنيف كلمة «حديث» يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:

P. Prodi. *Storia moderna o genesi della modernità?*, il Mulino, Bologna 2012.

(3) في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (11، 2–16) يفرض بولس على النساء بأن يتقدمن إلى العبادة وقد غطين شعورهن، بينما يستطيع الرجال التوجه مباشرة إلى الله بروؤس مكشوفة، لأن المرأة عليها أن تضع على رأسها علامة اعتمادها على الرجل (11: 10)، وعن هذا الموضوع يمكن الاطلاع على مؤلف بريتسو:

R. Prezzo, *Veli d'Occidente, Temi, metafore, simboli*, Bruno, Mondadori, Milano 2008.

وخاصة في الصفحات من 87 إلى 89.

الحاكمة وكذلك العائلات الأرستقراطية في انقطاعه في أقل من قرنين رغم أنه هو ذلك النظام الذي وُضع في المقام الأول ليضمن الاستمرارية ومن أجل «الحاجة إلى الأبدية»[1]، وهو الأمر الذي كان يجعل رئيس العائلة يحدد مصائر أجيال أحفاده في المستقبل -حتى بعد موته ودون أن يراهم- دون الخضوع لحدود الزمن. ولكن ذلك ومثلما أظهر علامات سقوط النظام المطبق للسلالة الملكية، فإنه أظهر أيضاً جموداً سكانياً، وهو الأمر الذي كان مؤشراً أكيداً على أزمة في مقاييس الاستقرار العائلي واستقرار الدول. ففي بدايات القرن الثامن عشر، تسببت الاستراتيجيات الخاصة نفسها في نقل الاسم والتقاليد والسلطة -التي كان من المفترض أن تؤكد الاستمرارية- في اندثار عائلات أرستقراطية، سواء بسبب عدم وجود الورثة من الذكور، أو بسبب اختيار منح حق الزواج وحق الميراث لولد واحد وقد كان عليه ضمان استمرار السلالة.

ظهرت مواقف فردية خاصة مجابهة للعائلة أو معارضة لمصلحة الدولة (مثل حالة كريستينا ملكة السويد)، ويمكن لتلك الحالات أن تتنوع؛ من تعاسة زوجية إلى رفض الزواج من جانب الابن البكر، كنوع من الثأر الذي يسخر من القائمين على تنفيذ الوصايا، لا من الأرستقراطيين فحسب بل من الحكام أيضاً. شهد النصف الأول من القرن الثامن عشر بعض الاضطرابات الأوروبية التي تسببت فيها حروب الوراثة والمشكلات المتعلقة بوصول الحكم إلى أيدي شخصيات نسائية. وفي نهاية الأمر، لم يكن لوجود النساء في الحكم في شرق أوروبا -مثل الإمبراطورة كاثرين الأولى، وآن إيفانوفنا، وإليزابيث وكاثرين الثانية- تأثيرٌ مدمّر، حتى وإن كان ثمرة ظروف مختلفة

(1) M.A Visceglia, *Il bisogno di eternità: i comportamenti aristocratici a Napoli in età moderna*, Guida, Napoli, 1988.

تمام الاختلاف عن تلك التي أتت بماريا تيريزا ملكة النمسا إلى الحكم.

وأياً كان الأمر، فقد اختبر الفرنسيون قبل ذلك بكثير ضعف السدود المرتفعة ضد السلطة النسائية، في حالة وجودها بصفة شرعية: ففي النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي حكمت كاترينا دي ميديتشي، أرملة الملك هنري الثاني من عائلة فالوا، وأم أبنائه القصّر، زهاء ثلاثين عاماً بصفتها «الطبيعية» و«النسائية»، وصفة الأمومة هي التي منحتها ممارسة السلطة، وأبناؤها، حتى بعد أن بلغوا سن الرشد، تنازلوا لها جميعهم عن السلطة بسرعة، فيما عدا هنري الثالث، الذي طالب بالسلطة قبل أن يموت بعام واحد، إلا أن كاترينا دي ميديتشي كانت السبب في فتح الطريق أمام حكم عائلة البربون، وذلك بعد فناء سلالة الذكور من عائلة فالوا.

وكما يحدث ضد ملكات وحاكمات أخريات، تفجّر ضد كاتِرينا عنف تشويه السمعة في تزامن مع توترات داخلية وعالمية ذات طابع غاية في الخطورة. وفي تلك الحالة كانت الكراهية سبباً في نشوب صراعات سياسية ودينية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر في فرنسا. كان التشهير بالنساء الحاكمات متواتراً باستمرار، ولا يتوجه إلى اختياراتهن السياسية، بل يتم التعبير عنه باتهامات وألفاظ مشينة تمس جنسهن: كان الأعداء يصِمون حكم المرأة مشهّرين بها أخلاقياً وثقافياً، ويمكن اختصار هذه التهمة في إفساد دورها «الطبيعي» كأم عطشى للسلطة. على الرغم من أن تعابير المديح، في كل مرة يجري فيها مدح ملكة ما أو ذمّها، كانت مثل تلك التي تفصح عن كراهية شديدة؛ فإنها جميعاً عبارة عن مناورات دعائية ولا تنقل بالضرورة أحداثاً حقيقية، سواء كانت بناءة، أو مشينة ومرتبطة بعاداتها الجنسية في البلاط، أمّا في حالة كاترينا فقد كانت العبارة رفض «الحكم الوحشي للنساء»، وهو التعبير الذي انتشر في منتصف القرن السادس عشر

تقريباً، وكانت أصوله أقدم من ذلك ولكنه ترك أثره حتى اليوم في العبارات المتعارف عليها التي لا تزال منتشرة.

وسواء أكان الأمر عمداً أم سهواً، فإن الإعلام التاريخي، ذا التأثير المباشر في الجمهور -وفي مقدمته صناعة السينما- بشكل مستمر تقريباً، لم يهمل فقط السلطة غير المباشرة، تلك التي تم الحصول عليها بوساطة الخداع أو المؤامرات، بل أيضاً ذلك الدور السياسي، وهو الدور الذي حصلت عليه كثير من النساء بسبب المولد أو الزواج أو بسبب الموهبة، أو كان يتمّ ترديده كتفاهات، أو من خلال حكاية جامحة تعيد تمثيل العلاقات الساخرة للمعاصرين، أو المواقع الأدبية والمسرحية والميلودرامية لتلك النماذج الشعبية الشائعة في القرن التاسع عشر، والتي تفتح الطريق أمام استهلاك السير الذاتية استهلاكاً واسعاً وهي التي تم تحويلها تقريباً إلى روايات، وغَدت حتى الآن، الوسائل المباشرة، غير الضارة إجمالاً، للوصول إلى التاريخ بالنسبة إلى غير المتخصّصين.

وحتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين كان ثمة نوع من التحفظ في التاريخ الإيطالي نحو الدخول إلى قلب مشكلة السلطة بالإشارة إلى النساء، بينما كانت الأبحاث الخاصة بالدور السياسي النسائي قد بدأت في أماكن أخرى منذ عقد من الزمن. ولكن اهتمام الدارسات والدارسين لم يكن قد أدخل الحالات الاستثنائية لبعض خبرات السلطة النسائية في الإطارات الموسعة للتاريخ السياسي-المؤسسي فضلاً عن التاريخ الاجتماعي. وفي حالة إيزابيللا القشتالية فقد ظلت سيرتها الذاتية لبيجي لِيس -وهي إحدى النماذج الأولى لتلك الدراسات- قاصرة إلى حد كبير عن إعادة تركيب شخصية الملكة، دون التعمق في العناصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية

التي ميزت الإطار التاريخي الذي مارست فيه إيزابيلا حكمها[1].

إلا أن بالإمكان القول إن الظهور المتأخر لهذا الموضوع في التاريخ الإيطالي يمكن تبريره بنقص المواد الأولية: كان يوجد دائماً بالنسبة إلى الباحثات والباحثين من خلفية إنجليزية حشد من الملكات لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهله (ماري وإليزابيث تيودر، ماري ستيوارت، ماري ستيوارت الثانية، فيكتوريا، إليزابيث الثانية)، ولا حتى تصنيف حالاتهن بأنها «استثنائية»، إذ لا يمكن تجاهل أن السلسلة بدأت تماماً في القرن السادس عشر، ذلك القرن نفسه الذي كان يُعد فيه حكم المرأة «كارثياً». في فرنسا، وإضافة إلى ملكات فالوا (مارغريتا دي نافارا، وحفيدتها مارغريتا، التي اشتهرت لوقت طويل بلقب «مارغو الفاجرة») امتدت ظلال «الأجنبيات»: الإيطالية كاترينا، وماريا دي ميديتشي الطفلة الإسبانية التي اشتهرت بلقب آنا النمساوية، بينما كانت في الحقيقة نمساوية من جهة الأم فحسب، والكريهة ماري أنطوانيت هابسبورغ–لورينا، ابنة الإمبراطورة ماريا تيريزا.

لم يهتم أحد بهذا الشأن على مدار العصور، ولا يثير الدهشة إذن أن يكون الأمر نفسه في إيطاليا. ومن أجل العثور على شخصية تشحذ الخيال وتفرض نفسها بطلة للمشهد السياسي في عصرها، لا بد أن نعود إلى القرن الخامس عشر، إلى ماتيلدي دي كانوسا، التي لم تكن ملكة، ولكن كانت سيدة ذات سلطات ممتدة ومنافسة للإمبراطور هنري الرابع، وقد تركت أثراً بارزاً في الذاكرة الوطنية. ويعود هذا الأمر إلى كونها عاشت في فترة شحّت فيها الموارد –مقارنة بالقرون التالية– التي ربما جعلت تلك الفترة –على غير

(1) P.K. Liss, *Isabel the Queen, Life and Times*, Oxford University Press, New York-Oxford 1992.

وجه حق– فترةً «مُظلِمَة»، ولكنها ليست «ظلامية» بالضرورة، وقد ظل تميز شخصيتها منحصراً في تلك الحدود الخادعة التي وصفها بها معاصروها في أخبار الإطراء لمؤيديها وفي أخبار الذم لأعدائها من السياسيين[1]. على كل، ففي حالة ماتيلدي –التي يرجع إليها الفضل، أكثر من آخرين، في خطة توحيد إيطاليا السياسي بالاتفاق مع البابا– طغى نقل صورة العفة و«الرجولة». إن التناقض اللفظي في عبارة «المرأة المسترجلة» قد حماها من قَدَر، سيكون بعد بضعة قرون من نصيب مَلِكَتي نابولي جوفانا الأولى وجوفانا الثانية، واللتين ترتبطان في الذاكرة، في أعقاب نشر تاريخ القرن السادس عشر لغويتشارديني (Guicciardini)، بكل نوع من أنواع الوحشية. فقد نشَرَ أشهر عمل كلاسيكي للتأريخ الإنساني الإيطالي صورة مشوهة للملكتين، وجرّهما إلى «التصرفات الشاذة»، بحجة الضعف الآثم لجنسهما، وعدم القدرة على الحكم واتخاذ القرارات باستقلال عن عشاقهما وعن الأشخاص المقربين لديهما، الذين كانوا يتلاعبون بهما ويفسدونهما.

نتيجة ذلك، وحتى سنوات قريبة في إيطاليا، أظهرت الأبحاث أن سلطات النساء غير المباشرة والاستثنائية كانت إلى أمد غير بعيد مكمّلة لتلك التي للرجال[2]، ولفترة طويلة جرى إهمال السلطة الواضحة التي مارستها ملكات سواء وفقاً لحقوقهن القانونية أو بحكم الزواج في المحيط الأوروبي، ولم يكن ثمة دراسة متعمقة لظروف تولّي النساء أو استبعادهن من الحكم.

---

(1) يمكن الاطلاع على العرض المكثف لشخصيتها في كتاب:

V. Fumagalli, *Matilde di Canossa, Potenza e solitudine di una donna nel Medioevo*, Il Mulino, Bologna 1996.

(2) وعن «حِيل شبكات العلاقات النسائية» للإيحاء بالعلاقة التكاملية للمساهمة النسائية بالنسبة إلى تلك الذكورية في تفعيل استراتيجيات رفع الشأن، أو في النشاط الدبلوماسي غير الرسمي، كان أول من ذكر هذا آغو:

R. Ago, *Carriere e clientele nella Roma barocca*, Laterza, Roma-Bari 1999.

إضافة إلى ذلك، فإن الازدهار الكبير للأبحاث الأحادية المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية في الأعوام الأخيرة، وهي تشمل أيضاً أعمالاً مهمة لدارسين ألمان، متخصِّصين حصرياً في العصور الوسطى المبكرة، لا يتضمن سوى مساهمات هامشية لدارسين إيطاليين وإسبان -ولذلك لا تكاد الأبحاث تنجح في الخروج من المجال المتخصص إلى حد كبير، وهي بالنتيجة أيضاً لا تفلح في التأثير في الخيال الجماعي الذي يتكون بالفعل من حكايات متشابكة على خلفيات تاريخية تقريبية.

تبدو لي مشكلات الإعلام ملخصة في الاختيار والتأكد من مفاتيح القراءة القادرة على منح معنى لأعمال عديدة متعمقة أو مجموعات أبحاث، إذ لا يمكن العثور فيها بسهولة على فرضيات واضحة تأويلية وشائعة؛ ونظراً كذلك إلى الغياب شبه التام لضرورة تحديد فترة زمنية طويلة -تبدأ في أقلّ تقدير من العصور الوسطى المبكرة- تسمح باستبعاد اعتبار موضوع السلطة النسائية موضوعاً «مفاجئاً» يقابله مختلف المتخصصين مصادفة أثناء أبحاثهم، فيصنفونه بالنتيجة تحت خانة «الحالات الاستثنائية» التي تكون موضوع ترحاب أحياناً، وتُقابل أحياناً أخرى بالازدراء من قِبل المؤرخين الأكاديميين لأعمال السيرة الذاتية سبيلاً إلى نقل الذاكرة التاريخية، وهي تظلّ أمام نجاحها الجماهيري المستمر، مليئة بأعمال غالباً ما تكون رائعة ولكنها تتّبع بصفة عامة أثر أعمال قديمة تتميّزُ بالطابع الأدبي للتحليل الذاتي لأبطالها، وهو الأمر الذي غالباً ما يزدريه المؤرخون المتمرّسون المتخصصون.

إنني أخصُّ بهذا الإيطاليين: ففي واقع الأمر اِستطاع الفرنسيون ومتحدِّثو الإنجليزية (الأنغلوسكسون)، في أغلب الأحيان الربط بين الجدّية والشيوع. وأُشير هنا، كنموذج من كثيرين، إلى إيليان فيينو، -قبل عشرين عاماً مضت-

وإعادة تركيبه لشخصية مارغريتا دي فالوا[1]: فقد ترك للملكة كل جوانبها الإنسانية، محرراً شخصيتها من التغليف السيئ والخيالي الذي تراكم عليها بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين. والكتاب نموذج لكيفية تقديم شخصية دون أن تُسقَط عليها طرق التفكير والتعبير عن المشاعر الخاصة بالمجتمع الذي نعيش فيه اليوم. إن الفترة الزمنية خاصة بالسياسة وبالمجتمع، ولكن أيضاً بالثقافة وطريقة التفكير: إذا لم يبد الهدف طموحاً جداً والتناول جريئاً جداً، فلا بد من محاولة دمج شخصية مارغو لإيليان فيينو مع مارغريتا دي نافارا للوسيان فيفر[2]، الذي يمكن أن يساعدنا أيضاً في التحرر من قناعة أن التعبير عن المشاعر يتمّ بالطريقة نفسها، أو أن التصرفات التي تسبب الروع واحدة في كل عصر: يمكن أن نقول إن ذلك شأن تافه الآن، ولكنه ما زال أمراً صعباً من جهة التطبيق[3].

إن البحث التاريخي حول النساء في السلطة يتطلّبُ نوعاً من التحديد لحقبة زمنية؛ لا يُفترض معها جدلاً وجود فترة «لاحقة» تتبَعُ –بلا أية هزات ولا توقفات أو تنازلات– فترة «سابقة»، ولا تُسلم جدلاً بتسلسل للأحداث يُخرج من الظلام إلى النور أو من العبودية إلى التحرر، وكأن تلك المسارات التقدمية لا يمكن أن تعود إلى الوراء. إذا كان يمكننا أن نفكّرَ في هذا منذ قرن ونصف القرن، فإننا اليوم ننظر بواقعية، على الأقل لمواضيع بحثٍ تاريخيةٍ أخرى. والأهم من ذلك هو أن ننقلَ إلى القارئ غير المتخصص أن كل

(1) É. Viennot, *Margherita di Valois. La vera storia della regina Margot*, Mondadori, Milano, 1994.

(2) L. Febvre, *Amor Sacro, amor profano. Margherita di Navarra: un caso di psicologia nel'500*, Cappelli, Bologna 1980 (ed. orig. 1994).

(3) L. Febvre, *Storia e psicologia e Come costruire la vita affettiva di un tempo: la sensibilità e la storia, entrambi in Studi su Riforma e Rinascimento e altri scritti su problemi di metodo e di geografia storica*, Einaudi, Torino 1966 (ed. orig. Rispettivamente 1938 e 1941).

الأسباب التي كانت تدعو إلى استثناء المرأة من السلطة –بما في ذلك قواها الجسدية واستعدادها لاستعمال السلاح– هي أسباب لا علاقة لها بالطبيعة بل بثقافة تلك الفترة. إن الحالات الفردية التي تبعد كل منها عن الأخرى بخمسمائة عام، مثل الحالة الخاصة بماتيلدي دي كانوسّا ومارغريتا دي فالوا، لا يمكن تقييمها بالمقياس نفسه، حتى وإن كانت كلتاهما قد مارستا سلطة مَلَكية قُدِّر لها أن تكون لها تأثيراتها الشديدة في مجتمعيهما في ذلك الوقت وفي المستقبل. إن حجم السلطة التي يمكن أن يتمتّعَ بها ملك ما، لا يمكن، تأكيداً، أن يكون متساوياً في كل الظروف التاريخية: حتى من وجهة النظر هذه فإن أنظمتنا العقلية لا بد أن تُحدّد معاييرها تبعاً للفرص وطريقة تفاعل رجال الماضي ونسائه، وذلك بمقياس أن الحقوق لم تتبعها على الفور القدرة على التمتع بها، إن انتقاص الأعراف لا يوقف بالضرورة ذلك الصعود الصاخب للسلطات كأمر واقع.

سمح إلغاءُ القانون السالي في السويد في عام 1980 بأن تصبح فيكتوريا –الابنة الكبرى لغوستافو السادس عشر (Gustavo XVI) – الأميرة ولية العهد، وكانت التغييرات ذات الطابع الثقافي المتداولة في بلدها قد سمحت لها بالزواج بـ «شخص عاديٍّ» سيحصل على لقب ذي سموٍّ ملكيٍّ ولكنه لن يكون ملكاً أبداً، حتى وإن غدت زوجته ملكة. وقبل فيكتوريا، لم تحكم السويد سوى ثلاث سيدات: كانت الأولى مارغريتا العظيمة في القرن الرابع عشر الميلادي، وهي شخصية رائعة كملكة وكانت هكذا أيضاً حاكمة، وذلك في أعقاب موت زوجها هاكون (Hakkon)، ملك النرويج، ثم ابنها أولاف (Olaf). وكانت مارغريتا، الوريث الوحيد لأبيها فالديمارو الرابع (Valdemaro IV) قد تزوّجت هاكون وهي تبلغ من العمر عشر سنوات، وتولّى هو السلطات الملَكِية لزوجته: وكان انتقال الحكم من

المرأة إلى الرجل أمراً شائعاً جداً في العصور الوسطى في حالة انتفاء ورثة من الذكور، وقد أفاد ذلك الوضع في الوحدة بين ممالك النرويج والسويد والدنمارك[1].

في القرن السابع عشر الميلادي، تنازلت كريستينا وريثة العرش السويدي وهي في السادسة من عمرها عن الحكم حتى لا تضطر إلى الزواج: وسواء أثبتت الأدلة كونها سحاقية أو أن ذلك كان مجرد مزاعم، فالمؤكد أنها لم ترغب في قبول حكم مشروطٍ بالزواج[2]. إضافة إلى التنازل عن السلطة، حاولت كريستينا أن تمارسها في مكان آخر ولكن محاولاتها باءت بالفشل. ولكن أولريكا إيليونورا هي التي عانت التأثيرات السلبية جميعاً لكونها امرأة وقد تُوَجت ملكة على السويد منذ 30 نوفمبر عام 1718م، في أعقاب وفاة أخيها كريستيانو الثاني عشر، ومنذ التاسع والعشرين من فبراير عام 1720 «فقدت منزلتها» لتصبح قرينة الملك حتى وفاتها. في الواقع، تزوجت أوليركا إيليونورا عام 1715 بفيدريكو داسيا كاسيل (Federico D'Assia-Kassel)، الذي أراد أن يعيّنها ملكة مشاركة، ليحكما على قَدر المساواة، ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب معارضة البرلمان الذي تم إدخاله في السويد عام 1719م، ولذلك اضطرت إلى التنازل عن الحكم لزوجها بعد عام فقط من المُلك. وهكذا ورث فيدريكو الحكم، وهي على قيد الحياة، وأصبح الملك

---

(1) في ما يتعلّق بمارغريتا لا يمكنني سوى الإحالة إلى المدخل الخاص عنها في موسوعة «تريكاني» على الشبكة العنكبوتية. وكما في حالة أولريكا إيليونورا (Ulrika Eleonora)، التي سأتحدث عنها لاحقاً، ليست مصادفة أن يتم منح القليل جداً من الاهتمام لشخصيتين على قدر كبير من الأهمية. إلا أن مارغريتا، إضافة إلى ذلك، يتم الإشارة إليها على أنها زوجة هاكون.

(2) عن كريستينا والبيبليوغرافيا المتعلقة بها، فهي أيضاً ليست متوافرة على نطاق واسع، ويتم الإشارة إليها فقط في إطار نشاطها الأدبي ورعايتها للفن، ولكنني سأتوقف وأعرض ذلك في وقت لاحق.

فيدريكو الأول[1].

لقد اعترف إذن ذلك الحكم الملكي الألفي (وليست الأسرة الحاكمة، نظراً إلى وجود أسرة بيرنادوتي التي استعمرت البلاد فترة أقل من قرنين) وفي نهاية القرن العشرين فقط، بحقِّ الأميرة البكْرِ في أن يتمَّ اعتبارها المُكمِّلة للسلالة الملكية. ولم يُمارس أي قانون قطُّ في مكان آخر، يمنع المرأة من وراثة الحكم حتى القرن التاسع عشر الميلادي، ولكن هذا لا يعني أن الأمور كانت تسير بشكل أفضل: وهنا نتحدَّث عن الحال في إسبانيا، حيث لم يكن قد تمّ بعدُ بصورة رسمية منع حق المُلك على قشتالة عن جوفانا، ابنة إيزابيللا القشتالية وفرديناندو الأراغوني وأم كارلوس الخامس، ولكن ذلك لم يضمن لها أية مساحة يمكنها من خلالها أن تمارس الحكم. إن القانون السالي، الذي يفضِّل على النساء الوريثات، أبناء العمومة أو أي أقارب ذكور آخرين، يتحدثون اللغة نفسها، إنّما تمَّ فرضُه عام 1714م في إسبانيا، وذلك من قبل إنجلترا والنمسا، في أعقاب حروب الخلافة، تفادياً لقيام أحفاد فيليب الخامس البوربوني، الملك الجديد، وبسبب الوراثة النسائية، بتوحيد التاج الإسباني والتاج البوربوني في فرنسا. وبعد ذلك بقرن، أعيد طرح المعضلة الخاصة بتطبيق القانون السالي من عدمه: وكان الأمر يتعلق بقرار ما إذا كان يمكن أن ترث عرش الملك فرديناندو السابع ابنته إيزابيللا، التي وُلدت (فجأة) عام 1830م، أم أن يرثه عمها كارلوس ماريا إيزيدرو (Carlos Maria Isidro)، وكان فرديناندو قد عينه بالفعل ولياً للعهد[2].

---

(1) كما سبق أن ذكرت لا توجد دراسات حديثة عن أولريكا إيليونورا، ولا بد من اعتماد المؤلف التالي:

O. Jägershkiöld, *Lovisa Ulrika, drotting av Sverige*, Wahlström & Widstrand, Stockholm 1945.

وهو المرجع الذي تُحيل إليه كل المواقع التي زرتها على الشبكة العنكبوتية.

(2) عن إيزابيللا الثانية توجد عدة كتابات للسّير والمصادر، قديمة أو معاصرة، كثيرة جداً، =

دعمَ إلغاء القانون السالي وضع إيزابيللا دون حرمان أحفاد فيليب الخامس من حقهم في التاج الإسباني، منذ اللحظة التي وُضعوا فيها في نظام الإرث بعد كل الملكات المولودات من سلالة ذكورية من أول الأبناء. عند وفاة والدها وبعد أن أصبحت ملكة في سن ثلاث سنوات، أطلقوا على الطفلة اسم إيزابيللا الثانية وحكمت الأم ماريا كريستينا دي بوربوني (من فرع نابليون) بدلاً منها كحاكم مؤقت. رفض عمها الأكبر كارلوس ماريا إيزيدرو الاعتراف بشرعية وراثتها للحكم، وتلقب بكارلوس الخامس وذلك باسم القانون السالي، وهو ما ألغاه فرديناندو السابع بمفرده لمصلحة ابنته، ولكنه ظل طوال الوقت يطالب بالملك على أساس أنه الوريث الشرعي.

في أعقاب ذلك تولت إيزابيللا الثانية الحكم، وهي تقريباً لا تزال طفلة، بعد أن تزوجت ابن عمها فرانشيسكو داسيزي دي بوربوني-إسبانيا. لم تشارك الملكة زوجها في الحكم، تبعاً لواقعة خيانة لم يتم التأكد منها -إذ تعتمد على عجزه الجنسي ومثليته الجنسية- وهو ما لم يساهم في استمرارية الأسرة الملكية نظراً لأن الخصوم كانوا يزعمون أنه ليس الأب الحقيقي لوريث إيزابيللا، ألفونسو الثاني عشر. استمر حكم الملكة حتى عام 1868 وذلك عندما تم نفيها إلى باريس، في أعقاب نتائج الحرب مع سلالة كارلوس (أتباع دون كارلوس ماريا إيزيدرو، وابنه كارلوس لويس الذي سيعلن نفسه ملكاً باسم كارلوس السادس). وهناك تنازلت، بعد عامين، عن الحكم لمصلحة ابنها، الذي استطاع العودة إلى إسبانيا عام 1874، حيث حكم حتى وافته المنية عام 1885.

= ويمكن الإشارة إلى:

R.A. Gutiérrez Lloret, *Los Borbones. Isabel II (1833-1868; Madrid 1830-Paris 1904)*, La Monarquía Hispánica, Biblioteca virtual Miguel de Cervantes, http://www.cercantesvirtual.com/bib/historia/monarquia/isabel2.shtml.

يرتبط ذكر إيزابيللا الثانية، الملكة الوحيدة التي تمتعت بالصلاحيات الكاملة في إسبانيا، بذكرى حقبة من الزمن كانت فيها القوى التقدمية والتحررية تواجه، باسمها، العناصر الأكثر رجعية في المجتمع. وفي القرن التالي أيضاً، وبعد أن فرض الجمهوريون خلع حفيد الملكة، ألفونسو الثالث عشر، وإثر انفجار الحرب الأهلية بين الجمهوريين والقوميين، التي وضعت نهاية لآمال الجمهورية الفتية، أصبحت ديكتاتورية فرانشيسكو فرانكو ممكنة إلى حد كبير بسبب السلوك العسكري لأتباع كارلوس، ممن كان الجنرال فرانكو يعضدهم لمواجهة ألفونسو الثالث عشر، حتى وإن كان من يمثل ذلك القطاع هو دون ألفونسو البالغ من العمر ثمانين عاماً. وفي عام 1936 تولى الأخير المُلك وحمل اسم ألفونسو كارلوس. كان أتباع المدعو كارلوس، حتى بعد موته، يمثلون جزءاً هاماً من مؤيدي جيش فرانكو ورجاله حتى عام 1975، عندما انتهت الديكتاتورية وعاد مرة أخرى للمُلك على إسبانيا الفرع الإسباني لبوربوني -وكان قد بدأ مع فيليب الخامس، -وذلك بتولي كارلوس الأول حفيد ألفونسو الثالث عشر الحكم.

هل هي نهاية سعيدة؟ لا يبدو ذلك، نظراً إلى أن الصحف الشعبية قامت مؤخراً بالتساؤل حول الظرف التعس للولادتين النسائيتين المتتاليتين - لبنتي الملك الوريث فيليب: وهي المشكلة التي لا محلّ لها في ملكية دستورية للقرن الواحد والعشرين، إلا أن الرأي العام ما زال مرتبطاً بفكرة الذكورية في السلالات الملكية.

إن الثقافة الأوروبية تستخف، منذ وقت طويل، بل وتعُدّ التجارب الكثيرة لحكم الملكات والحاكمات بالوصاية هامشية، وليس هذا فقط بل كذلك قدرة النساء على تولي إدارة الممتلكات العائلية. ففي تسعينيات القرن العشرين، سلط إنتاج تاريخي ثري الضوء على أن تنازل الوريثات من

الأرستقراطيات عن تولي مملكات سلالتهن الملكية لمصلحة ذكور من الفروع العائلية لم يكن مُسلّما به. وهو ما أدى إلى إعادة التفكير في «وحشية» انتقال السلالة الملكية في السلطة إلى النساء، وزرع الشك في أن المبدأ الذي كان يُشرّع ذلك الاستبعاد هو مبدأ مبني على أسباب مرتبطة بالجنس بسبب تقسيم «طبيعي» للأدوار بصورة عامة. إلا أن فكرة السلطة النسائية المنتشرة منذ فترة طويلة بين المؤرخين المتخصصين (بمن فيهم بعض المؤرخات)، التي لم يتم استبعادها تماماً حتى يومنا هذا، تؤيد أن حكومات النساء كانت سيئة الحظ أو سعيدة في حالات عابرة.

إن هذا الطرح للمشكلة يمثّلُ ما تبقى لدينا من الثقافة التاريخية للقرن التاسع عشر، كما يتّضح لنا من حال إنجلترا أثناء حكم الملكة فيكتوريا. عن هذه السيدة وسنوات حكمها الثلاثة والسبعين، وعلى الرغم من التغيير العميق للإطار السياسي والاقتصادي الذي أحدثه «العصر الفيكتوري» في المملكة المتحدة ودول الكومنولث بمقاييس عالمية، فإن ما يتمّ تذكّره ليس سوى بعض الحكايات ذات الطابع الأخلاقي أكثر مما هو سياسي، بنوع من التأكيد القوي للقيم ونموذج العائلة البرجوازية التي جسدتها، في مقابل الفضائح الجنسية والمالية التي نُسبت إلى أعضاء العائلة السابقين للهانوفر، الذين تسببوا في فقدان الثقة في الملكية[1].

---

(1) إن أهم الأعمال عن فيكتوريا حتى الآن هو ذلك الذي ألفه ماي:

Lord T.E. May Farnaborough, *Constitutional History of England since the Accession of George the Third*, Longmans, Green & Co, London 1896 (prima ed. 1863).

الأعمال الأحدث –أو إعادة الطرح الأحدث– تم إهداؤها إلى قائد الدولة الذي قاد المملكة المتحدة في أقصى فتوحاتها الإمبراطورية، هي بصورة عامة سير ذاتية من النوع الأكثر شعبية وعاطفية. يمكن الاطلاع على:

S. Weintraub, *Victoria: An Intimate Biograpraphy*, Dutton, New York 1987; C. Erickson, *Her Little Majesty: The Life of Queen Victoria*, Simon & =

أسس مُلك فيكتوريا بالنسبة إلى البريطانيين مفهوم «ملكية العائلة»، سواء من ناحية العلاقة الناجحة مع زوجها ألبرت، أو فيما يتعلق بالتناغم العائلي الذي وحّد الملك والملكة –وذلك في تشابه مع الصورة الحميمية نفسها التي قدمتها الإمبراطورة ماريا تيريزا إمبراطورة النمسا قبل ذلك بقرن في الإشارة إلى العلاقات العائلية المترابطة التي كانت للملكة فعلياً مع كل العائلات الحاكمة. ولكن وضع التاريخ الإيجابي تلك الخصائص السياسية للملكة في مرتبة ثانية، وتركيزه فحسب في صورتها أمّاً للعائلة ولرعاياها، يجعلنا نفهم كيف أن إعادة النظر إلى الشخصيات بطريقة شاملة، حتى يومنا هذا، شيء نادر: إن تلك الثقافة، المعادية في تحليل الشخصية إذا لم تكن هذه من الآباء أو القادة، وغير القادرة على تقييم فيكتوريا سواء كبطلة سياسية أو كإنسان جنسه أنثى، قد نقلت عنها صورة سطحية وأحادية النغم لأم صارمة، ورعة إلى درجة تثير السخرية، والحال أننا ما زلنا ندين بالاكتشاف الأهم في إنسانيتها لإحدى أشهر السير الذاتية التي ألفها ليتون ستراتشي، ونشرتها المملكة المتحدة عام 1921 وتُرجمت إلى الإيطالية عام 1939، ثم جرت إعادة طبعها بلا توقف إلى يومنا هذا. لقد أمدتنا السيرة الذاتية لستراتشي بالعناصر التي تسمح بتقييم أكثر تعقيداً للشخصية وللملكة، وظلت نموذجاً مثالياً للنوع الشعبي للسِّير الذاتية الذي طالما احتقره الأكاديميون.

= Schuster, New York 1997; C. Hibbert, Queen Victoria: A Personal History, Basic Books, New York 2000; T. Rennell, Last Days of Glory: *The Death of Queen Victoria*, Viking, New York, 2000.

ولكن يُعدّ الكتاب التالي استثناء لهذه القاعدة:

R. Marx, *La regina Vittoria e il suo tempo*, Il Mulino, Bologna 2001.

ملكات بالصدفة

نساء حكمن في العصر الحديث

الفصل الأول

حاكمات بالأحقية أو بالأمر الواقع
ماتيلدي والأُخريات

1. الحدود غير المؤكدة للملكية النسائية

تُعدُّ الثقافات اليونانية–الإيطالية، والعبرية–المسيحية مراجع أساسية ولكن المؤكّد أنها ليست كافية لشرح سبب إسناد الأدوار الهامشية دائماً للمرأة، ولماذا تُعد نماذج البطولات النسائية مجرّد استثناءات، مما ينبع من طبيعة لها جذورها العميقة في الضمائر. وحتى إذا ما أمكن لدراسات جورج دوميزيل حول التركيبات الذهنية الهندية–الأوروبية، أن تكون مقنعة إلى أقصى درجة، فإننا نجد في عمق ذلك العالم الثقافي انقساماً وظيفياً للأنشطة الإنسانية التي تمنح المرأة دوراً تابعاً، مساوياً لدور العاملين في الأرض[1]، كما أن بعض أبحاث الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا (بما في ذلك أعمال دوميزيل نفسه) تمنحنا إشارات متناقضة بشأن هذا الأمر. وفيما يتعلق بالعالم القديم، فإن النظام ثلاثي الأجزاء –المجال المقدس، مجال الأرستقراطية المحاربة، ومجال

(1) G. Dumézil, *L'ideologia tripartite degli Indoeuropei*, il Cerchio, Rimini, 1988.

الإنتاج- قد انحدر بطرق متنوعة تبعاً للحقب الزمنية، فقد أكّد دوميزيل أن عبادة جونوني (Giunone) في مدينة لانوفيوم القديمة كانت تتخذ طابعاً مؤنثاً ثلاثي الأبعاد وكان يقابل ذلك الثالوث المذكر (جوبيتر، مارس، وكويرينوس، الإله الذي يحفظ السلام). كانت جونوني إلهة واحدة ولكنها كانت تتميز بالوظائف الثلاث المخصصة للأنشطة الإنسانية النموذجية في الثقافات الهندية-الأوروبية: الحرب، الخصوبة، والملكية المقدسة. كانت جونوني إذن تُعبد كإلهة وملكة، وتتدخل في مجالات الحرب منحازةً إلى جانب ما أثناء المعركة. وكما الحال بالنسبة إليها وإلى فيستا أيضاً، حيث كانت تُعرف عنهما بعض الصفات الذكورية، وكانت كاهنات الإلهة يُذكرن على أنهن عذارى محاربات[1].

ليس هذا هو النموذج الوحيد للتكامل بين الذكر والأنثى كنوع من تبني النموذج الهرمي الذي انحدر نحو الذَّكَر ويجمع في أعلى قمة المجتمع كهنة من الملوك والمحاربين. فقد لوحظ كيف أن تقديس (βασίλεύς) الملك البيزنطي كان مصحوباً ببعض العلامات الغامضة. وفي هذه الحالة كان تعريف المَلَكِية قد استخدم مجازات جنسية لم تقتصر فقط على الإشارة إلى الرجولة والدور الأبوي للملك، فهو ليس من يمنح الحياة من البذرة فحسب بل هو أيضاً من يغذّي، وبالنتيجة تتكامل في شخصيته أيضاً إحدى وظائف الأمومة ومعها بالتبعية الصفة الأنثوية. تمّ تمثيل ذلك الازدواج برموز الشمس والقمر، وقد أصبحت في المخيِّلة الشعبية البيزنطية علامة جلية استعارتْها من الثقافة الفارسية فور حضور شخصية ملكية أو ظهورها.

إن الغموض الجنسي للملك-الإمبراطور، الذي هو أب وأم في آن واحد،

(1) J.M. Pailler, *La vierge et le serpent. De la trivalence à l'ambiguité*, in «Mélanges de l'École française de Rome», Antiquité, 109, 1997, 2, pp. 513-575, pp. 523-524.

كان يحدّد الزواج الإمبراطوري نفسه، حيث كان الارتباط المقدس في الواقع هو ذلك الحادث بالجسد الجماعي للشعب؛ كانت العلاقة الجسدية مع امرأة تحتل مرتبة أقل، وكانت هوية زوجة الإمبراطور البيزنطي لا تستكمل بجسدها الأنثوي الجسد الذكوري للملك الذكر. فمن الناحية النظرية، لم يكن لمبدأ الخلافة على الأساس العائلي والملكي من معنى في الإمبراطورية البيزنطية؛ فالارتباط البيولوجي والنسب -سواء في ذلك ما اختص بالإمبراطور أو بقرينته- كانا أمرين هامشيين بل ويمكن حدوثهما بمحض مصادفة، ولا يحددان اختيار الإمبراطور الذي كان يعينه الرب مباشرة. وكان يمكن تمثيل الزواج الإمبراطوري كوحدة رمزية بين الملك وبين الجانب الأنثوي من شعبه، ذلك الذي يخدم الأرض ويرتبط بها. ومن أشهر الحالات -بين الأمثلة العديدة لزيجات حدثت مع نساء من مستوى أقل- ذلك الارتباط الذي وحد بين تيودرا وجوستينيانو[1].

إن نماذج العالم القديم والبيزنطي تجعلنا نستشف التوترات بين عالمية النموذج وتنوع التطبيق في الثقافات المختلفة والإمكانات التي لا يمكن البتة تجنبها للالتفاف حول صرامة منع الاختلاط بين ما يجب فصله، وبما في ذلك الذكر والأنثى في مجال القيادة. إلا أن التقسيم الثلاثي هو ما أسس النماذج النمطية الثقافية التي سمحت باستثناء المرأة من المقدس ومن المناصب الحربية السامية، فقد تأسست تلك النماذج من منح الشرعية لسلطة المِلِك والأرستقراطية. وفي حالة أوروبا العصور الوسطى والحديثة، كانت استعارة رسالة بولس الرسول حول هذا الأساس الألفي الذي شرَّع -لمدة ألفي عام أخرى- الهيكلة الاجتماعية والقائمة على الجنس في المناطق التي غزتها

(1) D. A. Miller, *Royauté et ambiguité sexuelle*, in «Annales. Économies, Sociétés, Civilisations», 26, 1971, 3-4, pp. 639-652.

روما وانتشرت فيها المسيحية[1]. إن حالات النساء اللواتي تولّيْن الحكم في أوروبا، بشكل رسمي تقريباً، تتفق جميعها في واقع إمكانية حدوث هذا الأمر بسبب عدم الاستقرار السياسي؛ حتى وإن كان للحظات الأزمة خصائص ونتائج مختلفة، إلا أن تولّي المرأة الحكم كان يمكن حدوثه فحسب بسبب غياب مبدأ استمرارية حكم الأسرة الملكية من خلال السلالة الذكورية أو انقطاعه.

في العصور الوسطى المبكرة كان تفتيت الهيمنة وتعدد القوانين والعادات المتداوَلَة جميعها تمنع وجود حواجز لا يمكن تجاوزها فتَحُول دون ممارسة المرأة السلطة. كان القانون السالي نفسه يسمح لهنّ بالوراثة، حتى وإن جرى التلاعب به في القرن التاسع عشر وأصبح خاضعاً لضرورات مختلفة. كان الوضع يتعلق في واقع الأمر بمجموعة من القوانين التي قد تعود إلى حقبة الملك كلودوفيو (Clodoveo) (481–511م) وقد كانت تستند إلى نظام اجتماعي قائم على العشائر، لم تكن فيه الأرض المزروعة مِلْكِيةً خاصةً بالمعنى الحرفي، فقد كان لكلِّ جماعة الفلاحين حقوق فيها. وفي كلّ الأحوال لم تكن الأرض أيضاً محل إعادة للتوزيع الدوري، إذ كان يتمُّ نقلها بالوراثة حسب الوَرَثةِ من الذكور تبعاً لرئيس العائلة. وكانت العقبات التي توضع أمام المُلاك تتمثّل في أن أي فلاح لا يمكنه بيع الأرض التي يزرعها، وإذا ما مات المُزارع دون أن يترك ورثةً من الذكور، فإن مِلْكية الأرض كانت تنتقل إلى «الجيران»، أي أعضاء الجماعة[2]. كانت العادات المحلية والظروف

---

(1) D. A. Miller, *Vers une théorie unifiée de la royauté et de l'aristocratie*, in «Annales, Économies, Sociétés, Civilisations», 33, 1978, 1, pp. 3-20.

(2) É. Viennot, *La France, Les femmes et le pouvoir. L'invention de la loi salique (Ve-XVIe siècle)*, Perrin, Paris 2006; J. L. Nelson, *Family Structures and Women Rulers in Europe. Agency, Practice and the Representation of Political Powers (XII-XVIII)*, a cura di G. Calvi, EUI Working Papers, HEC n.2008/2, pp. 27-44.

الخاصة، حتى قبل التنظيمات الإقطاعية التي أدخلها الكارولنجيون، يمكن أن تقود المرأة إلى القيام بأدوار ذات أهمية سياسية، سواء أكانت من سلالة مَلَكية أم لا[1]. إن العديد من الملوك الألمان لَيدينون بصعودهم إلى الحكم وبألقابهم المَلَكية إلى ارتباطات وثيقة من خلال الزواج بشخص من عائلة مَلَكية، سواء كان إحدى قريبات ملك سابق أو حتى أرملة[2]. لم يكن «النبل» في ألمانيا يعني حالة مُكتسبة من حقَ وراثيّ ولكنه كان المصطلح الذي يتمَ التعبير من خلاله عن رفعة السادة العظماء؛ بينما ما كان يميز «المختارين» ممن يحكمون أوروبا هو التكريس أو التتويج الذي كان يميّزهُم عن السادة. كانت للملوك المميزات نفسها التي لمرتبة السادة مُلاّك الأراضي، وكان النبل هو الاعتراف بالقوة بالمعنى العام[3]، بالاختلاف عن نموذج النظام الفرنسي – الذي نشره الكارولنجيون–، ففي الممالك التي لم تنجح في تطوير سلالات مَلَكية خاصة، حيث لم تكن المَلَكية قاصرة على عائلة واحدة وبقيت متعلقة بشدة بالصراع على المُلك، كان يتمُ استغلال الملكة الأرملة في أغلب الأحيان لنقل

(1) من أمثلة صعود امرأة من أصول متواضعة إلى السلطة نموذج الملكة بالدو القوطية الغربية (Visigoth)، وقد عاشت في القرن السادس الميلادي، وبعد أن ارتبطت بريكاريدو (Recaredo)، بعلاقة غير شرعية، تزوجته عام 586م وارتقت معه العرش. والسبب الذي من أجله تزوج ريكاريدو امرأة من الشعب في نهاية الأمر، إضافة إلى السبب (المؤكد) المتعلق بجمالها الفاتن، أن قرار الزواج كان هو الأمر الفوري المصاحب لقرار الملك، ومعه كل شعبه، باعتناق المسيحية؛ وكان قرار اعتناق المسيحية قد تمت الموافقة عليه وقوبل بحفاوة في مجمع طليطلة عام 589م. وفي تلك المناسبة، قامت بالدو، وهو الأمر غير المعتاد وقتها بكل تأكيد، بتوقيع وثيقة المصالحة. انظر المؤلف التالي:

M.G. Fuente, *Reinas medialvales en los reinos hispánicos*; La Esfera de los Libros, Madrid 2003.

(2) M. Hartmann, *Die Königin im frühen Mittelalter*, Kohlhammer, Stuttgart, 2009.

(3) T.N. Bisson, *Princely Nobility in an Age of Ambition (c. 1050-1150)*, in *Nobles and Nobility in Medieval Europe, Concepts, Origins, Transformations*, a cura di A.J. Duggan, The Boydell Press, Woodbridge 2000, pp. 101-113.

الملكية إلى الزوج الجديد، الذي يقدّم نفسه ضامناً للاستمرارية والاستقرار، وذلك لِيحدَّ من الصراع الناتج عن موت الملك وليمنح شرعية رسمية للملك الجديد الذي تختاره الأرستقراطية العسكرية[1].

إنها حالة ملكات لونغوباردي، واللاتي كان حضورهن السياسي في القرن السابع مرئياً بشكل لا يمكن مقارنته بأي ملكة أخرى في أوروبا؛ وكانت المكانة الممنوحة لهن موثّقة بشكل جيد، مثل حالة آنسا (Ansa)، زوجة ديزيديريو (Desiderio)، التي كانت توصف بالألقاب التالية: «صاحبة الفخامة»، «صاحبة العظمة»، «العظيمة جداً»، «صاحبة السعادة»، «صاحبة السمو»؛ إضافة إلى ذلك يُشهد على وجود موظفين إداريين وحفظة أسرار تحت رئاستها المباشرة. إثر هزيمة الملك ديزيديريو لم يتم الاحتفاظ بهذا الوضع، ومنذ تلك اللحظة أصبحت ملكات لونغوباردي يُذكرن فقط على أنهن زوجات الملوك، مرتبطات بهم برباط شخصي فقط، وبالنتيجة دون أي اعتراف بسلطة تُنسب إليهن، سوى ذلك اللقب الشخصي «قرينة الملك المحبوبة». إلا أن الملكات احتفظن بدور الإشراف على وظيفة «إدارة البلاط» التي كانت تشمل التصرف في الأموال وتقاليد تبادل الهدايا مع الحلفاء. وكان وضعهن في البلاط يوفر لهن إمكانية تكوين علاقات مستمرة بالشبان الأرستقراطيين وقد كنّ يعملن على تنشئتهم، فكنّ يصنعن بذلك مجموعات ضغط تعمل لمصلحتهن[2].

إذا كان وجود المرأة في أدوار السلطة قد زاد في أوروبا بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، فإنه قد حدث بالتزامن مع الاعتراف بالمكانة الشرعية للملكات، وكانت حالات عزلهن أو استبدالهن بأخريات أصغر سناً نادرة

(1) C. La Rocca, *Donne al potere. Le regine nell'alto medievo*, Giunti, Firenze 1996, p. 25.

(2) *Ibid*.

جداً، وكثيراً ما كان يتمّ تنصيبهنّ على العرش في احتفال مهيب. في الوقت نفسه يتمّ منح صفة «قرينات الملك» في الشهادات الملكية. إن دراسة (*De Ordine palatii*) حول إدارة القصر للأسقف هينكمارو (Hincmaro) –الذي كان يرأس السلطة الكنسية الفرنسية من (845 إلى 876م)– توضح كيف أن دور قرينة الملك مرتبط بالوجود المشترك مع الملك في المناسبات العامة وكذلك بالعلاقات الخاصة بدورها كزوجة للملك. كان للملكات دور العناية بترتيب القصر وتنظيم الاحتفالات المرتبطة بكل مناسبة رسمية كما يليق بالقصر[1]. وكان يُضاف إلى الدور المعترف به لهن رسمياً التأثير الذي كانت تمارسه الكثيرات بفضل علاقتهن الخاصة بأزواجهن، مستخدمات في ذلك ليس فقط جمالهن بل حَدسهن السياسي أيضاً وثقافتهن. كانت هذه قوة غير رسمية مضافة إليهنّ، وغالباً ما كانت تحمل في طياتها خطورة أن تصبح مُعرقلة، وهو الأمر الذي كان يقود الملك وجزءاً من الحاشية إلى قرار الابتعاد عن الزوجات، سواء بحجة العقم أو الخيانة أو سوء الطبع أو نقص جمالهن.

لاحظنا كيف كانت النزعة البطولية للملكات ترتبط بأزمة السلطة المركزية، فمنذ عام 887م، ومع الإطاحة بشارل الثالث المعروف باسم شارل البدين (Carlo il Grosso)، وهو الأمر الذي أطلق تأكيداً قوياً لدور النساء المنتميات إلى العائلات النبيلة؛ أصبحت لسلطاتهن، التي كانت بلا

---

(1) حول دور النساء في العائلات المالكة وكعناصر مرتبطة بموازنات السلطة، وخاصة حول أهمية الاعتراف بمنصب «القرينة» لزوجات الملك الفرنسي، يمكن الاطلاع على:

R. Le Jan, *Femmes, pouvoir et société dans le Haut Moyen Age*, Picard, Paris 2001.

حول دور الملكة وما يخص إدارة القصر كما جاء في (De Ordine palatii) يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:

J. Dufour, *Le role des reines de France au IXe et Xe siècles*, in «Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres», 142, 1998, 3, pp. 913-932.

شك موجودة فعلاً [...] وسيلة للظهور بوضوح، سواء كنّ متزوّجات أو أرامل أو غير أرامل. اعتمد هذا الأمر إلى حدٍّ كبير على تدهور الأداء الخاص بالرجال من الكارولنجيين، وتدهور الأداء في سلطات أصحاب الألقاب ووظائفهم، سواء في ذلك الكونتات أو الماركيزات أو ذوو الحيثيات العامة. وليس مصادفة إذن ظهور مثل هذا النوع من النساء بأعداد متزايدة، في نهاية القرن التاسع الميلادي[1].

ولكن هذا التأكيد يرتبط به أنّ وضْعَ الملكات كان بعيداً تمام البعد عن القوة، بسبب السهولة التي كان يمكن بها إلغاء الزيجات من قبل السلطات الكنسية. كانت لزوجات الملوك في فرنسا، مكانة هشّة إلى أقصى حدّ حتى القرن الثاني عشر؛ فمن شارل الثاني الشهير بشارل الأصلع (Carlo il Calvo) إلى فيليب أغسطس (Filippo Augusto)، أي منذ القرن التاسع إلى بداية القرن الثالث عشر، تزوج سبعة عشر ملكاً بثلاثين امرأة، منهنّ عشرٌ تمّ إبطال زواجهنّ، وعشرٌ لم يُعترف بهن كزوجات شرعيات. والجدير بالتأمل أن تلك الزيجات الفاشلة والعلاقات المضطربة تركّزت في بداية هذه الفترة وفي نهايتها: تُوجد ثلاث حالات منها، بالترتيب في أعوام 867، و878، و886م، لدى آخر الكارولنجيين (شارل الثاني الأصلع، وابنه لويس الثاني، وأخوه شارل الثالث البدين)، بينما تتعلق الحالات الأخرى، بدءاً من عام 992م، بكل سلالة أوغو كابيتو (Ugo Capeto) حتى عام 1201، عندما اضطر فيليب أغسطس (1165– 1223م) إلى الخضوع لما فرضه عليه البابا بالاعتراف بإنجبرغ (Ingeburge)، أخت ملك الدنمارك كانوتو السادس (Canuto VI)،

(1) V. Fumagalli, *Adelaide e Matilde, due protagoniste del potere medievale, in La contessa Adelaide e la società del secolo XI*, Atti del Convegno di Susa (14-16 novembre 1991, numero monografico di «Segusium», 32, 1991, 29, pp. 243-257, citazione alle pp. 256-257.

كزوجة شرعية.

تم استبعاد إنجبرغ لأسباب لم تتضح قطُّ ولكنها أدّت إلى إلغاء حفل التتويج واستبعادها من القصر في اليوم التالي للزواج الذي كان في 14 أغسطس 1193، مع ما عقبه من رفض فيليب أغسطس الاعتراف بها كملكة، في انتظار فسخ عقد الزواج من قِبَل البابا إينوسنت الثالث (Innocenzo III). يمكن التخمين بأن الملك اكتشف أن إنجبرغ، البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً وقتها، قبيحة إلى درجة لا تُطاق، أو ذكية جداً إلى درجة لا تُحتمل. ولكن الصورة التي بقيت عنها لا تؤكد أيّاً من الافتراضين، فالأميرة الصغيرة تبدو فيها بشوشةً ولطيفةً. تبعاً للمؤرخ الإنجليزي ويليام دي نيوبيرغ، فإنّ السبب لا بد أن يكون رائحة أنفاسها التي لم تكن تُحتمل، أو أن يكون ثمة تشوه ما في جسدها لا يظهر في البورتريه، مُخبّأ أسفل الملابس، أو لأن الفنان الذي رسمها لم يرغب في إظهاره[1].

وأيّاً كان الأمر، لم يكن فيليب يتوقّعُ أن يتمّ الإعلان عن إبطال الزواج، وكانت الذريعة التي طلب بها الإبطال غير ممكنة الحدوث: فقد كان الملك يؤكّد أن الرباط بينهما سيؤدّي إلى سفاح الأقارب، أي أن بينهما صلة قرابة (إلا أن هذا لم يتم الإعلان عنه من قبل). ولكن الزيجات التي تتم بين الأقارب حتى الدرجة السابعة كانت تُعدُّ في تلك الفترة «سفاحاً»، سواء كانت تلك الصلة صلة بالدم أو بالنسب، أي من خلال زواج الأقارب، أو حتى تلك الصلة الروحية من خلال الاشتراك في أب أو أمّ بالمعمودية. كان ذلك تدخلاً في الاختيار الحر في الزواج –من قبل رؤساء العائلات وليس الأفراد الذين لم تكن لديهم قط الحرية في اختيار شريك الحياة– ومن قِبَل الكنيسة التي كانت

(1) *Chronicales of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I*, a cura di R. Howlett, Longman, London 1884-1889, vol. I, p. 369.

تحاول أن تحُدَّ من الصراعاتِ وعدم الاستقرار الاجتماعي، موسعةً بذلك مساحة إمكانات التحالف لِتمنعَ السلالات الأسرية الأقوى من أن تنغلق على نفسها ومثلها أسر أعدائها أيضاً.

لم تكن هذه الطريقة في المنع حتى قرابة الدرجة السابعة فعالة دائماً، ومن العجيب أنها كانت تؤدّي في النهاية إلى عدمِ استقرار الزواج (وبالنتيجة عدم الاستقرار السياسي)، إذ لم يكن مستبعَداً عند الضرورة اكتشاف صلة قرابة بعيدة للتحرر من زواج لم يعد مرغوباً فيه، ثم الارتباط من جديد. إن العدد القليل من العائلات المالكة التي كانت تتحالف من خلال الزيجات كان النتيجة الحتمية لطلبات سماح من الأساقفة؛ وهي ممارسة لا تمنع الزوج من «الندم» المتأخر نوعاً ما، عن خطيئة ارتكبها، إذا كان البابا موافقاً على ذلك، فيتمُّ السماح له باستبعاد زوجة غير مرغوب فيها من خلال إبطال الزواج.

وأصدرَ المجمع المقدّس المنعقد في كومبيين (Compiègne) قراراً في الخامس من نوفمبر 1193 بإبطال زواج فيليب أغسطس، ولكن الملك وجد نفسه أمام رفض البابا سلستين الثالث (Celestino III) باعتماد هذا القرار، الذي أعلن عام 1195م، وبناء على طلب من الملك كانوتو السادس شقيق الأميرة إنجبرغ، أنّ قرار المجمع المقدس غير شرعي. لم يمتنع الملك مع هذا من الزواج من آنييزي دي ميراني (Agnese di Meranie) عام 1196، فأصبح لذلك متهَماً بالزواج مرتين، ولهذا السبب أصدر البابا إينوسنت الثالث قراراً بالحجر على أراضيه. لا يتضح لنا تفسير رد الفعل القوي من قبل البابا إلا أن يكون محاولة نزع المصداقية عن الفكرة الرومانسية للحبّ الصاعق الذي أصاب الملك في اليوم نفسه لزيجته السابقة. في الواقع يُقال عن آنييزي إنها كانت غاية في الجمال، ولكن لا يمكن الثقة بتاريخ المعاصرين، فقد كانوا إما

مجاملين جداً أو مشوِّهين للسمعة جداً؛ أما بالنسبة إلى المصادر الأيقونوغرافية، فقد كانت تعكس « أنماطاً» نسائية أكثر من كونها تعكس الملامح الحقيقية لسيدات من لحم ودم.

إن التصرّف التالي لفيليب أغسطس لا يمكن تفسيره حتى بحاجته إلى وريث حيث أن آنييزي، وقد ماتت في سنّ الخامسة والعشرين عام 1201م، قد أنجبت له ولدين بالفعل؛ ولكن إنجبرغ كان يمكنها، وبالمثل، أن تنجبَ له أيضاً، لو كان قد منحها الفرصة. وما زالت الأسباب المتعلقة بالسياسة والخاصة بالتحالف غامضة: فبالزواج من إنجبرغ، كان فيليب أغسطس سيختار أن يكون معادياً للإنجليز. في أعقاب وفاة آنييزي، عادت مع البابا من جديد المفاوضات الخاصة بإلغاء الانفصال عن إنجبرغ، وكانت قد توقّفَت بصورة مؤقتة، وبدأت المفاوضات من جديد عام 1205 عندما حاول فيليب أغسطس مجدداً إلغاء زواجه بالمرأة التي ظلت كل تلك الفترة حبيسة الدير، مستخدماً الذريعة الأكثر وضوحاً، بأن الزواج لم يتم. في عام 1207 حثّ إينوسنت الثالث فيليب أغسطس على الخروج في حملة صليبية ضد الكثاريين الهراطقة الذين كانوا يُعرفون بأنهم عار على الطبيعة، مانحاً إياه مغفرةً لخطاياه. في المقابل رفض الملك محاولة فرض قوى جديدة على البابا فيما يتعلق باستقلاله في اختياراته الزوجية، وكفّ عن محاولة انفصاله عن إنجبرغ. وحصلت الملكة على الأقل على التعويض بأن ظلت معروفة بأنها زوجة الملك[1].

عام 1215م، وقبل وفاته، اِفتتح إينوسنت الثالث مجمع لاتران الرابع؛ الذي كان له تبعات مهمة أيضاً في سياسة اختيار الزيجات لدى العائلات الكبيرة،

---

(1) يمكن الاطلاع على ذلك الحدث بالتفصيل في كتاب:
Viennot, *La France, Les femmes et le pouvoir* cit.

وذلك بأن قصَرَ علاقات القرابة التي تجعل من الارتباط علاقات سفاح على أربع بدلاً من سبع: وهو الأمر الذي كان الذريعة الأولى التي يتمّ اللجوء إليها للتخلص من الزوجات، بحجة أن الزوج لم يكن يعرف بوجود علاقة قرابةٍ بعيدةٍ بينهما. كانت إمكانية إبطال الزيجات السابقة قد أدت إلى مزيد من عدم الاستقرار في التحالفات، إضافة إلى عدم استقرار موضع الملكات. كانت تهمة العقم، أيضاً، إحدى الحجج التي كان يمكن أن تقود الكنيسة إلى إعلان قرار إبطال الزواج بشكل سهل نسبياً. ولكن كان بإمكان الأزواج أن يقدّموا الطلبات، وتعمل السلطات الكنسية على دعمها بتبريرات أخرى. قام حفيد شارلمان، الإمبراطور لوتاريو الثاني (Lotario II) عام 857م، بعد عامين فقط من الزواج، بإبطال زواجه بالملكة توتبيرغا (Teutberga): «وهي حالة الطلاق الأولى التي تم فيها الجدل الرسمي أمام القضاء في أوروبا في عصر الكارولنجيين»[1]؛ ونظراً إلى أن المدة التي استغرقتها الزيجة لم تكن كافية لإثبات عقم الزوجة، فقد قدّم الإمبراطور عام 860م، وأمام مجمع الأساقفة المجتمِع في أكويسغرانا، اعترافاً «مفاجئاً» من زوجته أقرت فيه بأنها كانت على علاقات سفاح مع أخيها الذي عاشرها حسب النسخة التي كتبتها الملكة. ثم أجهضت توتبيرغا بعد هذه العلاقة جنيناً. حصل لوتاريو من الأساقفة المجتمعين على إبطال الزواج، وتمّ الحكم على الملكة بالانعزال في أحد الأديرة[2].

(1) La Rocca, *Donne al potere* cit., pp. 14-15.

(2) S. Airlie, *Private Bodies and the Body Politic in the Divorce Case of Lothar II*, in «Past&Present», 161, 1998, pp. 3-38.

2. «قرينات»، «أمهات محبوبات»، «ملكات بالأحقية»

قبل حالة فيليب أغسطس، كان ثمة حالتان من الزيجات العشر التي تم إبطالها من قبل الملوك الفرنسيين، بسبب الضرورة الخاصة بالسلالة الملكية. كانت الحالات الأخرى جميعاً بدافع الرغبة في الزواج من نساء أجمل وأصغر سناً. ومن بين الزوجات المطرودات لهذا السبب إيليونورا الأكويتانية (بعد إحدى عشرة سنة من الزواج وحمْلَين ناجحين). ويوجد --على العكس- مثال واحد لبطلان الزواج قدَّمته ملكة انصياعاً «لنزوتها»؛ أديلاد دانجو (Adelaide d'Angiò)، أرملة كونت جيفودان، فقد تزوجت في سن الخامسة والثلاثين بملك فرنسا لويس الخامس، الذي كان يبلغ من العمر وقتها خمسة عشر عاماً، وتركته بعد بضعة أعوام لتعيش مع غوليلمو الأرلي، الذي تزوجته بعد ذلك. مات لويس بعدها مريضاً ووحيداً، بلا ورثة للعرش، بينما أنجبت أديلاد وغوليلمو ابنتين، إحداهما هي كوستانزا، التي تزوجت بروبرتو، ملك فرنسا الثاني من أسرة الكابيتيون الملكية[1].

(1) Viennot, *La France, les femmes et le pouvoir*, cit.

على الرغم من أن روبرتو أُطلق عليه لقب الفاضل، إلا أن حياته العاطفية كانت صاخبة، وهو الأمر الذي كلّفه الحرمان الكنسي؛ من جهة أخرى، فإن سمعة كوستانزا نفسها لم تكن ناصعة البياض أيضاً. هذا على الأقل ما قصّه التاريخ المعاصر عنها، وقد صورها تافهة وبخيلة، متكبّرة ومنتقمة. من جهة أخرى كان معروفاً أن البروفانسيين الذين وفدوا إلى البلاط مع كوستانزا كانوا موضع احتقار الفرنجة، وكان شعوراً متبادلاً. كانت الثقافتان مختلفتين تماماً، وكان البلاط البروفانسي يعج بالأدباء والفنانين، ويعشق التجديد والذوق الرفيع؛ وكان الرجال يحلقون ذقونهم (وهو الشيء الذي يجعلهم متشبّهين بالنساء في نظر الفرنجة)، وكان العلمانيون يحلقون شعورهم على طريقة رجال الدين. وحسبما يقصُّ الشاعر هيلغو دو فلوري كان الملك يخاف من زوجته، فكان يصفها بالتقلّب والغدر وكأنها نمرة. الأحداث التالية تثبت أنه على حقّ، إذا أردنا أن نتخذ من هذا الرأي المزدري للنساء والكاره لهنّ كوصف مسبقٍ لعدم الحنكة السياسية التي استطاعت كوستانزا إثباتها للحفاظ على دورها كملكة فرنسا.

(L. Theis, *Robert le Pieux. Le roi de l'an mil*, Perrin, Paris 1999; Helgaug de Fleury, *Vie de Robert le Pieux*, trad. Fr. di R.-H. Bautier, CNRS, Paris, 1993).

في الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وبعد تأكيد قانون المولود الأول تم -بثبات- تطبيق نظام الوريث الوحيد، المقتصر على المولود الأول الذكر، كان يتمُّ اختيار الملكة، بصفتها أمّ ملك المستقبل، بعناية شديدة جداً من بين الأميرات، وأصبح لها الطقوس الخاصة بها، بتصعيدها إلى العرش وتتويجها، وتُسنَد إليها ألقاب ملكية خاصة. بينما كان يُفضَّل في القرون السابقة أن تكون الملكة من مستوى أقل، خوفاً من أن تتسبب قوة عائلتها في التدخل أو تكوين أحزاب نافذة أو خطيرة داخل البلاط، وأن يكون لها موقف شخصي قوي. أصبحت اختيارات ملوك العائلة الكارولنجية أولاً، وتلاهم بعد ذلك الكابيتيون، تمليها عليهم فرص التحالف السياسي؛ فارتفع بالنتيجة وضع زوجات الملوك أيضاً[1]. كانت تلك الملكات في الغالب أمهات لعدد كبير من الأطفال، يؤسّسن الأديرة ويعملن على نشر الثقافة الأدبية، وكنّ في بعض الحالات أيضاً يتولّين أدواراً في الحكم[2].

وفضلاً عن الكنيسة في تقديسها رباط الزوجية، فإنّ هذا التغيير إنما يعود أيضاً إلى وضع حدّ للصراع بين الإخوة للاستحواذ على أجزاء من الميراث الذي كان عادة ما يتم اقتسامه بين الأبناء من الذكور -وغالباً ما كان يستحوذ عليه الأقوى بقوة السلاح- وهو الأمر الذي كان يؤدي في النهاية إلى تبني هذا النظام الجديد للخلافة وقد كان يفضّل واحداً منهم. ومؤكّد أنّ هذا التحول كان مصحوباً بموافقة العائلة المالكة على نقل السلطة. لذلك نشأت الأهمية القصوى، في هذا الإطار، للحرص على اختيار الزوجة من طبقة اجتماعية مناسبة، وعلى شرعية الأبناء. وجاء تأكيد هذا التطور في وثائق نظام التتويج -*ordines coronationis*-، أي تلك النصوص التي تصف ترتيب

(1) La Rocca, *Donne al potere* cit., pp. 20-24.

(2) *De Hincmari epistola «De ordine palatii»* publicato a Parigi da F. Viewer nel 1885.

الاحتفال الصاخب الذي يُتوّج الملك خلاله.

أحد تلك العناصر الأساسية في نظام التتويج مثَّل في ظهور الملكة كقرينة للملك. النموذج الأول للملكة التي تمّ العثور على اسمها مدوَّناً في تلك الوثائق هو ليهوديت، أي «لامرأة جمعت بين ضعف الأرملة وقوة المحاربة ورؤية القائد الاستراتيجية، ولكنها لم تكن ملكةً ولن تصير ملكةً بعد عملها البطولي. أمّا الملكة فهي أستير التي تضعها التقاليد الشرقية القديمة بجوار يهوديت، بسبب الدور المُنقذ الذي كان لكلّ منهما في إنقاذ الشعب اليهودي»[1]. لقد أُثبِت أن عبارة «قرينة الملك» قد بات لها طابع أدبي صرف في الوثائق القليلة للقرنين السابع والثامن الميلاديين، وقيمة سياسية إيديولوجية أثناء العصر الكارولنجي، ولكنها لم تكن قط أساساً لأي نظام قضائي متعلق بالسلطة السياسية. حدث فقط مع إنجلبرغا (Engelberga)، زوجة الإمبراطور لودوفيكو الثاني (Ludovico II)، التي وُصفت أكثر من مرة وبانتظام، بدءاً من عام 866م، «بقرينة الملك» في العديد من الشهادات الملكية، وبالفعل كان التعبير هنا مثقلاً بهذا المعنى في الواقع، فقد شاركت الإمبراطورة بنشاط في أعمال زوجها وأدت في أكثر من مناسبة أعمالاً سيادية[2].

إن الدور الذي تلعبه قرينة الملك، والخبرة التي تكتسبها في المجالات المختلفة، والعلاقة الوثيقة بعدد من كبار السادة في المملكة، والمواقف المُركّبة مع المسؤولين عن البلاط تفسّر لِمَ كان يتمُّ عادة، في حالة وفاة الملك، إسناد دور الوصيّ على الحكم للأمهات. ولكن ثمة طرق أخرى كان يمكن أن تقود بعض النساء إلى السلطة، حتى قبل موت الأزواج، أو كحقّ صرف لهن دون أن يكون قد سَبَق لهن الزواج. فقد كان بالإمكان أيضاً للبنات

(1) G. Isabella, *Modelli di regalità nell'età di Ottone I*, tesi di dottorato in Storia medievale, XVIII ciclo, relatore G. M. Cantarella, a.a. 2006-2007, pp. 151-152.

(2) Ivi, p. 154.

الوحيدات، بنات أصحاب الإقطاعيات أن يتولين قيادة الجيوش وإدارة العدل. لا يجب اعتبارهن «حالات استثنائية»، ليس لأنهن حصلن على مواقعهن بأن قمن بالالتفاف حول أحد القوانين، أو لأنّه تم التسامح معهن على الرغم من القوانين؛ فوضع المرأة المهمّ في العالم الإقطاعي إنّما كان يعتمد على تنظيم العائلة وقوة السّلالة التي تنتمي إليها سواء بالميلاد أو بالزواج[1].

في الواقع لم يكن مكتوباً مسبقاً، ولا مستبعداً، أن تتولى الأمّهات أو الأخوات أو البنات أدوار القيادة في حالة غياب البالغين من الذكور[2]، ولم تكن تلك الأدوار أيضاً قاصرة على الزوجات، وبخاصة حين يترمّلن أو يكنّ بنات للورثة القصَّر. وفي روسيا ورثت الملكة أولغا العرش من أمير كييف بعد موت زوجها إيغور، عام 945، فحكمت وحدها حتى عام 964م، في فترة الوصاية على ابنها القاصر. وورثت إيرمنغاردا، ابنة لودوفيكو الثاني، ملك بروفانس وإيطاليا –والإمبراطور منذ عام 855م– العرش عن أبيها وحكمت بالاشتراك مع زوجها بوسون، شقيق الملكة راشيلد، زوجة شارل الأصلع. وبعد ذلك بجيل واحد، ساعدت أديلاد دي بورغونيا زوجها الثاني، ملك ألمانيا أوتو الأول، في الحصول على عرش إيطاليا، الذي وصل إليه عن طريق زوجها الأول لوتاريو الثاني، ابن أوغو من بروفانس، بل ولعبت أديلاد أيضاً دوراً سياسياً أساسياً، بوصفها حماةً لتيوفانو.

كانت تيوفانو حفيدة الإمبراطور البيزنطي جوفاني الأول، وقد كرّمها زوجها أوتو الثاني، إمبراطور روما المقدسة، بأن منحها لقب «الإمبراطورة الشريكة». تُوجت الإمبراطورة في احتفال مهيب عام 972 في روما وقام

(1) حول التدخل بين تركيب السلطة والعلاقات العائلية يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:
R. Le Jan, *Famille et pouvoir dans le mond Franc (VIIe-Xe siècles). Essai d'anthropologie sociale*, Publications de la Sorbonne, Paris 1995.

(2) M.T. Guerra Medici, *I diritti delle donne nella società altomedievale*, Edizioni Scientifiche Italiane, Napoli 1986, pp. 296-297.

بتتوجيها أثناء حفل الزفاف، البابا يوحنا الثالث عشر. في العام 983، وإثر الموت المفاجئ لأوتو، أصبحت السلطة في يد تيوفانو وحَماتها أديلاد، وسُمح للمرأتين بأن تحكما معاً في انتظار أن يبلغ الابن أوتو -البالغ من العمر ثلاث سنوات- سن الحكم. اجتمع في شخص تيوفانو، كحاكم وصي للإمبراطورية الرومانية المقدسة، دوْرَان مختلفان تداخَلا معاً: ذلك الدور الخاص بكونها «الأم المحبوبة جداً» للوريث، ثم ذلك المتعلّق «بالإمبراطور أغسطس» كنعمة إلهية، وهما مصطلحان (أحدهما بالمؤنث والآخر بالمذكر) تمَّ استخدامهما في الوثائق الرسمية للتوجه إليها فيما يتصل بالمهام التي كانت تمارسها على الصعيد العام وعلى الصعيد الخاص. عند وفاتها، عام 991م، ظلت أديلاد تحكم حتى عام 994م عندما أدرك أوتو الثالث سنّ البلوغ[1].

في العصور الوسطى، لم تكن في المملكة الألمانية قوانين تشريعية لتحديد الملك وتعيين وليّ العهد. كانت الملَكية تعتمد على القوة، قبل عام 1365م، بالنسبة إلى من يتطلّع إلى الاعتراف به شخصاً جديراً بأن يملك، وتعتمد على دعم أصحاب النفوذ، ثم يتم بعد ذلك مسح الملك وتقديسه من قِبَل الكنيسة. كان الحكم بحسب التقاليد يقتصر فقط على الذكور، لم يكن دوْرُ الملكة محدداً؛ ومن جهة أخرى كان ثمة تفسيرات متغيرة من المعاصرين، تختلف بحسب شخصية الحاكمات. كانت للملكات فرص كثيرة، بشكل بارز، في عصر حكم سُلالات الأوتو وعصر السالية، وغالباً ما كانت تلك الفرص تعتمد على قوة الأفراد الشخصية. لم يكن لآنييزي، ابنة كونت بواتو (Poitou) وزوجة الإمبراطور هنري الثالث، اللقب لكي تحكم كقرينة للملك أو كإمبراطورة، ولا حتى كأرملة، إضافة إلى أن وضعها كزوجة للملِكِ لم يكن يمنحها حقوق الحاكم المشارك. كان دورها كأم فحسب هو ما سمح لها

(1) Viennot, *La France, les femmes et le pouvoir*, cit.

بأن تقوم بدور الوصاية على ابنها الذي سيصبح هنري الرابع. كانت الموافقةُ الصريحةُ من الأمراء، وحلفُ الولاء من قبل أصحاب النفوذ، أساسا حكمها؛ لم يكن مُعترفاً بها كشخص محل ثقة للوصاية على ابنها فحسب، بل وحملَتْ على كاهلها مسؤوليات جساماً خاصة بممارسة السلطة.

إلا أن ابنها هنري، أمام الناس، كان يحكم بمفرده. كانت بعض الوثائق تُكتَب باسمه وكان يوقِّعها. قال المؤرخون المعاصرون إن هنري هو من قام بإنشاء دوقيات وتعيين أساقفة. صيغُ الوثائق الرسمية وحدها فقط؛ وهي التي لم تُشِر قطّ إلى زوجة الملك ولكن إلى «أمنا»، «الوالدة» أو إلى «الإمبراطور أغسطس»، كانت تشير إلى أن آنييزي تولّت الحكم. وإضافة إلى مسؤوليتها الإدارية، كانت آنييزي تتولّى دور القاضي الأعلى ودور القائد الأعلى للجيش. ولكن سلطتها كحاكم وصيٍّ كانت مرتبطة بوضع ابنها وكانت تعتمد على ما يطلبه، وعلى حضوره الشخصي. ونظراً إلى أن الأسقف أنّو الكولوني، معلم هنري، كان يعلَم جيداً التأثير الذي تمارسه آنييزي للسيطرة على شخص الملك، فإنّه دبّر عملية اختطافها، ليصبح هو بنفسه الحاكم الوصي[1].

في إيطاليا، لم يُثِر موضوع النساء في السلطة الاهتمام إلاّ مؤخّراً. من جهة أخرى، وفي مملكة نابولي، كان وجود الملكات بحكم الميلاد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر –جوفانا الأولى وجوفانا الثانية دانجو– يعتبر لمدة طويلة مصدراً للتعاسة ومرادفاً للحكم العشوائي ولِعَدم الاستقرار السياسي. ومن ناحية ثالثة كان يمكن للبنات في المملكة الخلافة في الإقطاعيات، وكنّ

(1) عن آنييزي يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:

* A. Fössel, *Die Königin im mittelalterlinchen Reich: Herrschaftausübung, Herrschaftsrechte, Handlungsspielräume*, Thorbecke, Stuttgart 2000, pp. 332-338.

يتمتَّعن بالكثير من الاستقلال، ويتمتّعْن بالثراء الشخصي، وغالباً ما يقُمْن بأدوار في الحكم ويقُدْن القوات الخاصة بهن. إن انتباه المؤرخين حالياً للدوْرِ العام لأولئك السيدات سمح لنا بالابتعاد عن الحكايات المبتذلة –التي ما زالت موضع ثقة في سوق النشر–، وهي عادة ما تكون متأثرة بالخاصيات، ذات الأصول القديمة، الكارهة للنساء، والمنتشرة بهدف ترسيخ فكرة تهميش النساء في المنافسة على السلطة، وقصر أدوار الحكم على الرجال في نظر العامة، وتأكيد استثناء أدوار الحكم التي قامت بها بعض الشخصيات المنفردة والتركيز في انحراف سلوكهن[1].

ضمن المصادر الروائية، تذكر بعض المصادر السردية، «يبدو أداء الملكات [...] وقد تميز بقوة بأصناف سلوك نمطية، سواء كانت سلبية أو إيجابية [...]؛ فهنّ يظهرن قبل كل شيء، وبمقياس شائع، عندما تُنسب لهن أفعالٌ كريهة، وكأنهن مُدبّرات حبكات مظلمة من المؤامرات داخل القصر، بل وهنّ أحياناً المسؤولات بطريقة مباشرة عن تصفية أعدائهن جسدياً[2]» تبعاً لِكتَاب «التاريخ» لأندريا دا بيرغامو، كانت حالة إرمينغاردا دو هيسباي (Ermengarda de Hesbaye) الفلمنكية، التي يشير إليها في قصته كمن تسبب بطريقة مباشرة في العمى الذي أدى عام 817م إلى موت برناردو، ملك إيطاليا وابن أخي زوجها الإمبراطور لويس الأول. وهذا مثال على الكيفية التي يتم بها النظر إلى المواقف الكارثية السياسية الأكثر حدة، وذلك بأن يتمّ على الفور إحالتها إلى عمل شرير من امرأة في السلطة: كان السلوك الخاص من ملكة «شريرة» يصبح هو عنصر الاضطراب في أيّ نظام راسخ، وكان هو السبب في هدم التوازنات الموجودة [...]. وتنْضمُّ لهذه الصورة الخاصة

(1) P. Corsi, *Un percorso di lettura, in «Con animo virile». Donne e potere nel Mezzogiorno medievale (secoli XI-XV)*, a cura di P. Mainoni, Viella, Roma 2010, pp. 19-30.

(2) La Rocca, *Donne al potere* cit., p.4.

بالمِلكة القوية، وصاحبة الخطط والأسرار، صورة المِلكة كبطلة ذات أعمال مجنونة، لا تمليها عليها سوى غريزتَي الحب أو الجنس فيكون لها بالنتيجة نتائج سياسية مُدمّرة[1].

على الرغم من عدم وجود أيّ سند قانوني يشير إلى إمكانية أن ترث بنات الملك الحكم من أبيهنّ، فينقلنه إلى أزواجهن، فمن الواضح أن هذا الأمر كان ممكناً. إن عدم وجود نظام محدّد للخلافة قد جعل الحكم يمتدّ إلى أزواج بنات الملك، إضافة إلى كل أبناء الملك نفسه، وإمكانية المطالبة بالعرش، وهو السبب الواضح للرفض الذي أظهره شارلمان في زمنه لانفصاله عن بناته بتزويجهن، وذلك حتى لا يضاعف من عدد المطالبين بالعرش. عند وفاته أبعدَ الابنُ لويس الأول أخواته البنات الخمس العازبات عن القصر، ليؤسس نظاماً جديداً. «تحول طردهن من القصر إلى عملٍ نشطٍ من التطهير الأخلاقي»، وقد أخضعته الأخبار في ذلك الوقت لممارساتهن الجنسية المنحلّة. «لم يكنّ نساءً ذوات سلطة. عندما تخلّص لويس منهن، وطردهن من أكويسغرانا، اِختفين ببساطة من الوثائق المكتوبة، ولم يعد يوجد أي ذكر لأخبارهن»[2]. يوضّح هذا النموذج ثقل الورثة من الإناث كعائق لنقل السلطة الملكية، وما يواجههنّ من المخاطر الناتجة عن ذلك؛ وهذا يفسّر في الواقع لماذا كانت حوادث اختطاف النساء من عائلات ملكية عديدة بحسب المؤرخين -كوسيلة للحصول على الأراضي والنسب النبيل من خلال الزيجات الإجبارية- وهكذا كانت كثيرة أيضاً زيجات البنات المستخدمة كوسيلة لضمان إمكانية الخلافة في أكثر من مملكة[3].

(1) Ivi, pp. 6-7.

(2) Ivi, pp. 45 e 54.

(3) يمكن الاطلاع بصورة عامة على المؤلف التالي:

P. Skinner, *Le donne nell'Italia medievale*, Viella, Roma 2005.

3. بحثاً عن ماتيلدي

إذا قصرنا دراستنا على التاريخ الإيطالي، تبدو ماتيلدي دي كانوسّا (Matilde di Canossa) وقد وُصفت بوضوح بشكل إيجابي. منها يستمد فيتو فوماجاللي الأفكار ليقدّمها في كل الأشكال المتنوعة للحزن المقبول، الذي سيطر في نظره، على مجدها الحربي: بسبب الندم على أشياء لم تتم، والوحدة المُتعمدة التي تغلبت عليها فقط قبل موتها، والندم على أنها لم تترك خلفاً لها. لقد جمع فوماجاللي، الذي نشر هذا الكتاب الصغير قبل عام واحد من وفاته وقد كان يعرف بقربه؛ بدأ قصته من تلك الفترة التي بقيت في حياة الكونتيسة، ورَصَد بغزارة وداعة ماتيلدي، وتكريسها لقضية البابوية حتى بالتضحية بميولها الخاصة، وبذلك قام بتقليص اللحظات الحربية القاسية التي كانت تتطلب منها تلك القضية أن تعيشها[1].

ولكن ما كان عن ماتيلدي في هذا الكتاب إنما هو ثمرة الخلط البارع بين الحقيقي وما يمكن تصديقه من القراءات المتعاطفة مع الشخصية من افتراضات مؤسَّسَة على منوال «ليس مستبعداً أنه...». إذا أردنا أيضاً العودة إلى التساؤل عن المصادر، كما فعل حقّاً الكثير من دارسي فترة العصور الوسطى، لا يمكننا سوى أن نستنتج الأخبار التي وصلت إلينا في أزمنة مختلفة «أي من أشخاص لهم إمكانات مختلفة في التذكر، وهم أشخاص كانوا قريبين من تلك الشخصية، تشهد على نفسها، من خلال ضروب مختلفة من

(1) V. Fumagalli, *Matilde di Canossa. Potenza e solitudine di una donna del Medioevo*, Il Mulino, Bologna 1996.

إن مفتاح القراءة حول العزلة تناوله حديثاً أيضاً المؤلف التالي:

R. Rinaldi, *Matilde di Canossa, donna potente e sola, in Il Medioevo di Vito Fumagalli*, a cura di B. Andreolli, P. Galetti, T. Lazzari, M. Montanari, Centro Italiano di Studi sull'Alto Medioevo, Spoleto 2010, pp. 297-306.

السلوك، سواء كان مشاركاً أو متآمراً، ضحية أو متفرجاً، أو مجرد شخص يكرّر ما سمعه مصادفة» كما كتب أرسينيو فروغوني بشأن أرنالدو دا بريتشا[1]. إن تلك المصادر لا بد من وضعها في الإطار المناسب مع من قاموا بكتابتها «والحرص على إعادة فحص دور كل شاهد بالنسبة إلى أرنالدو في دائرة التزاماته»[2]. والأمر نفسه يمكن تطبيقه على إعادة الكثير من التآليف التاريخية الحديثة نسبياً. سنستمع إذن إلى أصوات جديدة، سواء أكانت لرجال أم نساء. أصوات إيطالية قبل كل شيء: فبالنسبة إلى الإيطاليين؛ في لحظة معينة من تاريخهم كانت ماتيلدي رمزاً أيضاً للعظمة القومية، ملكة (دون أن تحمل اللقب) بكلّ معنى الكلمة. ولا بد في حالتها، كما في حالات شخصيات أخرى، من استعادة بصيص من المصداقية في إعادة تركيب تصرّفات أشخاص من الماضي ومشاعرهم، وخاصة لماضٍ تَركَ خلفه القليل من الوثائق المتعلقة بالسيرة الذاتية، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بالنساء، والكثير من الفضائح أو المبالغات المدهشة، وإذا ما تعلق الأمر خاصة بنساء ظهرْن بصخبٍ على الساحة العامة: فلا بد من أن ندقق النظر، كما كان يقترح أرسينيو فروغوني.

إن السيرة الذاتية الثرية جداً، لا يمكن في كل الأحوال، أن تكون متحفظة حول «عدم استقامة» امرأة بلا زوج، أو ذات صلات بشخصيات لا يذْكُر التاريخ عنهم سوى الرتوش، رجال معروفين بعدم رحمتهم، أو زيجات عابرة. في البداية كان من حظ الطفلة غوفريدو «الأحدب»، ثم في سن الثالثة والأربعين كان غويلفو دي بافيرا (Guelfo di Baviera)، الشهير بـ«البدين»، والبالغ من العمر ستة عشر عاماً. وهي زيجات لا تبرر فقط إصرار فوماجاللي

(1) A. Frugoni, Arnaldo da Brescia nelle fonti del secolo XII, Einaudi, Torino, 1989, p. XXI.

(2) Ivi, p. XXIII.

على وحدة الكونتيسة، بل كذلك الإيحاءات الخبيثة من أعدائها عن علاقاتها ببابوات وأساقفة. في كل الأحوال، فإن الإقلال من وجود الرجال يسمح أيضاً بتمجيد الفضائل الذكورية لدى ماتيلدي، وعفتها، أو صفات إيجابية يمكن أن تنسب إلى النساء، على الرغم من أنهن يشغلن الساحة العامة. ولكن بشرط أن يتمّ إهمال الحسابات السياسية، أو وضعها في مرتبة ثانية، تلك الحسابات التي أدت بتلك الزيجات إلى رجال لا تثير أسماؤهم سوى الضحك على رغم أنهم من أصول نبيلة جداً.

أن تكون إحداهنّ عشيقة للبابا غريغوريوس السابع (Gregorio VII) أو الأسقف أنسيلمو دا لوكّا (Anselmo da Lucca): فإنّ التشهير بالسمعة الجنسية للنساء في السلطة كان في هذه الحالة غير معتاد بالمرة. إن تدنيس حجرات القصر البابوي يظهر صداه، أيضاً، في مثال ليس بعيداً للرومانية ماروتزيا (Marozia)، وهو المثال الذي يزعم أنها كانت بوضوح عشيقة لرجال ينتمون إلى القيادات الكنسية. فيما عدا ذلك، فإن الفكر الأساسي للمؤرخين، والأكثر انتشاراً في كل عصر، لا يمكنه، إذا كان مؤيداً لها، إلا أن يرى ماتيلدي كأيقونة القداسة المُفتَقَدَة. يبدو أن ماتيلدي كانت جميلة: من المؤكد أن شعرها كان أحمر اللون، ربما ورثته عن أمها بياتريتشي دي لورينا. كانت ذات أسنان قوية، ولا تَزال سليمة الجمجمة، حسب ما ظهر في جثمانها الذي تم استخراجه من القبر مرتين، أخراهما عام 1644م. ورغم مرور خمسمائة سنة على موتها عام 1115م، ما زال بالإمكان معرفة ملامح جسدها، إذ كان لا يزال كاملاً ولم يتفسّخ. على الرغم من كونها ماتت في سنّ 69 عاماً، فإن شعرها لم يشب. تلك كلها عناصر يمكن أن تقود المؤرخين إلى تصويرها وكأنها شخصٌ متديّنٌ ذو روحانية قوية، جعلتها تصطفُّ في شجاعة نادرة دفاعاً عن الكرسي البابوي ضد الإمبراطور؛ فيوجد ما يكفي

ليرفعها التاريخ إلى مصاف القديسين.

الزوجان أيضاً لا بد أنهما ساهما بعض الشيء في قمع رغباتها الجسدية: فلم يكن الأحدب الفظ، ولا الزوج الثاني الذي كان على الرغم من أنه في ريعان الشباب، كسولاً وبديناً، وقد تخلّصت منه، بحسب قول البعض، بمجرد أن تأكدت من عدم قدرته على الإنجاب إلا أن ماتيلدي كانت تعلم أن فرصها في الإنجاب في تلك السن ضعيفة، حتى وإن كانت قد حملت من قبل، وهو الشيء الذي تتحفظ في ذكره بعض المصادر. غير أنّ حالة غويلفو دي بافييرا، أكثر ما يسود فيها هو ذلك الرأي القائل بكونها استبعدت الزوج بعد الزواج ببضعة أعوام حتى لا تضطر أن تتقاسم معه السلطة. إن الأيقونات المعاصرة لماتيلدي وتلك التي تعود إلى القرن السابع عشر لا تساعد كثيراً على تكوين فكرة أكثر دقة عن شخصيتها. لقد وصف فوماجاللي المنمنمات التي تصورها بأنها «عذبة»، وهذا أمر حقيقي بلا شك، ولكن اللوحتين وبمثل تلك الحالة التي رأيناها مع آنييزي دي ميراني، تعكسان للقراءة العامة صورتين، لخاصية نسائية تُنسب إلى النساء غير المطمئنات والمُكرسات، ولكن دون رسم الملامح الشخصية للوجوه: فالملامح تكاد تكون عامة. إن الوجوه النسائية الفردية في الصور الخاصة بعائلة آنييزي أيضاً —والمعروفة بأنها شديدة التدين— يتمُّ التعرف إليها فقط من خلال الكتابة على المكان المخصص في الصورة. ليس هذا فحسب، بل إنّ تلك الصور الجميلة والعذبة قد رُسِمت تبعاً لوصف الكُتّاب المحيطين بهنّ، مثل تلك التي أهداها الراهب دونيتزوني لماتيلدي.

إن حادث كانوسّا الذي انتهى بامرأة، يُستأنف بطريقة مثالية مع امرأة أخرى، أديلاد دي بورغونيا (Adelaide di Borgogna)، التي كانت ملكة إيطاليا لفترة وجيزة (947—950م) بصفتها زوجة لوتاريو الثاني (Lotario II)،

ابن أوغو البروفانسي (Ugo di Provenza)، ثم تزوجت بالإمبراطور أوتو الأول (Ottone I). كانت بياتريتشي دي لورينا (Beatrice di Lorena)، الزوجة الثانية لبونيفاتشو (Bonifacio)، ماركيز توسكانا، وأمّ ماتيلدي، وكان زواجاً غير مناسب، إذ أن والد ماتيلدي، المحارب القدير، لم يستطع مجاراة زوجته في نبل السلالة، وقد تزوجها وهو في سن كبيرة، عندما كان عمرها أربعة عشر عاماً. في أعقاب موت بونيفاتشو، تزوجت بياتريتشي بالملتحي غوفريدو دي لورينا؛ الذي تمرّد على الإمبراطور هنري الثالث، وقد سبق أن أسر بياتريتشي وماتيلدا الصغيرة وأخذهما معه إلى ألمانيا. أصبح كل من غوفريدو وبياتريتشي منجذباً أكثر نحو ألمانيا، وخاصة بعد أن أسقط هنري الثالث تُهَم الإقطاعيين الذين ثاروا عليهما وهو على فراش الموت[1]. وكما رأينا، فإن ماتيلدي دي كانوسا ستتزوج بغوفريدو الأحدب، ابن الملتحي. عند وفاة الأحدب، عام 1076م، ستنتظر ماتيلدي ثلاثة عشر عاماً قبل أن تتزوج بالشاب غويلفو دي بافييرا، وقد أقدمت على ذلك لأسباب سياسية، بحسب غلاوكو ماريا كانتاريللا (Glauco Maria Cantarella) –الذي لا يشير حتى إلى العجز المزعوم للقرين–، فالأمر يتعلق بزواج استراتيجي كان يهدف إلى مضاعفة أعداء هنري الرابع، ولكن ذلك فشل تماماً عام 1095، عندما نجح الإمبراطور في إدخال ثورة الغويلفيين وأخذ يطارد ابنه الثائر كورادو (Corrado)، مع هروب زوجته براسيدي (Prassede) التي كانت سجينة، وقد استقبلتها ماتيلدي. وكذلك يعود الفشل بالأخص إلى تأكيد نظام السيادة المدنية.

يحتفي الراهب دونيتزوني بعد موت ماتيلدي بمَلَكِية سلالة كانوسّا، في جو تم فيه تأكيد احتفالية المسح التي تُجلس الملك، وكأن تلك السلالة

(1) يبدو أن ماتيلدي وُلدت عام 1046م وأن سنها عند موت أبيها لم تكن تتجاوز ستة أعوام.

«الكواكب اللامعة» للحكمة، وماتيلدي في دور العذراء ديانا، بل العذراء مريم. ولا يذكر الراهب أي شيء عن الزيجتين والحياة القصيرة لابنة كانت لها[1]. الكثيرون لا يذكرون شيئاً عن تلك الابنة، إلى حد أن لا أحد يعرف اسمها. يفترض باولو غولينيللي (Paolo Golinelli)، أنها ولدت عام 1070، بعد بضعة أشهر من زواجها بالأحدب، وأن اسمها كان بياتريتشي، مثل جدتها. ماتت الطفلة بعد مولدها مباشرة. حسب رواية الأسقف لوكّا رانجيريو (Lucca Rangerio)، كابدت الأم الشابة صعوبات كبيرة أثناء الولادة، إضافة إلى فقدانها وليدتها، ما جعلها تهرب من زوجها حتى لا تخضع «للمتع الدنيئة للجسد البائس»[2]. لا نعرف رد فعل غوفريدو أمام اختيار العفة لزوجته الشابة التي لجأت لأمها في فلورنسا، فقد أودت مكيدةٌ بحياته بعد ذلك ببضعة أعوام، سنة 1076م.

ثمة تاريخ من جانب العامة، ذاك الذي كتبه لاندولفو دي ميلانو، المعارض لماتيلدي، وهو من اتهمها بأنها سلّحت يد القتلة: إن ماتيلدي وفقاً لهذه الرواية التاريخية، هي من دبّر قتل زوجها، لأنها لم تكن تتحمل وجوب الخضوع لرغبة رجل وكانت تريد أن تحكم بمفردها، من توسكانا إلى لاتسيو. يشير باولو غولينيللي أيضاً إلى أن ماتيلدي، على الرغم من ذلك، لم تشغل نفسها بالتظاهر بالحزن على موت غوفريدو، بل وأهملت تأدية الطقوس الشفاعية المعتادة لإنقاذ روحه من الجحيم[3]. وعلى كلّ، فإن أغلب القصص المعاصرة لا تكاد تشير إلى الزيجتين. وبالنسبة إلى غويلفو دي بافييرا، فقد كان اختياراً

(1) G.M. Cantarella, *L'immortale Matilde di Canossa, in Matilde e il Tesoro dei Canossa tra Castelli, monasteri e città*, a cura di A. Calzona, Silvana Editoriale, Milano 2008, p. 65.

(2) P. Golinelli, *Matilde e i Canossa nel cuore del Medievo*, Camunia, Firenze 1996, p. 157.

(3) Ivi, p. 165.

جرى إملاؤه على ماتيلدي عام 1089م، لضرورة الوقوف أمام هنري الرابع في أعقاب وفاة غريغوريوس السابع والأسقف أنسيلمو دا لوكّا، تبعاً لتاريخ برنولدو دي كوستانزا «لتتمكن من التدخل بطريقة أكثر ذكورية لمساعدة الكنيسة المقدسة»[1]. إلا أن زوجها غيّر تحالفه واتّحد مع عدوّ البابوية هنري الرابع، تاركاً زوجته وحدها، ولكنها كانت قادرةً على الدفاع عن القضية.

توجد إذن بعض الشكوك حول ماتيلدي، ولكن الشيء الوحيد المؤكد: أنها كانت بطلة بلا منازع مع البابا غريغوريوس السابع، في الصراع الخاص بحق التنصيب والتحكم في مصائر الإمبراطورية. وفي منتصف السبعينيات، ومنذ أن تأكد موقفها كداعمة كبيرة للقضية البابوية، كانت موضوع إشاعات مُغرضة وتشويه للسمعة؛ كان البعض يكرَهُها بسبب سلطتها «الوحشية» إذ رأى أنها قد اغتصبتها من السلطة الذكورية، بينما كان آخرون يتبعون النماذج النمطية التي كانت تصف النساء بالضعف والانحلال. من الناحية الملكية، كانوا يتهمونها بالهرطقة، بأنها مثل إيزابل الشريرة، وأنها لوثت -بوقاحة- القوانين الإنسانية والإلهية. بالنسبة إلى الدعاية الموالية لكانوسا لم يتبقَ سوى أن يقاوموا تلك المفاهيم الذكورية من خلال الصور الاحتفائية بالمرأة الاستثنائية، مقارنين شخصها بالعذراء مريم (وبالتالي التغاضي عن الزيجات والحمل) أو بتقديمها في ثوب الذكورة، كامرأة متميزة عن باقي جنسها.

لقد مارست الحكم سيدات في السلطة معاصرات لها، مثل الإمبراطورة آنييزي، هكذا مثل أُخريات سبقنها، بالاشتراك مع أزواجهن وكان يمكنهن تقديم أنفسهن في إطار التقاليد، وهو الدور الذي لم يكن مناسباً لماتيلدي،

(1) D.J. Hay, *The Military Leadership of Mathilda of Canossa, 1046-1115*, Manchester University Press, Manchester 2008, pp. 198-226.

ولذلك تم استدعاء الملكات والبطلات من الكتاب المقدس حتى يتمّ الاحتفاء بها كمشاركة في الحرب المقدسة ضد أعداء المسيح. وهكذا كان الواجب الأخلاقي للوقوف أمام الهراطقة يتغلّب على المعوقات والواجبات المفروضة على وضعها كامرأة. كان على مؤيّدي ماتيلدي أن يناهضوا الكتابات العنيفة الناتجة عن جو الصراع من أجل تنصيب الإمبراطور؛ فمنذ القدم كان يتمّ تصوير المرأة بأنها ضعيفة لا تستطيع القتال، فيما عدا بعض الاستثناءات، الأسطورية نوعاً ما، مثل نساء الأمازونيا. فقد كان الرسول بولس وآباء الكنيسة الأوائل يؤكّدون الدور الخاضع للمرأة بل إن جيرولامو –وكان شخصاً ذا نفوذ كبير بين معاصري ماتيلدي– قام، وهو يعلّق على سفر إشعياء، بتقديم صور السيدات في السلطة وكأنهن مرادفات للفساد. كانت تلك الإحالة مفيدة لكثير من الخبراء القانونيين ليؤيدوا معارضة النساء اللواتي يظهرن على الساحة السياسية، وفي قيادة الجيوش[1]، بينما كان آخرون يبرّرون التضييق على صعود النساء إلى مناصب قيادية بذريعة ضعف جنسهن. كانت توجد نساء يحاربن ونساء يقدْنَ، ولكنهن ظللن موضوع نقاش في العصور الوسطى الأولى كلها، كما في حالة النقد الشرس الذي تعرّضت له كل من: ملكة الفرنجة برونيلد (Brunilde) في القرن السادس والإمبراطورة إيريني في القرن الثامن والكونتيسة إيرمنغاردا من توسكانا في القرن العاشر[2].

في الواقع، كانت السلطة والقوة العسكرية للنساء، في كل أوروبا، مصدر

(1) R. Balzaretti, *«These are Things that Men do, not Women»: The Social Regulation of Female violence in Langobard Italy, in Violence and Society in Early Medieval West*, a cura di G. Halsall, The Boydell Press, Woodbridge 1998, pp. 175-199.

(2) J. L. Nelson, *Queen as Jezabels: The Careers of Brunhild and Bathild in Merovingian History, in Medieval Women*, a cura di D. Backer, Blackwell, Oxford 1978, pp. 31-77; Id., *Women at the Court of Carlemagne: a Case of Monstrous Regiment?, in Medieval Queenship*, a cura di J. Carmi Parsons, St. Martins' 13, New York 1993, pp. 43-60.

خوف كبير. استطاعت إيرمنغاردا من توسكانا السيطرة على إيطاليا كلها، بينما قامت السيناتورات مثل تيودرا (Teodora) وماروتزيا (Marozia) بالاشتراك في حكم روما. في القرن الحادي عشر الميلادي، وصف المؤرّخ أرنولفو، أديلاد (Adelaide)، أم بيرتا، الزوجة الأولى لهنري الرابع، بأنها امرأة محاربة. قادت الكونتيسة إيرميساندا (Ermessanda) من برشلونة، الجيوش، بل وكان من يقوم بخدمتها امرأة من كاستيللو. ولكن النساء كنّ أضعف من الرجال، ويلمح ليوتبراندو دي كريمونا (Liutprando da Cremona) أن إيرمنغاردا قد ظفرت بوضعها من خلال الفراش وبدأت بذلك مساراً قُدّر له الحظ الوافر، واصفاً حكم تيودرا وماروتزيا بأنه «حكم الفحش». وفي فترة حكم ماتيلدي، تم اتهام الإمبراطورة آنييزي بأنها كانت على علاقة مشينة بالأسقف إنريكو من هابسبورغ[1].

في كثير من كتب التاريخ الأخرى، كانت النساء الحاكمات يوصفن بأنهن عاهرات، استخدمن أجسادهن للحصول على سلطة غير شرعية ومؤذية بينما وصف بونيتزوني، أسقف سوتري، في مؤلفه «**كتاب إلى صديق**» (*Liber ad amicum*) – وهو نوع من التاريخ الكوني لاضطهاد الكنيسة– الحكم بالوصاية للإمبراطورة آنييزي، بدلاً من ابنها هنري الرابع، وقال

(1) P. Golinelli, *De Liutprand de Crémone à Donizon de Canossa. Le souvenir de la reine Adelaïde en Italie (X-XII siècles)*, in *Adelaïde de Bourgogne. Genèse et représentations d'une sainteté impériale*, a cura di P. Corbet, M. goullet, D. Iogna-Prat, ed. Universitaires de Dijon, Dijon 2002, pp. 95-107.

يمكن أيضاً الاطلاع على المؤلفين التاليين:

M. C. De Matteis, *Ruoli femminili della politica nel secolo XI, in La contessa Adelaide e la società del secolo XI* cit., pp. 27-41; E. Artifoni, *La contessa Adelaide nella storia della medievistica*, ivi, pp. 7-25.

وخاصة فيما يتعلق بتحويل الشخص إلى أسطورة، كمفتاح للتناول، لزواج أديلاد ابنة المركيز أوديريكو منفريدي، الذي قدّم بيومنتي هديةَ زواج لسلالة سافويا.

عنها إنها فعلت أشياء عديدة بالشجاعة النسوية، متخطية الحدود المفروضة على جنسها. لقد تحدّثَ بونيتزوني في الواقع عن الإمبراطورة مستخدماً المصطلحات المشهرة بالسمعة- «امرأة جريئة، امرأة منحلة»- وقد استخدمها مع ماتيلدي أيضاً، ليكشف عن الجذور العميقة لكرهِهِ النساء، حتى وإن ألجمه عرفانه بالجميل في حالة الكونتيسة. إنّ بونيتزوني، مثل مؤلفين آخرين ارتبطوا بماتيلدي بطرق متنوعة، وحاولوا أن يضعوا خبرتها في النماذج الإنجيلية المعروفة، يقدمها على أساس أنها امرأة تتحلّى بملامح الرجال، ولها سلوكات غير معتادة من جنسها. من جهة أخرى، قام المؤرخ دونيتزوني بالإشارة إلى ذكورية ماتيلدي عاكساً الصفات النوعية لغريمها في الميدان؛ قام دونيتزوني بالتركيز على الجانب النسوي لأوبرتو، ماركيز إستي ورئيس الرابطة الإمبراطورية، بأن شرح كيف أنه كان في حصار سوربورا عام 1084م، «يئن مثل الراهبة»، وكيف هرب مُخزيّاً أمام قوات ماتيلدي. في الواقع فإنّ الماركيز مات في المعركة، ولكن السخرية في هذه الحالة كانت هي الوسيلة للحدّ من الفوضى التي سببها قلب الدور الخاص بكل جنس.

اختار مؤلفون آخرون مُوَالون لماتيلدي، وعلى العكس، نماذج كلاسيكية لِيُظهِروا تصرفات الكونتيسة قريبة من المعتاد، أو ليجعلوا منها استثناءً إيجابياً، وذلك من خلال الاحتفاء بنثيسيليا الجديدة. ولقد كانت ملكة الأمازونيا، الأسطورية والكريهة، تعمل أيضاً على إذلال أعدائها. ربما كان من الأفضل التركيز على ضعف ماتيلدي، وتفسير انتصارها على الإمبراطور بفضل النعمة الإلهية، تلك التي سمحت لداود بالانتصار على جالوت، وإبراز الإهانة التي شعر بها هنري الرابع بعد أن هزمته امرأة. عندما كان الأمر يتعلق باستدعاء إخلاص ماتيلدي للباباوات، فإن الشخصيات النسائية الإنجيلية التي كانوا عادة يلجؤون إليها كانت شخصيات مارتا ومريم؛ وعندما توجد الرغبة في

تبرير نشاطها الحربي، كانت بطلات الكتاب المقدس اللواتي يتم استدعاؤهن هنّ راعيل ودبورة ويهوديت، إذ كان الغرضُ هو التعبير من خلال نماذجهنّ عن القناعة بأن عنف المرأة لا يمكن أن تسببه إرادة الله وحدها. بصفة خاصة كانت تتم مقارنة ماتيلدي بالنبية دبورة، وبهذا بدأ تقليد استمر فترة طويلة، في أعقاب نشر «*Vita Mathildis*» لدونيتزوني. جرى إحياء الصورة الكلاسيكية لبنثيسيليا في عصر النهضة، ولكن الكونتيسة كانت بالنسبة إلى النساء، في القرن السادس عشر مثالاً للفضيلة.

إن اللجوء إلى الشخصيات الأسطورية، أو البعيدة بعداً زمنياً كان أمراً مُفضلاً على اللجوء إلى النماذج السابقة القريبة زمنياً والخطيرة، والتي كانت تقدمها الإمبراطورية البيزنطية، حيث السلطة النسائية كانت قد تعزّزت بالفعل بدءاً من الأزمنة القديمة. وكانت الإحالة إلى النموذج الشبيه الأقرب ستقود إلى الحكم بالوصاية الذي تولته عام 780م الإمبراطورة إيريني نيابة عن ابنها قسطنطين السادس، والبالغ من العمر وقتها تسعة أعوام. كان وضع الحكم بالوصاية قد اتخذ بالفعل طابعاً تخطّى مجرد الحدود المسموح بها في السلطة الممنوحة للأمهات لمصلحة أبنائهن القصّر. وفي الواقع استمرّت إيريني في الحكم حتى عندما بلغ ابنها السن القانونية، وبعد أن انتزعت منه الحكم زادت العداوة بسبب التسلط الذي مارسته على قرارات مجمع نيقية عام 787م، التي سمحت بإعادة طقوس الأيقونات للكنيسة[1]. إن نموذج

---

(1) فيما يتعلق بما سبق يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:

L.Garland, *Byzantine Empresses. Women and Power in Byzantium AD 527-1204*, Routledge, London -New York 1999.

لا يطرح هذا الكتاب مشكلة السلطة النسوية ولكن يقتصر على استكمال السيرة الذاتية، ولا يتساءل حول التناقضات بين المجتمع الكاره للنساء ووجود النساء على الساحة السياسية. حول الإمبراطورة إيريني يمكن أيضاً الاطلاع على كتاب هيرين: =

= J. Herrin, *Women and the Transmission of Power in Medieval Bysantium*, in *Women*

إيريني يُشكّل سابقة تثير القلق: للتخلّص من تهديد تضاعُف عدد النساء في السلطة، فإن المعزوفات الغنائية، التي أنتجها بلاط شارلمان، أدخلت مجموعة من الشواهد المقتبسة من النصوص الإنجيلية ومن كتابات الآباء التي كانت المجامع الأولى في العصور الوسطى وكتبة الشرائع يستخدمونها في مواجهة مبادرات النساء السياسية والعسكرية. أمْلى بونيتزوني من سوتري، في الفصل الأخير من كتاب الحياة المسيحية قواعد صارمة في سلوك النساء، ومن بينها منعهن من قيادة الجيوش والقضاء في الجرائم، فهي ممارسات تُعفى منها النساء بحسب القوانين الإلهية والإنسانية. تمت إعادة هذا الفصل في القانون 19 من مجمع نانت عام 658م، وقد كان بدوره يعيد الصياغة الجزئية لقوانين ثيودوسيوس (439).

إذا كانت تلك الانحرافات تحتاج إلى تعديل بهذه الصرامة، فإنها لم تكن بحاجة إلى أن تُتبَع اتباعاً حرفياً. كان ثمة في كل الحالات محاولات لمنع النساء من التحكم في الأملاك، وتحديد نشاطهن ليقتصر فقط على التطريز والحياكة، ومنعهن من الحكم، واتهام كلّ من ترفض الخضوع لتلك القيود بالانحلال، وبخاصة القيود التي حددها بونيتزوني «بألا يكون لهن الحكم في الأراضي أو في القضايا، وهذا هو بالذات ما فعلته ماتيلدي. ولكن بونيتزوني احتفى، في مؤلفه السابق: «**كتاب إلى صديق**»، بالكونتيسة ودافع عنها: وليحل هذا التناقض المحرج تجاهل ذكر اسمها، ولكنه اعترف أن النساء يمكنهن «في حالات استثنائية» حكم الرجال، ولكن ذلك سيسبّب للرعية خسائر فادحة، كما فعلت كليوباترا، وملكة الفرانك فريديغوندا، وملكة لونغوباردي روزاموند.

Rulers in Europe cit., pp. 16-26.

4. أدوار «بحكم الميلاد وبحكم الطبيعة»

في مراجعة بونيتزوني نجد أنه قدّم جالي ودبورة نموذجين على «الغطرسة» النسوية، وكتحذير للأرامل حتى يبقين في المحيط المناسب لوضعهن. لقد تم تحذير كل من تريد أن تقلد ماتيلدي، إلا أن قصتها تشير إلى كون الأدوار المماثلة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت أدواراً مرنة، وأن وجود امرأة على رأس الجيوش لم يكن يُعدّ سبباً لعدم الاستقرار، بالنسبة إلى مؤيديها على الأقل؛ وعلى كل حال، فبمجرد انتهاء الحرب كان حتى أولئك المؤيدون ينتظرون من النساء أن يعُدْن إلى أدوارهن. إن الصراع الخاص باختيار الملوك وتكريسهم والاقتناع بقدسية الحرب الدائرة من قِبل البابا منح الكونتيسة الأدوات التي يمكن بها أن تُكذب الضعف المزعوم لجنسها، ولكن النظر إلى النساء حاملات الأسلحة في القرن الحادي عشر، بدأ على اعتبارهن مخالفات للطبيعة: انتهى الأمر ببونيتزوني إلى أن يعالج هذا التناقض برفضِ الاتهامات الجنسية المشوهة لسمعة ماتيلدي، ولكنه صمّم أيضاً قانون النسوية «الطبيعية»[1]. ومن باب المفارقة، فإذا ما كان «*Vita Henrici*»، الموالي للإمبراطور، كتاباً يمثل المحاولة الوحيدة للتبرير النظري للحكم النسوي، بشأن آنييزي الإمبراطورة الوصية على الحكم، وملكات أخريات أدرن سلطتهن بحكمة؛ لم يكن الكاتب المجهول يحتقر النساء في السلطة، ولكن احتقر سلطة ماتيلدي فحسب[2].

ومهما كان الأمر، فإن الصورة الصالحة للمرأة المنهمكة في الحياكة أو التطريز، وقد تكون جاهلة أيضاً حتى وإن كانت من أعلى الطبقات، لا

(1) Hay, *The Military Leadership* cit., p. 224.

(2) R.J. Reynolds, *Nobilissima Dux. Matilda of Tuscany and the Construction of Female Authority*, University of California, Berkeley 2005, p. 84.

تنطبق دائماً مع الحقيقة، لأن لحظات الكوارث والصراعات كانت تكفي لتنتزعها من ذلك المحيط العائلي الآمن. ثمة بالفعل قوانين بدأت تنتشر من شأنها أن تمنع المرأة من حكم الرجال المسلحين، ولكن النموذج «الإقطاعي» و«العائلي» استمرّ في تزويدهن بفرص للتدخل في ساحات المعارك حتى بداية القرن الرابع عشر، عندما بدأت مهنة السلاح تُنظِّم حِرفياً، وعندما استعاد إيفو دي شارتر (Ivo di Chartres) وغراتزيانو (Graziano)، والقانونيون الآخرون الأسباب المتعلقة بالنوع وبمنع المرأة، المنتشرة بالفعل في القرون السابقة.

كتب بيترو دي بلوا (Pietro di Blois) عام 1173م ليُثني إيليونورا الأكويتانية عن تمردها على زوجها الثاني ملك إنجلترا هنري الثاني، مؤكداً لها أن المرأة التي لا تخضع لزوجها تنتهك قوانين الطبيعة ووصايا الكتاب المقدس والرسول. والمقصود هنا طبعاً بالرسول هو بولس الرسول، وما كتبه في رسالة أفسس (5: 22–24)، حيث يصف الرجل بأنه رأس المرأة مثلما المسيح هو رأس الكنيسة: وهي خطوة تطبع من جديد رؤية أرسطو للعالم وتتناسب مع مجتمع، يحاول الحصول على الاستقرار السياسي والاجتماعي من خلال الاستقرار العائلي. ولكن النساء لم يختفين من قيادة الجيوش، فقد عثرن على طرائق جديدة للاندماج في لحظات الانقطاع وغياب الرجال، وفي الدفعات الطاردة التي تسببت فيها عملية تركيز السلطات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

كان يمكن للنساء في إسكندنافيا الإمساك بالسلاح للانتقام في حالة غياب الرجال الذين ينتقمون لشرف العائلة. في أواخر القرن الرابع عشر كان الكاهن الفرنسي هونوريه بوفيه (Honoré Bouvet) قد تساءل في كتابه «**شجرة المعارك**» (*Albero delle battaglie*) عمّا إذا كان يمكن لامرأة أن تعملَ كحَكَم في قضية معقدة؛ حيث يكون قضاء الرب الذي كان يُعبّر عنه في

مصلحة المنتصر من بين المتخاصمين اللذين يتصارعان في مبارزة. يستبعد بوفيه إمكان أن يسمح الحق العام بذلك، يمكن أن يسمح بذلك، ولكنه كان يؤكد أن هذا يمكن أن يكون مشروعاً بحكم العادة، ولم يكن يستبعد إمكانية محاربة المرأة[1].

تحدث فيتو فوماجاللي عن استعادة للصورة البطولية لماتيلدي بين القرنين السادس عشر والسابع عشر- وذلك في نماذج محاربات أريوسطو وبوياردو، ولكن بصفة خاصة في الملحمة الشعرية «أورشليم المُحرَّرة» (*Gerusalemme Liberata*)-، كرمز للفضيلة المحاربة في خدمة البابوية في عشرات من الحروب الدينية، وفي التركيز على الصراع مع الأتراك. تمَّ نقل جثمانها إلى كنيسة القديس بطرس في روما -ويمكن بهذا تأكيد وضعها-، إذ جرى تمثيلها في أثر جنائزي، صنعه الفنان لورينزو برنيني، مثل امرأة شجاعة تحمل علامات الملوك: كان الدرع الذي تمسِكه بقبضتها بقوة في يدها اليمنى، والتاج الثلاثي البابوي تلفه في ذراعها اليسرى لحمايته. فوق هذه الصورة تمّ وضع رمانة، ترمز لثراء الأعمال الجيدة. أشار فوماجاللي أيضاً إلى عمل تذكاري آخر لفنان مجهول، موضوع في قصر الآباء في سان بنيدكتو بو، في نهاية القرن السابع عشر: في هذا العمل تُقدَّم ماتيلدي في صورة ذكورية، الكتفان عريضتان، العنق ضخم، الذراعان مفتولتان، وترتدي الكونتيسة

(1) M. Mclaughlin, *The Women Warrior: Gender, Warfare and Society in Medieval Europe*, in «Women's studies», 17, 1990, pp. 192-209; V. Eads, *Mighty in War: The Role of Matilda of Tuscany in the War between Pope Gregory VII and Emperor Henry IV*, UmI Dissertation services, Annn Arbor 2007.

أيضاً تبعاً لإدز فإن انتصارات ماتيلدي لم تكن استثنائية: فقد حدثت بفضل سلسلة من الحصون التي كانت منها تهاجم حلفاء هنري، وتزعزع استقرار قواته، وكانت تساعد الأعداء، بل وتنسحب من المعركة حتى تصبح الظروف في مصلحتها. خاضت الحرب مثل كل القادة في العصور الوسطى، مثل غوليلمو الغازي وريتشارد قلب الأسد، وكانت تُعد، طوال حياتها، قائدة حربية مخيفة (ص: 28-29).

الدرع والخوذة، وتستند إلى ترسها، وتشهر سيفها.

في العمل الذي يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي لطبيب من لوكّا المسمّى فرانشيسكو ماريا فيورنتيني (Francesco Maria Fiorentini)، فإن رمز السيف، الذي يرفعه أحد المحاربين على يمين ماتيلدي الجالسة على العرش، يتناغم على الجانب الآخر، مع الكتاب المقدس الذي يمسكه راهب ويقدّمه للكونتيسة. أما ماتيلدي فهي ترفع بين يديها زهرة الزنبق رمز النقاء، وتلتحف برداء عليه تطريز من النحل، وهو الرمز الأعظم لاختيار الفضائل النسائية وخاصة تلك المناسبة لها، فهو يوحي بعفتها، وحياتها النشطة، وإصرارها على مهاجمة الغزاة. كانت النحلة توحي أيضاً بنوايا المديح لدى فرانشيسكو ماريا فيورنتيني، لأنها تستدعي أيضاً شعار الباربيريني. وتُستوْحى الصورة أيضاً، في تأكيد صريح من المشرف على النسخة الثانية من «**مذكرات ماتيلدي**»، من منمنمة مخطوطة دونيتزوني، فيما عدا الجزء الخاص بالنحل بالطبع، فقد كانت هدية إلى أوربانوس الثامن، الذي كان فيورنتينو رئيس أطبائه[1].

على كل، لم يكن هذا العمل الفني الذي يعود إلى القرن الثامن عشر آخر ذكر لأسطورة ماتيلدي، ففي عام 1862، وفي اليوم التالي لوحدة إيطاليا، تم نشر «**البطلة الإيطالية**» (*L'eroina italiana*)، الذي نقرأ فيه من بين أشياء أخرى:

إن مشهد كانوسا يكفي وحده لأن يصنع من ماتيلدي أعظم بطلة

(1) من مذكرات ماتيلدي، والتي جمعها فرانشيسكو ماريا فيورنتيني، الطبعة الثانية مصورة وبها ملاحظات نقدية، وأضيفت إليها وثائق عديدة منسوبة إلى ماتيلدي من منزل جان دومينكو مانسي، من جمعية راهبات والدة الإله، في (MCCLVI Lucca)، في مطبعة فينشينزو جونتيني (Vincenzo Giuntini). العمل الأصلي، الذي تم استخدامه بشيء من الاحتراز الفيلولوجي أمام الوثائق المعاصرة للكونتيسة والتي استطاع الطبيب الوصول إليها في أرشيفات الفاتيكان، كان قد تم نشره عام 1645م، وعملياً لم يكن في الإمكان العثور عليه.

شهدتها إيطاليا والعالم، مروضة الإمبراطوريات التي حكمت مقادير الكنيسة والمجتمع، مانحة السلام للكون، امرأة الإمبراطورات والبابوات. إن هنري، إمبراطور ألمانيا، وبطل القرن الحادي عشر، مخضع الساكسونيين وهازم الثورنغيين والمجر، سقط عند قدمي ماتيلدي وهو يتنهد ويبكي، وغريغوريوس، البابا الأكثر بشاعة، حنّ قلبه وتأثر وهزمته صلوات تلك العذراء، سيظل هذا المشهد دائماً أجمل شيء تحكيه قصص التاريخ، ويغنّيه الشعراء ويرسمه الفنانون[1]. فهي البطلة العذراء والابنة الروحية للبابا غريغوريوس وسائر الأساقفة الآخرين الذين يساندونها، تستعد ماتيلدي لتجد لنفسها شرعية جديدة في إيطاليا التي اتحدت بالفعل ولكن كان من الضروري أن تُفضّ المسألة في روما. وكان الأمل هو أن ذكرى الكونتيسة، التي تظهر بالأخصّ وكما يُعبر المؤلّف، في دور الوسيط بين سلطتين، يمكن أن توحي باتفاقية ما، تنقذ سلطة البابا المؤقتة.

تظهر الخاتمة التي كتبها راهب من كانوسا، أكثر وضوحاً، وقد جاءت في نهاية إعادة بناء مفصلة لحياة ماتيلدي قبل ذلك بثلاثة أعوام، وفيها يكتب مرثية لعملها وخلاصة ختامية للخبرة الإنسانية التي عاشتها الكونتيسة:

إنها ماتيلدي التي تحفظ المزامير وتصوم، تدافع بالسلاح عن البابا، وتترك للقديس بطرس الدول الخاصة به، إنها المرأة الكاهنة. ماتيلدي التي تدخل في مفهوم ديلديرباندو (لسوانا، البابا غريغوريوس

(1) L'*eroina italiana. Storia della contessa Matilde e de' suoi contemporanei*, tipografia Francesco Monacelli & C., Fossombrone 1862, 2 voll., vol. II, p. 476.

العمل لمؤلف مجهول، وتم إهداؤه إلى أسقف فوسومبروني، فابريتزيو فراتيلليني.

السابع)، والتي تشارك في أعباء أعظم ملحمة وأمجادها، إنها امرأة التاريخ[1].

والدرس الأخلاقي هنا واضح: لتصلِّ النساء، ولكن إذا استدعى الأمر حمل السلاح، استعداداً لصدّ هجوم آخر على عرش القديس بطرس فليكن ذلك.

(1) L. Tosti, *La contessa Matilde e i Romani Pontefici*, Barbèra, Bianchi & comp., Firenze 1859, p. 383.

الفصل الثاني

الخلافة النسوية والتقلبات الناتجة عن ذلك

1. وراثة إيليونورا للعرش

وُلدت إيليونورا في عام 1122م، في أكويتانيا، بعد موت ماتيلدي دي كانوسّا، وهي الابنة البكر للدوق غوليلمو العاشر من تولوسانو، وحفيدة غوليلمو التاسع التروفاتوري الذي صنع من بلاط بواتييه، في نهاية القرن السابق، مركزاً راقياً للفنون والشعر[1]. حصلت إيليونورا أثناء نشأتها على تعليم مناسب لمستواها يضاهي تعليم الرجال، بل هو أفضل مما يحصل عليه الرجال في أحايين كثيرة، إذا قارنّاه بعادات النبلاء الخشنة في بلاد أخرى أو في مقاطعات فرنسية: فقد تعلمت اللاتينية والموسيقى والرياضيات والأدب، ولكنها تعلمت أيضاً ركوب الخيل والصيد. وفي عام 1130 توفي أخوها غوليلمو الجسور، وهكذا أصبحت في سن الثامنة وريثة الدوقية. بعد ذلك بسبعة أيام توفي والدها أيضاً، وحصلت إيليونورا على ألقاب دوقة

---

(1) باستثناء بعض الشواهد الدقيقة فإن السرد يتبع ما جاء في المؤلفات التالية:

R. Pernoud, *Eleonora d'Aquitania*, Jaca Book, Milano 1989; a. Weir, Eleonora d'Aquitania. La regina di due nazioni, Rizzoli, Milano 2002; J. Flori, *Aliénor d'Aquitaine. La reine insoumise*, Payot, Paris 2004.

أكويتانيا وجواسكونيا، وكونتيسة بواتييه. ولكن غوليلمو العاشر استطاع أن يضمن، قبل وفاته، زواج ابنته بابن الملك لويس السادس ملك فرنسا، خوفاً من أن تتمّ الإطاحة بإيليونورا من قِبل بعض الأتباع الثوار أو من قِبل أي إقطاعي مجاور. كان الدوق يرى أن ابنته ستغدو ملكة لمملكتين متحدتين: ستصبح مملكة فرنسا أثناء خلافة إيليونورا ممتدة من ليورا إلى البيريني وحتى البحر المتوسط. جرى الاحتفال بزواج إيليونورا والملك المستقبلي لويس السابع في الخامس والعشرين من يوليو 1137م في بوردو، وكان عمر العروس خمسة عشر عاماً، وعمر العريس سبعة عشر عاماً. وفي كاتدرائية بواتييه، تم تتويج كليهما كدوقين لأكويتانيا (ولم يكن لويس قد ورث لقب الملك بعد)، ولكن الدوقية ظلت مستقلة عن التاج الفرنسي. ليس هذا فقط؛ فقد احتفظت إيليونورا بلقب الدوقة وحمل لويس لقب قرين الدوقة، وكانت شروط الزواج تنصّ، إلى جانب ذلك، على أن يصبح ابنهما الأول ملكاً على فرنسا ودوقاً على أكويتانيا، فيحدث فعلياً بالنتيجة انصهار المملكتين ولكن في الجيل اللاحق. توفي لويس السادس في الأول من أغسطس عام 1137، بينما كان العروسان لا يزالان في رحلة إلى باريس. وبذلك أصبح الأمير الشاب الملك لويس السابع ملك فرنسا. وفي يوم عيد الميلاد لعام 1137م، تُوِّجت إيليونورا في بورج، أما الزوج فقد تم تتويجه بالفعل في رايمز في الخامس والعشرين من أكتوبر عام 1131 في عمر أحد عشر عاماً؛ وقد أعيدت طقوس تتويجه في احتفال عظيم.

لم يجرِ قبول إيليونورا بيسر، لما كان لها من طبع متحرّر ومستقلّ في البلاط الفرنسي؛ وقد كان بلاطاً رسمياً متشدداً. لن يكون بوسعنا معرفة ما إذا كانت تلك الطباع المتقلبة بسبب التفسير الخاطئ لنواياها، وإلى أي مدى يمكن أن تصحّ الاتهامات التي وُجّهت إليها بسوء السلوك صحيحة. من المؤكد أن من

كانوا حولها لم يستسيغوا الحياة الرغدة التي كانت تنعم بها، سواء بالجواهر أو الملابس باهظة الثمن. ولكن الفنانين الجوّالين على الأخص؛ الذين كانت تستضيفهم في البلاط كانوا مدعاة لإثارة الأقاويل. أحدهم، ماركابرو وقد طرده الملك بنفسه بسبب الأغاني العاطفية الفاضحة التي كان يهديها إلى حبيبته، وقد كان الملك يشك في أن الملكة مقصودة بها[1]. ولكن إذا كان بلاط باريس مقاوماً للتقاليع الأدبية والغزل وربما كان يسيء فهمها، فالأمر المؤكد أن إيليونورا كانت موضع شبهات وخاصة في قوة تأثيرها في الملك.

كان الزوجان الشابان (كلاهما لا يتخطيان العشرين) يتخذان القرارات السياسية الجريئة وغالباً ما كانت تتسبب في زعزعة الاستقرار، حدث ذلك في النزاع الذي نشأ مع البابا إينوسنت الثالث بسبب تعيين رئيس الأساقفة الجديد في بورج. ومثلُ ذلك أيضاً ممارسة الضغوط على رودولفو دي فيرماندوا (Rodolfo di Vermandois) حتى يطلق زوجته إيليونورا دي شمباني (Eleonora di Champagne)، ليتمكن من الزواج بالشابة بيترونيللا الأكويتانية (Petronilla d'Aquitania)، أخت الملكة التي كانت بحسب ما كان يُقال، مُتيّمة به. نتج عن ذلك صراع مع عائلة الزوجة -التي طُلِّقت بالفعل- وخلال هذا الصراع تم غزو مدينة فيتريه أون بيرتوا (Vitry-en-Perthois). وقد لجأ أثناء الغزو أكثر من ألف من سكان هذه المدينة إلى الكنيسة، فأشعِلت فيها النيران. ربما من أجل الاستجابة لهذه العاطفة الطائشة، نتجت تلك المذبحة التي ثقُلت على ضمير لويس السابع، أما إيليونورا فإن ما كان يشغلها أكثر من مشاعر أختها هو أن تضيف، بطريقة غير مباشرة، إقطاعية واسعة تقع حول قصري سان كوينتينو وبيرون.

ألقى البابا المنع والحرمان على مملكة فرنسا وعلى الملكين الزوجين، وكان

(1) Pernoud, *Eleonora d'Aquitania* cit., p. 42.

واقع أن الزوجين لم يكونا قد أنجبا أطفالاً، قد بدا وكأنه يؤكد فكرة اللعنة الإلهية الوشيكة عليهما. تمّ سحب الحرمان فقط بعد تدخل الراهب الجليل برناردو دي شارافال، الذي لجأت إليه الملكة بصفة شخصية، فأصبح ممكناً بالنتيجة للملكين مرة أخرى التناول من الأسرار المقدسة. وتقريباً كنوع من تأكيد عودة البركة في حياتهما، نجح لويس وإيليونورا عام 1145 في إنجاب ابنة، ماريا. وعلى كل حال، كان استمرار السلالة الملكية يتطلب أن يكون المولود ذكراً. إضافة إلى ذلك، فإن المنع لم يكن قد رُفع بعد. كان هذا العقاب –وهو مثل الحرمان الذي يُحكم به على شخص ولكنه يقع على بلد بأكمله– كان قد تسبب في تعليق كل مظاهر الطقوس العامة، وتسبب تالياً في إغلاق كل الكنائس أبوابها، فلم تعد تدق أجراسها للدعوة للصلوات اليومية.

مرة أخرى تم استدعاء إيليونورا، وقامت باتباع توصيات برناردو دي شارافال. ولتحصل على رضا البابا دفعت لويس إلى الاشتراك في الحرب الصليبية الثانية، وكانت هي ستصحبه إلى الأرض المقدّسة لتحجّ. وأبحرت إيليونورا في يونيو عام 1147م، واصطحبت معها الفنانين الجوّالين والوصيفات والحقائب. وأثناء الحملة الصليبية بدأت التوترات بين الزوجين، ويبدو أن هذا حدث أيضاً بسبب الدّوْرِ الذي كان لإيليونورا في الهزيمة التي تكبّدوها في جبل كادمو، ونجا منها الملك بأعجوبة. كانت إيليونورا على رأس الطليعة المكونة من قوات من أكويتانيا، ولم تمتثل للأوامر بأن تنتظر القوات الخلفية التي بها الملك والحجيج، وأدى ذلك إلى نحرهم من قِبَل الأتراك. لم تغب بالتأكيد التهَم ذات الطابع الجنسي (كانت إيليونورا امرأة ذات سلطة، وكان لا بد أن تكون بالفعل مكروهة جماهيرياً)، ومن هذه التهم أنها على علاقة بخالها رايموندو دي بواتييه (Raimondo di Poitiers)، في أنطاكية. أضف إلى ذلك، أن رايموندو لم يقدم التحية لملك فرنسا ويبدو أن لويس تحمّل ذلك،

بسبب عدم خبرته بالسلوك العسكري، ولأنه أدرك أنه غالباً ما يختفي خلف الشخصية البراقة لزوجته.

كان زواجهما في أزمة إذ لم يستطع الزوجان، على كل حال، حتى التظاهر بالانسجام أمام الآخرين: عام 1149م، عاد لويس السابع ومعه إيليونورا من الحرب الصليبية ووصلا إلى إيطاليا، عن طريق البحر، كل بمفرده. وفي دير مونتيكاسينو، عادا معاً ليتقابلا بناء على مبادرة من البابا يوجين الثالث، الذي نجح مؤقتاً في مصالحتهما، ورجعا إلى فرنسا. وفي عام 1150 وُلدت ابنتهما الثانية، أليس، ولكن ذلك لم يساهم في تمتين علاقتهما، فاستمرت المشاحنات. وفي الحادي عشر من مارس عام 1152م، اجتمع أساقفة بوردو وروان ورانس وقادة فرنسا في مَجمَع بوجنسي، الذي عُقد في 21 مارس (وهي فترة قياسية!) وألغوا الزواج بمباركة البابا بسبب وجود صلة دم من الدرجة الرابعة. وقد تم إعلان الوضع الشرعي للبنتين، وكان لهما أن تمكثا في البلاط الفرنسي، بينما أُعيدت كل ممتلكات أكويتانيا وجواسكونيا إلى إيليونورا.

وبنزع ذلك الجزء، الذي كان له أهميته من التاج الفرنسي، وجدت السلالة الملكية نفسها أكثر فقراً، بينما حصلت إيليونورا على سلاحٍ قويٍ جداً يمكنها أن تنفقه على الصعيد العالمي. وبمجرد أن وصلت إلى بواتييه، أرسلت رسالة إلى دوق نورمانديا، هنري بلانتاجينتو (Enrico Plantageneto)، وريث عرش إنجلترا حتى يلحق بها ويتزوجها. وبعد ستة أسابيع من إلغاء الزواج السابق، يوم 18 مايو 1152، وفي عيد العنصرة، تم الاحتفال بزواج إيليونورا وهنري. كانت هي أكبر منه بأحد عشر عاماً. وبوفاة حميها غوفريدو البيللو، الذي أُتهم وسط همس الجميع بأنه أحد عاشقيها، في 19 ديسمبر 1154م، أصبحت إيليونورا ملكة إنجلترا، وتُوّج زوجها باسم هنري الثاني. وبين نهاية عام 1166

وبداية 1167م، قام هنري، الذي لم يقطع علاقاته بالنساء الأخريات، بإعلان علاقته بروزاموند كليفورد (Rosamond Clifford) جهاراً، فأصبحت للعلاقة تداعيات شعبية. عام 1167 تم الاحتفال بزواج ابنة الزوجين الملكين ماتيلدي، بدوق بافييرا وساكسونيا هنري الأسد. بقيت إيليونورا في إنجلترا مع ماتيلدي لإعداد الزواج وبدأت فترة الانفصال عن هنري.

إذا دققنا النظر، فإن ما حدث بين ملك إنجلترا وملكتها، وبالمقارنة بما حدث مع الزوج الفرنسي، لم يكن أزمة زواج، وإنما أزمة خطيرة على توريث الحكم، دعمتها عائلة هنري نفسه. كان الابن ووليّ العهد هنري الشاب، ضعيف الشخصية ومُحاطاً بمستشارين أعداء لأبيه، ففي عام 1173م نظّم ثورة ضد أبيه، إذ ذهب إلى باريس، ومن هناك، وبدعم من لويس السابع، وهو بالتأكيد عدو لهنري الثاني نظراً إلى كونه اشترك في حكم أكويتانيا وجواسكونيا، وربما أيضاً لِما يحمله من ضغينة تجاه رجل أصغر منه سناً اتخذ مكانه بجوار إيليونورا، بدأ هنري الشاب يوجه الاتهامات لأبيه ويكيل ضده الوشايات. ذهب هنري الشاب سراً إلى أكويتانيا حيث يعيش أخواه ريكاردو وغوفريدو في بواتييه، مع الأمّ، التي اِنفصلت علناً عن زوجها الثاني. وهناك يبدو أن وريث عرش إنجلترا قد حثّ أخويه، على موافقة إيليونورا على الاتحاد معه في هذه الثورة.

نجح هنري الثاني في الانتصار على الثوار فقط عام 1174م، عندما تم إيقاف الملكة، وقد كانت تركت بواتييه في شهر أبريل متنكرة في زي رجل، متجهة إلى باريس، فتم القبض عليها في الطريق، وإرسالها إلى هنري في روان. وفي الثامن من يوليو 1174 أبحر الملك إلى إنجلترا، مصطحباً معه إيليونورا، التي سُجنت بمجرد وصولها إلى ساوثهامتون. بعد ذلك بفترة وجيزة، قام الأبناء الثلاثة بالخضوع للأب وأخمدت الثورة. ظلت إيليونورا حبيسة في إنجلترا

زهاء ستة عشر عاماً في أماكن متفرقة. عام 1176 ماتت روزاموند كليفورد، حُبّ هنري الثاني الوحيد. كانت الصلة بينهما قد بدأت عام 1166م ويبدو أن الملك في نهاية عام 1173 فكر جدّياً في تطليق إيليونورا، ولكن كان ثمة عقبة صغيرة وهي أن يفقد الأراضي الفرنسية التي لزوجته. عام 1175 فكّر هنري أن يعزل إيليونورا في دير فونتيفرو، ليجعلها تنذر نَذرَ الفقر وبالتالي تتنازل عن كل ألقابها وإقطاعاتها، ولكن من الواضح أن إيليونورا لم تذعن لذلك. من غير المستبعد أنه -على الرغم من حالة الحبس التي كانت فيها- كان لأولادها دورٌ قاطعٌ في عدم إجبارها بأساليب وحشية على قرارات ضد مصلحتها، أو أن يتم قمعها. عندما ماتت روزاموند، لأسباب غير واضحة، أشاع هنري أنها تسممت بمؤامرة من إيليونورا، التي أصرت على أنها بريئة مؤكدة أنها لم تكن لتتمكن من فعل ذلك حتى لو أرادت ذلك، لأنها كانت تحت الحراسة المشدّدة.

من الواضح أن الملك كان يرغب بكلّ الطرق في أن يفك ارتباطه بزوجته، بغضّ النظر عن براءتها من التسبب في موت روزاموند. وعلى خلفية التوترات مع فرنسا التي كان زواجه من إيليونورا قد أزالها، فقد كانت تلك القصة ستخدمه في تقديم قراءة انفعالية للتناقضات السياسية وللدور الغامض الذي كانت تلعبه الملكة التي كانت ممزقة بين انتماءين، حتى إنها شاركت في ثورة ولديها ضد والدهما، وقد أشعلها شارل السابع. إلا أن أسطورة الحب والموت تلك، وبعد مرور قرون، قد أظهرت نموذجين متضادين للنساء، كانت لا تزال معروفة. إن الأغاني المدمرة التي انتشرت في الصحف الشعبية، تقريباً في العقود الأولى من القرن السادس عشر، لم تكن مؤرخة، ولكنها كانت معروفة بالتأكيد في منتصف القرن السادس عشر، في قلب الجدل حول وحشية ملكات تيودر.

حول هذه الصورة المتأخرة لإيليونورا، انتشرت أقاويل تحكي عن غضبها ومحاولات هنري الثاني الفاشلة لتهدئتها، عندما تأكدت الملكة من خيانة زوجها. كان الملك في تلك الفترة قد بنى قلعة في وودستوك، حيث يمكنه حماية حبيبته، التي سيتركها عن قريب ليحارب على الأرض الفرنسية الثوارَ الذين يقودهم ابنه نفسه. وبعد وداع حار، رَحَل هنري وهو لا يعلم أنه لن يرى حبيبته روزاموند مرة أخرى، لأن إيليونورا، التي كانت تأكلها الغيرة، كانت قد ذهبت إلى وودستوك. وهناك عمد الفارس الذي عهد إليه الملك بمفتاح القلعة إلى تسليم الملكة المفتاح. وهناك بعد أن صُدمت من جمال روزاموند وجُرحت، أجبرتها إيليونورا على أن تنزع عنها ملابسها باهظة الثمن وأن ترتدي ملابس الحداد، معلنة بذلك وفاتها. ألقت الشابة بنفسها عند قدميها، ووعدتها بأن تنسحب إلى الدير إذا تركتها تعيش، ولكن توسلاتها كانت بلا فائدة، فقد أجبرتها الملكة على تجرّع كأسٍ من السم[1].

وفي مجموعة سابقة، كانت الأغاني الشعبية نفسها في وضع الصدارة مع عنوان مختلف -أبيات رثاء عن موت الجميلة روزاموند، عشيقة الملك هنري الثاني- وهي الأبيات التي تعبر عن غيرة إيليونورا وتفضح جريمتها[2]؛

روزاموند العذبة كانت غاية في الجمال/أخذتُها خارج مخبئها الآمن/ وهناك ناولتُها الكأس المسمومة/ التي بسببها لحق بها الموت سريعاً/ وهو

(1) In T. Deloney (1543?-1600), *The garland of good-will divided into three parts: containing many pleasant songs and pretty poems to sundry new notes: with a table to find the names of all the songs / written by* T.D., 1678; balata الأغنية الشعبية الأولى *A Mournful Ditty on the Death of Rosamond, King Henry the Second's Concubine*.

(2) *Strange histories, or, Songs and sonnets, of kinges, princes, dukes, lords, ladyes, knights, and gentlemen and of certaine ladyes that were shepheards on Salisburie plaine: very pleasant either to be read or songe, and a most excellent warning for all estates*, 1612.

الشيء الذي فعلته بكل أسف/ لأنها كانت حبيبة الملك الغالية[1].

والملكة بدورها هي بطلة «الرثاء» حول فترة سجنها الطويلة[2]. واستمر ديلوني في حصد النجاح الشعبي: أُعيد طبع أغانيه الشعبية حتى بعد مرور عقود كثيرة على موته، مع بعض التعديلات: ففي (*Royal garland of love and delight*)، التي تم تحريرها عام 1674، وفي أعقاب العمل المميز (*Life and Death of Lady Rosamond King Henry the second's Concubine*) عاد «الرثاء» المدمّر لإيليونورا للظهور، وقد ظهرت فيه دوقة أكويتانيا في الحالة التعسة التي قادتها إليها ذنوبها: ليس فقط الغيرة القاتلة، ولكن أيضاً تحريض ولديها على أبيهما. كانت العقوبة: السجن لمدة ستة عشر عاماً كاملة، والندم إذ لم تر الملك مرة أخرى قطّ[3].

2. لعنة إيليونورا

في عام 1183م ثار هنري الشاب، الذي كان قد لُقب بدوق نورمانديا، من جديد وبمساعدة قوات أخيه غوفريدو وقوات أخي زوجته ملك فرنسا فيليب أغسطس (1165–1223م) –الوريث الذي تمناه لويس السابع وأنجبته له زوجته الثانية، آديلي دي شامباني– ودبر مكيدة لأبيه في ليموج. حاصر

(1) Sweete rosamond that was so faire,/Out of her curious Bower I brought,/A poisoned cup I gaue her there,/Whereby her death was quickly wrought,/The which I did all despight,/Because she was the king delight.

(2) عن سجن الملكة إيليونورا، زوجة الملك هنري الثاني، التي بسببها تمرد ولدا الملك، فيما يخالف الطبيعة، على والدهما، وعن مراثيها، لأنها قضت 16 عاماً في السجن، وقد أفرَجَ عنها ابنها ريتشارد عندما تولى الحكم، وكيف أن الإفراج عنها تسبب في تحرير الكثيرين.

(3) *Royal garland of love and delight containing the lives of sundry kings, queens, and princes: with other love songs and sonnets full of delight / by T.D.; whereunto is added a rare new sonnet of the restauration of our royal soveragn [sic] Charles the Second.*

هنري الثاني المدينة وأجبر ابنه على الهروب والانحراف تجاه أكويتانيا، حيث مرض، وقَبْل أن يموت طلب الصفح من أبيه وطلب منه أن يفرج عن أمه وأصدقائه الثوار. ظل الترابط العائلي–الأبوي بين البلانتاجينت وملك فرنسا قوياً، ومما زاد من قوته زيجتا إيليونورا. عند وفاة هنري الشاب، طالب فيليب أغسطس، لمصلحة أخته مارغريتا، الملقّبة بالملكة الشابة (لأنها كانت زوجة هنري الشاب)، ببعض الأملاك في نورمانديا، ولكن الملك هنري رفَضَ أن يسلمها له، لأنه رأى أن تلك الممتلكات لا بد أن تعود بوفاة ابنه، إلى إيليونورا وقد بات يعتبرها في هذا الظرف علناً زوجة الملك، وعلى الرغم من ذلك تم استدعاؤها في صيف عام 1183. كانت أملاك إيليونورا يمكن أن تصبح، من خلال توريث الأبناء، جزءاً من التركة الموروثة لسلالة العائلة الملكية للبلانتاجينت. هكذا بدأت الملكة، في نورمانديا، فترة امتدت ستة أشهر شبه حرة، عادت في نهايتها إلى إنجلترا. كان ذلك في الأيام الأولى من عام 1184م، وفي الأعوام التالية لذلك كانت إيليونورا غالباً في صحبة زوجها، وكانت تشاركه أيضاً شؤون الحكم، ولكنها لم تكن قطّ طليقة، لأنها كانت دائماً تحت المراقبة.

في عام 1186 مات غوفريدو الابن، دوق بريطانيا، أثناء دورة ألعاب في بلاط فرنسا. وفي 6 يوليو 1189 توفي أيضاً هنري الثاني، وقام ريتشارد، الذي تولى حكم إنجلترا، بالإفراج الفوري عن أمه. عندما ذهب ريتشارد لينضمّ إلى الحرب الصليبية الثالثة، حكمت إيليونورا باسمه، ونجا هو أيضاً، حتى مات عام 1199، بينما اعترف سادة إنجلترا ونورمانديا بالملك جون، الابن الأصغر لهنري وإيليونورا. وبمجرد توليه العرش تم الاتفاق على هدنة بين إنجلترا وفرنسا، كانت تنصّ على مشروع زواج بين لويس، ابن فيليب أغسطس، والبالغ من العمر اثني عشر عاماً، وبين إحدى ابنتي أخت جون، أوراكا أو

بيانكا، وهما ابنتا إيليونورا أخته (التي كان لها اسم أمها) وألفونسو الثامن القشتالي. كلّف جون أمَّه، التي كانت تبلغ من العمر وقتئذٍ سبعة وسبعين عاماً بالذهاب إلى قشتالة لتختار أياً من البنتين لتُقدَّم إلى ملك فرنسا. وصلت إيليونورا إلى هناك، بعد بعض الصعوبات، في يناير عام 1200، وقضت هنالك شهرين، وفي النهاية اختارت الصغيرة بيانكا (1188–1252م). عَبَرت الجدة ومعها الحفيدة جبال البرانس (البيريني)، وعادَتا إلى فرنسا، ووصلتا إلى بوردو عن طريق الباسك. عهدت إيليونورا ببيانكا إلى رئيس الأساقفة، ثم اعتزلت في دير فونتفرو، حيث كانت تشعر بالتعب الشديد. وهناك زارها ابنها جون في بداية الصيف.

في الشهور الأولى من عام 1201، لم تكن إيليونورا قد استعادت قواها بعدُ، ولكن، عندما نشبت الحرب من جديد بين جون وفيليب أغسطس، ساندت ابنها، وعندما حاول حفيدها آرثر –الابن الأكبر لغوفريدو ابنها– وحليف فيليب أغسطس، أن يسيطر على أكويتانيا، تركت الدير لتصل إلى بواتييه، علم آرثر، ونجح في منعها وحصارها في قصر ميرابو. عندما علم جون هرع لنجدة أمه، وهزم المحاصرين وسجن ابن أخيه، الذي مات في السجن عام 1203، وربما سممه عمه. عام 1202، عادت إيليونورا إلى دير فونتفرو، حيث اِرتدت غطاء الرأس، وماتت عام 1204م، بعد أن دَفَنَت ثمانية من أبنائها العشرة، ولم يبق بعدها على قيد الحياة سوى جون وإيليونورا.

تمثل قصة حياة إيليونورا الأكويتانية، «ملكة الأمتين»، فصلاً مكثفاً من الأفكار السائدة التي حاول التاريخ في السنوات الأخيرة أن يعيد تركيبها. أحد المواضيع الشائكة التي عملت عليها بيجي ماكراكن هو الارتباط المحرم المزعوم بينها وبين الخال رايموندو من أنطاكية، وهو ما كان منتشراً في أخبار ذلك العهد. ومن بين تلك الأخبار ما يُقال أيضاً حول علاقة العشق والخيانة

بين إيليونورا والسلطان عندما كانت موجودة في الأرض المقدسة[1]. ولكن، مارتن أوريل (Martin Aurell)، كان هو من قام بإعادة فحص الأخبار، دون أن يكون هدفه «استعادة الذاكرة»، ولكنه ناقش الأحداث في ضوء الأوضاع السياسية لتلك الحقبة. يواجه أوريل، في الواقع، الحكايات حول سلوك الملكة الجنسي، مع المصادر التي يتم عليها تأسيس تلك الأسطورة الخاصة بالانحلال الأخلاقي لإيليونورا، والتي تقوم بدورها على علاقتين غير شرعيتين مزعومتين للملكة: الأولى، المذكورة بالفعل مع الخال رايموندو في مارس 1148م، والثانية مع غوفريدو البيللو، كونت أنجيو، حَمِي إيليونورا المستقبلي، أثناء إقامتها في باريس في سبتمبر 1151م.

للحدث الأول، الذي طُرح على أنه أصل الصراع بين الزوجين، أسباب سياسية قوية: من المعروف أن لويس السابع كان يرغب في الذهاب إلى أورشليم ليَبرَّ بقسَم ويُكفِّر عن المذبحة المشينة لفيرتي اون برتوا التي حدثت قبل ذلك ببضعة أعوام، على أمل أن يزيل المنع الكنسي عن فرنسا. ولكن رايموندو، السياسي المحنّك، كان يرى، على العكس، أن الأهم التركيز على الشمال وتحقيق هدف الحملة العسكري، أي الاستيلاء على آديسا (أورفة حالياً). وفي يوليو، كان الفشل في الحصار الوجيز لدمشق كافياً ليثبت أن رايموندو كان على حق. في الواقع، لم يستطع لويس أن يغزو المدينة وأن يمنع فشل الحرب الصليبية الثانية. كانت إيليونورا قد عضدت موقف خالها في مقابل موقف زوجها. بدا هذا السلوك بالضرورة سلوكاً فاضحاً في أعين المعاصرين مما أثار استياءهم، وعبروا عنه وكأنه خيانة سياسية-جنسية: وهما مستويان يتداخلان بطريقة حتمية عندما تصل النساء إلى مستويات عالية من

(1) P. McCracken, *Scandalizing Desire: Eleanor of Aquitaine and the Chroniclers, in Eleanor of Aquitaine: Lord and Lady*, a cura di B. Wheeler e J. Carmi Parsons, Palgrave Macmillan, New York 2002, pp. 247-263.

الظهور الجماهيري.

بعد إقامتها في أنطاكية ثلاثة أعوام، قابلت إيليونورا للمرة الأولى هنري، وأباه غوفريدو البيللو في باريس: لقد كان هذا الحدث، بحسب رواية كل من وليم نيوبرغ وجيرفيه دي كانتوربيري، كان السبب في الإسراع بنهاية زواجها من لويس السابع. ولكن بينما يصرُّ سَرْد الأخبار الأول على الحب الذي اشتعل بين إيليونورا وهنري، فإن الآخر، على العكس، يعضد اهتمام إيليونورا بأن تنقل ثقل ممتلكاتها الشخصية تجاه إنجلترا بدلاً من فرنسا، ربما أيضاً لأنها لم تعدْ تحتمل عدم الكفاءة التي أظهرها زوجها أثناء الحملة الصليبية. تسبّب الزواج الذي تم بعد بضعة أشهر فقط من إبطال الارتباط بلويس السابع، في إشاعات وأقاويل تناقلها غوتييه ماب (Gautier Map) وجيرو دي باري (Giraud de Barri)، اللذان كتباها بعد مرور ثلاثين عاماً من موت غوفريدو البيللو، الحبيب المزعوم للملكة.

تبرّرُ الأحداث الاستعادة المتأخرة لتلك الأقوال التي لم يتمسك المعاصرون بنشرها، لكنها أثبتت جدواها في شيطنة الملكة، والتي تكون بذلك قد ارتكبت «السفاح من الدرجة الثانية»، أو مارست الجنس مع الأب وابنه. إضافة إلى هذا، وبالتوقف عند تاريخ غيلوم دي نيوبرغ وجيرفيه دي كانتوربيري، فإن كلاً من هنري وإيليونورا يُعدُّ جامعاً لزوجين، لأن قرار إلغاء الزواج لم يكن صالحاً، مثلما أشار بالفعل جيرو دي باري، الذي يرى أن هنري الثاني كان سيتزوج بامرأة لويس السابع ليحاربه بطريقة أفضل، ملطخاً نفسه بجناية مخلّة بالشرف. وفي نهاية المطاف، ثمة استثناء واضح، حيث إن بُطْلان الزواج كان ينبع أيضاً من صلة الدم الرابطة بين الزوجين. كان الزواج بالتالي سيعتبر علاقة سفاح لسببين، وكانت علاقة القرابة بين الزوجين، على الرغم من بعدها، ستؤيد حكم الخيانة ضد حَمِيها، وما تبعته

بالزواج من ابنه.

يُحيل غوتييه ماب، وجيرو دي باري إلى تلك الذنوب النسل «الملعون» لهنري وإيليونورا، الذي أتى إلى العالم «مخالفاً للطبيعة» وسقط في العار في اللحظة التي كانت فيها عائلة البلانتاجينت في قمة المجد، ولذلك نتجت عن السفاح الصراعات العائلية التي تلته: من عصيان الأبناء لأبيهم، بتحفيز من إيليونورا نفسها؛ الصراع بين الأبناء؛ والصراع بين آرثر وجدته. إن العلاقة بين كراهية الوالدين والسفاح موضوع شائع في تاريخ العصور الوسطى. توضع اتهامات غوتييه ماب وجيرو دي باري لإيليونورا في هذا السياق ضمن الصراعات العائلية الداخلية التي يعود سببها إلى جرم الملكة، الخائنة والغاوية، مستندين أيضاً إلى زعم «العلاقة» التي تمت في أنطاكية مع الخال رايموندو، يعلن المؤرخون الإدانة الأخلاقية لممارسة زواج الأقارب، وعلاقات الثقة المفرطة بين الأقارب من الجنسين والعلاقات المنحلة بين الأزواج.

اختتم مارتن أوريل بأن قيمة تلك المصادر، مثيرة للعجب بسبب التركيب الفكري ونزعة التديّن في العصور الوسطى، ولا تُعدُّ بأي شكل شاهداً على الحياة الخاصة لإيليونورا[1]، مؤكداً أن أعين المعاصرين، بدلاً من أن تحدق في الحياة الشخصية الحقيقية للملِكات، انشغلت بأن تنقل صورة عن أدوارهن العامة، مبنيّةً على النماذج المنتشرة ثقافياً عن النساء.

من جهته، أراد رالف تورنر أن يفضح زيف أسطورة إيليونورا التافهة وسلوكها الأناني تجاه أبنائها، مؤكداً أن الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياتها كأرملةٍ وكأمٍّ كرّستها جميعاً بلا استثناء لهم، وأنها في سن متقدمة أنفقت كل ما تبقّى لها من طاقة للحفاظ على سلامة أراضي مملكة هنري الثاني، في البداية

(1) M. Aurell, *Aux origines de la légende noire d'Aliénor d'Aquitaine*, in *Royautés imaginaires (XIIe-XVIe siècles)*, a cura di A.H. Allirot, G. Lecuppre, L.Scordia, Brepols, Turnhout 2005, pp. 89-102.

لمصلحة ريتشارد ثم بعد ذلك لمصلحة جوفاني[1]. يلاحظ أوريل أن الأمر في حالة إيليونورا، مثلما الحال بالنسبة إلى ملكات أخريات، لا يتعلق بالدفاع عن اتهامات؛ ربما تكون حقيقية أو زائفة تبعاً للحالات، وإذا ما كانت محددة في الإطار الخاص فإنها ستصبح هامشية إلى حد كبير؛ ولكن الأمر يتصل باكتشاف الرسالة السياسية من خلال اللغة المتعلقة بالحياة الخاصة التي أراد الكاتب نقلها.

3. بيانكا في بلاط ملك فرنسا

لم يكن الدور السياسي الذي أدّته إيليونورا، في المهمة التي عهد بها إليها في قشتالة، خافياً على أحد، بل كان واضحاً: إذا كان جون ملك إنجلترا، أرسل امرأة قاربت الثمانين في برد الشتاء القارس لتعبر جبال البيريني وتنفذ مهمة لا يختلف اثنان في أهميتها ودقتها -كان الأمر يتعلق بمحاولة التحالف مع ملك فرنسا- فذلك يعني أنه كان ذا رأي واضح في بصيرة أمّه السياسية وحيويتها[2]. إضافة إلى ذلك، فإن إيليونورا، بصفتها صاحبة إقطاعيات، هرعت على الفور لتكرم فيليب أغسطس -ابن لويس السابع وزوجته الثانية آديلي دي شامباني- عندما صار ملكاً. أراد جون ملك إنجلترا وأمه أن يضمنا من خلال علاقة نسب، حقّ أحد أحفاد عائلة البلانتاجينت في أن يكون

(1) R.V. Turner, *Eleanor of Aquitaine in the Governments of Her Sons Richard and John*, *in Eleanor of Aquitaine: Lord and Lady* cit., pp. 77-95.

(2) البروفايل الذي يلي، مأخوذ من كتاب برنو:
R. Pernoud, *Bianca di Castiglia. Una storia di buongoverno*, ECIG, Genova 1994 (ed. orig. 1972) (الأحدث) .E. Bonoldi Gattermayer, *Bianca di Castiglia, regina di Francia e madre di un santo*, Jaca Book, Milano 2005.
لا يبدو لي أنه قد أضاف الكثير من وجهة النظر التفسيرية.

وريثاً في فرنسا (لم يكن جون ملك إنجلترا، الابن الذكر الأخير لهنري الثاني، قد رُزق بعد بأولاد). كانت مهمّة الملكة العجوز تتمثّل في اختيار زوجة لوريث فيليب أغسطس، من بين ابنتي ابنتها الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة: إيليونورا، ورأينا كيف فضّلت الجدة الابنة الصغيرة بيانكا. تزوج لويس، وريث عرش فرنسا ببيانكا في 23 مايو عام 1200م، وهي ذات اثني عشر ربيعاً واحتفلا بالزواج في نورمانديا، الأرض ذات السيادة الإنجليزية، لأن فرنسا كانت قد وقعت تحت المنع الكنسي مرة أخرى (13 يناير) عندما خلع فيليب أغسطس زوجته الدنماركية وعاش في حالة جمعٍ بين زوجتين بعد زواجه بآنييزي دي ميراني.

من المفترض أن الزواج لم يتمّ على الفور، نظراً إلى سِنّ بيانكا الصغيرة. ولا نعرف إذا ما كانت الملكة قد أجهضت من قبل، ولكن في كلّ الأحوال كانت حالة الإنجاب الأولى متأخرة، وأنجبت ولداً، فيليب، وذلك في التاسع من سبتمبر عام 1209. انقلبت علاقات القوى بين فرنسا وإنجلترا في الأعوام التالية، وبينما كانت بيانكا تنجب طفلها، كان الجد فيليب يفكر بالفعل في أن تكون له اليد الطولى وذلك بالزحف على إنجلترا لِقلْبِ حكم جون، وقد كان لُقّب وقتها «جون بلا أرض»، للمطالبة بحقوق زوجة ابنه وابنها، وحقه هو أيضاً في عرش البلانتاجينت. إلا أن الخطة فشلت، لأن ملك إنجلترا، الذي كان معروفاً وقتها بأنه غير مؤمن (لم يكن يتناول من الأسرار المقدسة ولا حتى في مناسبة زواجه)، قد وضع نفسه في حماية البابا، ولذلك صار لا يمكن الاعتداء على أملاكه. ولكن جون ملك إنجلترا ذهب إلى روشيل، بجيش من المرتزقة: وكان على وليّ العهد لويس، الذي حصل على لقب الأسد أثناء محاربته للكثاريين، هراطقة فرنسا الجنوبية، مواجهته حتى أجبره على الهرب. في 27 يوليو من عام 1214، أوقف فيليب أغسطس في الوقت ذاته في

بوفين[1]، الهجوم الذي شنّه أوتو الرابع دي برونسويك من فلاندر، وهو ابن إحدى أُخوات جون ملك إنجلترا، ولذلك كان يطالب بميراث البلانتاجينت بلقب لبيانكا، التي كانت قد أنجبت ولدا آخر في شهر أبريل أُختِير له من الأسماء لويس مثل أبيه.

كان لويس الأسد يبدو مهتماً قبل كل شيء باستعادة ميراث زوجته ومتعجلاً الإبحار إلى إنجلترا لمحاربة جون المتّهم آنذاك بتسميم آرثر ابن أخيه، نظراً إلى كون آرثر كان ابن الأخ وليس ابن الأخت مثل بيانكا، أو أوتو من بروسويك، كانت له فحسب حقوق أكثر من كل الورثة الآخرين وكانت له أهمية لدى أبناء عمومته أكثر من عمه. دخل لويس إلى لندن في الثاني من يونيو 1216م. وفي نهاية يوليو كانت ثلاث قلاع فقط، لا تزال تقاومه، واحدة منها كانت تحميها امرأة، نيكول دو لا هاي (Nicole de la Haie)، وهي «عجوز قوية وحادة الذكاء»[2]. كان يبدو أن إنجلترا قد غدت في يد لويس، ولكن فضلاً عن نيكول عجوز نورماندیا، وقف أمام المشروع الطموح للأمير الكابوتنجي وجودُ وريثٍ شاب لجون ملك إنجلترا الذي تزوّج مرة أخرى عام 1200، بعد أن انفصل عن زوجته العاقر إيزابيللا من جلوكاستر، ورُزق أخيراً بابنه الأول هنري، وكان عمره تسع سنوات[3] عندما توفّي جون في أكتوبر عام 1216. كانت الفترة الطويلة بين الزواج والإنجاب قد جعلت لويس الأسد يفكر في أن العقم هو عقم الملك (ولكن ما فنّد ذلك هو عدد أبناء الملك غير الشرعيين). وبعد رحيل لويس وقد

(1) G. Duby, *La domenica di Bouvines. 27 luglio 1214*, Einaudi, Torino, 1977 (ed. orig. 1973).

(2) Pernoud, *Bianca di Castiglia* cit., p. 84.

(3) حول الزواج الثاني لجون ملك إنجلترا يمكن الاطلاع على البحث التالي:
J.W. chester. *Isabelle d'Angoulême, By the Grace of God, Queen*, in «revue belge de philologie et d'histoire», 69, 1991, 4, pp. 821-852.

حدث في 22 أبريل عام 1217م، استدعت نيكول دي لا هاي، إلى قصرها في لينكولن جميع البارونات المخلصين لهنري الصغير. وفي مواجهة جيش أكبر عدداً، قام الوصي على الملك، والبالغ من العمر ثمانين عاماً غوليلمو الماريشاللو[1]، بين 19 و20 مايو بطرد المستعمرين، بينما قبضت نيكول على قرابة أربعمائة أسير. وكان فضل الحفاظ على عرش هنري الثالث يعود إلى قائدٍ شيخٍ وعجوزٍ إقطاعيةٍ محاربةٍ.

في 14 يوليو 1223 مات فيليب أغسطس، وفي أقل من شهر بعد موته تم تتويج لويس الثامن وبيانكا في حفل مهيب في مدينة رايمس. كان ثمة مخاوف من مقاطعتي فلاندر ونورماندي، فالأولى خاضعة لملك فرنسا ولكنها مخلصة للبلانتاجينت، والثانية نُزعت مؤخراً من يد إنجلترا، وكانت مخاوف الثورة تتصاعد منهما، ولكن نوعاً من الهدنة بين المملكتين، تحقق في تلك اللحظة، على الرغم من أن هنري الثالث كان بمقدوره أن يشن هجوماً على فلاندر ونورماندي ليستعيد الأراضي المفقودة. أمّا لويس الثامن، وبعد أن اضطر إلى التنازل عن إنجلترا، فقد اتجه إلى الجنوب، إلى لانغيدوك حيث انتشرت هرطقة الكثاريين، وحاصر آفينيون. كان الإرهاق الذي أصابه جراء تلك الحملة قاتلاً، وبالفعل فقد توفي في الثامن من نوفمبر. كانت حالات الردة التي تلت تلك العمليات الحربية عديدة، وتركت الريبة في أن تلك الميتة العنيفة ربما كانت بسبب سمٍّ دُسّ له في كأس من النبيذ. فقدَتْ الملكة عقلها تقريباً بسبب الحزن، وفي 29 نوفمبر، تم تتويج لويس التاسع، في عمر اثني عشر عاماً.

وبحسب رغبته، وبحضور شهود، أراد الملك الراحل أن يترك لزوجته

---

(1) عنه يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:

G. Duby, *Guglielmo il Maresciallo. L'avventura del cavaliere*, Laterza, Roma-Bari 1993 (ed. orig. 1984).

الحبيبة إدارة شؤون المملكة، فكان يمكن لبيانكا بالنتيجة أن تحكم بمفردها: لم يكن الأمر يتعلق بوصاية فحسب، فالأعمال الرسمية كان يجري توقيعها سواء من قِبلها هي أو من ابنها، لذلك وإلى أن بلغ الملك سنًا أكبر كانت هي التي تتخذ القرارات بمفردها. في عام 1231، عندما بلغ الابن عشرين عاماً، انشغلت بيانكا بالعثور على زوجة له، وكان اختيارها في هذه الحالة أيضاً سياسياً، ووقع الاختيار على مارغريتا، ابنة الماركيز رايموندو السابع من بروفانس، وهو إقطاعي من بين الأكثر تمرداً. أعجب لويس ومارغريتا كل منهما بالآخر على الفور، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الزوجة وحماتها: واستمرت بيانكا في استخدام القبضة الحديدية نفسها التي بها استطاعت بحنكة التحكم في زوجها ثم في ابنها. كانت عبارة المؤرخ جوينفيل، التي ذكرتها ريجين بيرنو ذات مغزى: «كان يمكن للملكة بيانكا أن تسمح لابنها بأن يمكث مع زوجته في المساء فقط، عندما ينسحبان ويذهبان إلى غرفتهما»[1]، وهو الأمر الذي يمكن تفسيره برفضها لأن تكون الزوجة منافسة لها في حكم المملكة، وكأنها طريقة التعبير القاسية عن الرغبة في أن تحدّد دورها بالواجبات «النسائية» التي للزوجة وللأم، إضافة إلى أن بيانكا كانت تدرك أنها من سلالة ملكية، وأنها في مرتبة أعلى إذن من كنّتها، بحكم المولد.

في عام 1249 لَحِق لويس التاسع بإخوته في الحملة الصليبية السابعة، التي أُسر أثناءها، وتم تحريره بفدية، ولكنه ظلّ في الأرض المقدسة طويلاً ينظّم دفاعاً؛ كان مفهوماً في تلك اللحظة أنه لا أمل فيه على الرغم من التعبئة الهائلة من كل الدول المسيحية وفرنسا بصفة خاصة. توفّي أخوه روبرتو في المنصورة، وكانت الملكة مارغريتا تشاركه المغامرة في الأرض المقدسة،

(1) Pernoud, *Bianca di Castiglia* cit., p. 172.

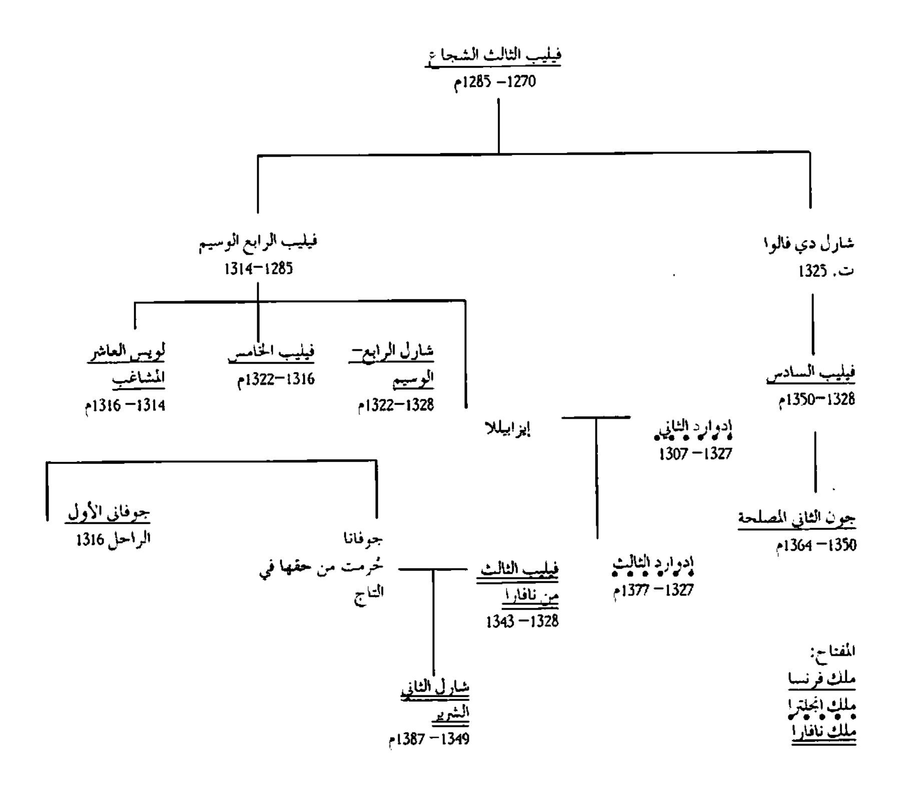
وأنجبت له ثلاثة أبناء، وكانت هي من اهتم بدفع الفدية وتحرير زوجها. تُوفِّيتْ بيانكا عام 1252م، دون أن ترى ابنها مرة أخرى. كان يمكن لمارغريتا إذن أن تأمل في أن تقود هي يد زوجها وأفكاره، ولم يكن ثمة شك في أن ذلك ما كانت تنوي فعله، ربما لتقلّد حماتها، أو لِتتفوّقَ عليها: عام 1263 انتهى إلى مسمع لويس التاسع أن زوجته فرضت على الأمير الوريث فيليب أن يُقسِم لها بأن يظلَّ تحت حمايتها حتى سنّ الثلاثين «وأن يستمع إلى نصائحها، ولا يطيع أي شخص آخر»[1].

في ذلك الوقت كان لويس التاسع يبلغ من العمر تسعة وأربعين عاماً، وكانت مارغريتا تتخيّلُ أحوالها كأرملة تعويضاً عن دورها كشخص في المرتبة الثانية كان عليها أن تؤديه في المملكة، وربما لأنها كانت ترى الموت الوشيك لزوجها الملك، نظراً إلى حالة الوهن التي تسببت فيها الإصابة بالدوسنتاريا التي حدثت له أثناء الحرب الصليبية. كان رد فعل الملك هادئاً ولكن حاسمٌ: خرجت مارغريتا تماماً من المشهد السياسي. ولكن رحيلَ لويس عام 1270م في الحملة الصليبية الثامنة ضد إمارة تونس كان كارثة للجميع، ولكن لشخصه هو بصفة خاصة، فقد سحقته الدوسنتاريا تماماً، وأدت إلى وفاته. وعلى حسب الإجراء المتعارف عليه، كان يتم غلْيُ الجسد ونزع العظام: وصل قلبه إلى باريس، بعد رحلة طويلة، واستقبله الشعب بحماس تكريماً وتعبيراً عن تقديرهم لشخصه، بل ونُسبت إليه من بعد العديد من الكرامات. وهكذا تمّ تأكيد شهرته كقدّيس، وهو اللقب الذي حظي به الملك في حياته، نظراً إلى إخلاصه الشديد واشتراكه غير المشروط في الحروب الصليبية. قدّس البابا بونيفيس الثامن الملك لويس التاسع عام 1297، وأصبح اسمه لدى الفرنسيين سان لويس.

(1) Ivi, p. 273.

4. «المغزل» والقانون السالي

لقد نال فيليب الثالث (1245–1285)، ابن القديس لويس ومارغريتا، الملك وتزوج بإيزابيللا، ابنة الملك جاكومو الأراغوني. في يوليو 1270، اصطحبت إيزابيللا زوجها وحماها إلى تونس في الحملة الصليبية الثامنة، وفي أغسطس من العام نفسه أصبحت ملكة، بسبب موت لويس التاسع، ولكن ذلك كان شكلياً إذ عادت إلى فرنسا بعد خمسة أشهر لتسقط من على ظهر الحصان وتموت ومعها ابنها الخامس الذي كانت في انتظاره. ويبدو أن ابنها الأول لويس، قد مات مسموماً على يد زوجة أبيه، ماريا دي برابانتي التي تزوجها لويس الثالث عام 1274. إلاّ أن من ورث عرش فرنسا عن أبيه كان ابن إيزابيللا أيضاً، فيليب الرابع الذي كان يُطلق عليه اسم الوسيم (1268–1314م)، وذلك عام 1285، بعد عام من زواجه بجوفانا الأولى، ملكة نافارا. كان لقب جوفانا، هو لقبها بالميلاد وبالميراث ولا يتعلّق بكونها قرينة الملك: عند موتها، تمّ توريث مملكتها، التي كانت تشمل مقاطعات بري وشامباني، ليس لزوجها بل إلى حفيدتها، جوفانا الثانية، الابنة البكر لابنها الملك لويس العاشر، الملقَّب بـ«المشاغب» الذي ورث نافارا وأراضي أخرى بعد موت أبيه عام 1316. في تلك الفترة وُضعت جوفانا اليتيمة، بعد أن فقدت أمها مارغريتا دي بورغونيا التي ماتت عام 1315م، في حماية خالها فيليب الطويل، كونت بواتييه الذي تم تعينه مؤقتاً وصيّاً عليها، في انتظار أن يولَد الطفل، الذي حملت به زوجة أبيه كليمنزا المجرية، في شهر نوفمبر.



لم يبك لويس العاشر زوجته مارغريتا طويلاً، وهو أمر مفهوم، إذ كانت فرنسا للمرة الأولى بعد قرون تواجه خطر عدم وجود ورثة للعرش من الذكور، والوقوع تبعاً لذلك في يد امرأة -منطق إبرة المغزل (الانحدار)- وهو الأمر الذي صار يبدو وكأنه شيء كارثي، ليس في حد ذاته، بل لكونه يمنح ثغرة لمطالب الملوك الإنجليز، الذين كانوا يملكون أكواتانيا بالفعل وإقطاعيات أخرى ورثوها عن إيليونورا، وكانوا يحاولون توحيد المملكتين. في الخامس عشر من نوفمبر وُلِد فعلاً ولدٌ ذكرٌ، هو جون الأول الراحل الذي عاش خمسة أيام فحسب. لقد حُرمت جوفانا بعد موت أخيها من حقوقها في عرش فرنسا ونافارا وذلك لمصلحة عمّها الوصيّ الذي ارتقى إلى العرش

في التاسع من يونيو 1317، وحمل لقبي فيليب الخامس ملك فرنسا، وفيليب الثاني لنافارا. واتخذ مجلس الدول العام هذا القرار عام 1317م. من المؤكد، أنّ من بين الأسباب التي دفعت إلى هذا القرار ذلك الاتهام بأن جوفانا ابنة غير شرعية، وهي التهمة التي كانت ممكنة نظراً إلى الإدانة السابقة لعادات أمها الجنسية، وهي المعروفة بالخيانة منذ 1311 مع الفارس النورماندي فيليب دوناي.

سُمِح لجوفانا بدخل شهري تعويضاً لها، مع الوعد بأن تصير شريكة في مقاطعتي شامباني وبري– إذا مات فيليب بلا ورثة من الذكور، وتمّ الزواج بأحد أبناء عمّ والدها فيليب، وريث مقاطعة إيفرو. عندما مات فيليب الخامس الطويل عام 1322م، وقد مات هو الآخر بلا ورثة من الذكور، لم يتم الاعتراف مرة أخرى بحقوق جوفانا: جرى تتويج شارل الوسيم، وهو عمٌّ آخر، ملكاً على فرنسا وملكاً على نافارا. وأصبح شارل الرابع ملك فرنسا، وشارل الأول ملك نافارا. وفي فبراير عام 1328 مات شارل الرابع بدوره دون أن يترك وريثاً ذكراً، بينما كانت زوجته جوفانا ديفرو تنتظر مولودها خلال بضعة أسابيع. تم تعيين ابن عمّ الملك، فيليب دي فالوا وصياً، ولم يتم تعيين القريب الأقرب، ملك فرنسا إدوارد الثالث الذي كان ابن الخال الأول، نظراً إلى كونه ابن إيزابيللا ملكة فرنسا ابنة فيليب الرابع البيللو، وأخت الملوك الثلاثة على فرنسا.

بعد ذلك بشهرين، وضعَتْ جوفانا ديفرو ابنةً، بيانكا، وأصبح الوصي المُعين المنتمي إلى فرع الأقارب من فالوا، ملك فرنسا على الفور وحمل لقب فيليب السادس. وافق مجمعٌ من النبلاء على التوريث، وذلك في توافق مع القانون السالي الذي ينصُّ على الاعتراف بوراثة العرش للورثة من الذكور فحسب. ولكن فيليب السادس لم يتمكّنْ من أن يحرم جوفانا، الابنة البكر

للويس العاشر المشاغب والممثل الأخير لسلالة الكابيتيون الملكية، من حقوقها في عرش نافارا. كان على جوفانا في المقابل أن تتنازل عن المطالبة بتاج فرنسا، وكانت مجبرة أيضاً على التنازل عن مقاطعتي شامباني وبري لملك فرنسا. وفي أعقاب تتويج فيليب السادس (28 مايو 1328) ببضعة أيام، تم إعلان جوفانا ملكة على نافارا، مع زوجها المستقبلي، فيليب، كونت إيفرو الذي تزوجها في التاسع من أكتوبر التالي، وتُوِّجا معاً في احتفال مهيب بكاتدرائية بامبلونا، في الخامس من مارس 1329م.

وهكذا أصبح عرش فرنسا موضوع تنافس بين مدَّعِييْن، كلاهما حفيد فيليب الرابع الوسيم: فيليب من فالوا وملك إنجلترا إدوارد الثالث ابن إيزابيللا ملكة فرنسا. يرى رالف جيسي (Ralph Giesey) أن اللجوء إلى القانون السالي، سواء في أزمة 1316 أم 1328، يجب ألاّ يُفسَّر في إطار ذكوري فقط، لأنه كان يفيد سواء في التمسك بحقوق السلالة الملكية الفرنسية أو قضية هنري الثالث، في حين سيكون استخدام القانون لاستبعاد النساء من السلالة الملكية أكثر وضوحاً في القرن الخامس عشر. يؤكد جيسي، في الواقع، أن اللجوء إلى القانون السالي يظلّ الراجح لِفضّ النزاعات القائمة على مبدأ صلة الدم، وهي التي بتلك المناسبة لا يستبعد فيها رسمياً أن ترث امرأة المملكة، حتى إن كان قد اتضح من خلال الممارسة العملية استحالة حدوث ذلك[1].

قرّرَ الخبراء القانونيون أن يؤسّسوا نظاماً للتوريث يعتمد على مبدأ صفة الذكورة، وذلك من خلال تطبيقهم، بطريقة عشوائية، قانوناً معتاداً كان ينظّم شؤون الحقوق الشخصية، بينما لا يوجد أي ذكر لحقّ السيادة

(1) R.E. Giesey, *Le rôle méconnu de la loi salique. La succession royale, XIVe- XVIe siècles*, Les Belles Lettres, Paris 2007.

وأساسيات الحقوق العامة[1]. وكنتيجة لسلسلة من أزمات التوريث التي تسببت في إضعاف السلالة الملكية الوارثة خلال القرن السادس عشر، وجدت فرنسا نفسها في حالة من عدم الاستقرار السياسي المستمر، وهو ما عالجته أعمال الخبراء القانونيين التي استهدفت تعزيز المؤسسة الملكية من خلال دعم المبدأ الخاص بالسلالة الوارثة. لم يكن الأمر يتعلّق فقط بتأكيد شرعية أن تحكم عائلة الفالوا، بل كذلك تأسيس حق الملك في العرش على أُسس غير قابلة للنزاع. كانت ضرورة تبرير استبعاد البنات كوريثات لعرش أبيهن، قد دفعت الخبراء القانونيين إلى أبعد من مجرد ما جاء في القانون السالي، من خلال تحليل عميق للكيفية التي تسير بها الملكية، وذلك لِسدّ الثغرة القضائية التي سمحت بإيجادها «معجزة الكابيتيون» أي ولادة وريث ذكر في كلّ الأجيال. انطلاقاً من فكرة الخبراء القانونيين التي كانت موجَّهَة بالكامل صوب الحاجة إلى ضمان الاستمرارية والاستقرار السياسي، نشأت «القوانين الأساسية للمملكة»، وسيتمّ تأسيسها بعد ذلك (من خلال القانون الوضعي لعام 1407م) على فكرة دوام السلالة الحاكمة، والتوريث نتيجة ذلك من ابن بكر إلى ابن بكر، وهي القاعدة التي تم استكمالها فيما بعد بفورية التوريث: «مات الملك، عاش الملك»، وهي الصيغة التي تسمح بالتمرير الفوري للسلطة، طبقاً للقانون، لا بحسب مبادئ المملكة، ولا بحسب رغبة الملك نفسه، وهو الذي لا يستطيع أن يتنازل عن العرش لأحد بوصية ما[2].

(1) R. Grand, *La Société politique et la crise de la royauté sous Philippe de Valois*, in «Journal des savants», 2, 1960, pp. 74-78.

(2) F. Cosandey, *De lance en quenouille. La place de la reine dans l'État moderne (XIVe-XVIIe siècles)*, in «Annales. Histoire, Sciences Sociales», 52, 1997, 4, pp. 799-820, p. 802.

5. ذئبة فرنسا

استطاع فيليب السادس أن يتقلد التاج الملكي ويبدأ سلالة الفالوا الملكية، وذلك بفضل دعم كبار الإقطاعيين الفرنسيين، ولكن إدوارد الثالث لم يستسلم: فقد أعلن نفسه الوريث الشرعي لِعرشِ فرنسا وحرّك الحرب ضد فيليب السادس. وما دفعه إلى التصرّفِ بهذا الشكل، هو حصول الفرنسيين على الفلاندر، الأرض المرتبطة تاريخياً بإنجلترا إضافة إلى المطالبة بحقوق أمه إيزابيللا: في هذه الحالة لم يحارب إدوارد الثالث مباشرة، وإنما من خلال تمويل ثورة الفلامنغ ضد الفرنسيين. قام فيليب السادس بدوره، بمصادرة الإقطاعيات الإنجليزية في فرنسا الشمالية، وقد كانت مستوطنة في القرون الأولى بوساطة وليم، ملك إنجلترا الأول لسلالة النورمانديين. كانت أم إدوراد ملك إنجلترا إيزابيللا (1295–1358م)، التي كانت تزوجت بإدوارد الثاني ملك إنجلترا، قد اكتسبت لقب ذئبة فرنسا، وكانت الوحيدة الباقية على قيد الحياة من أبناء فيليب الرابع الوسيم، وجوفانا الأولى من نافارا.

كانت الملكة إيزابيللا مشهورة بجمالها وحنكتها الدبلوماسية وذكائها. وكانت قد وصلت إلى إنجلترا وعمرها اثنا عشر عاماً أثناء فترة الصراع المتصاعد بين الملك ومجموعات البارونات الأقوياء. دعمت إيزابيللا إدوارد خلال السنوات الأولى، مستخدمةً علاقاتها بالعائلة المالكة الفرنسية لتكتسب هامش سلطة أكبر ولتؤكد سلطانها. عام 1312، قُتل صديق الملك المفضَّل، بيرس غافيستون (Pierce Gaveston). كان البارونات الذين اغتالوه، يمقتونه لأن إدوارد كان يغدق عليه مبالغ طائلة. في أعقاب موت غافيستون، لم تتوقّف الثورة لأن إدوارد الثاني استبدل بالراحل أوغو سبنسر الشاب (Ugo Spenser)، وحاول أن ينتقم من الثوار بأن لجأ إلى تطبيق سياسة قمع داخلي.

دخلت إيزابيللا التي لم تستطع التسامح مع التأثير الكبير الذي كان لأوغو على الملك، في صراع مع زوجها، وعام 1325 بلغ زواجهما مرحلة كارثية.

بدأت إيزابيللا علاقة مع روجر مورتيمر (Roger Mortimer)، أحد قادة البارونات الثائرين ضد ملك إنجلترا، بينما كانت في طريقها إلى فرنسا، بحجّة مهمة دبلوماسية، وقرّر الحبيبان أن يتخلّصا من إدوارد الثاني وأن يطردا عائلة سبنسر. عادت الملكة إلى إنجلترا بجيش صغير من المرتزقة عام 1326. هجر الجنود الملك، وبانقلاب على الحكم، أطاحت إيزابيللا بإدوارد، وأصبحت هي الوصية على الحكم لمصلحة ابنها إدوارد الثالث. كثيرون اعتقدوا أن إيزابيللا دبّرت بعد ذلك عملية اغتيال زوجها. إذ لم يطل عمر الحكم الانقلابي طويلاً وبدأ نظام إيزابيللا ومورتيمر في الانهيار، سواء بسبب نفقات الملكة غير المحسوبة أو بسبب الحرب المدمرة على أسكتلندا. وعام 1330 تخلص إدوارد الثالث من مورتيمر، وذلك بأن استعاد سلطته في الحكم، وبعد ذلك قام بمحاكمته. لم تُعاقَب الملكة، وعاشت لسنوات عديدة في رغد، وإن لم يكن ذلك في بلاط الابن، حتى موتها عام 1358م.

على مدى العصور أصبحت إيزابيللا في الذاكرة الشعبية «امرأة الشؤم» سواء من خلال التاريخ أو الأدب واسع الانتشار، فقد تم تصويرها كمتآمرة جميلة جداً وقاسية[1]. لا يمكن أن نتجاهل إنتاجاً درامياً على قدر كبير من الأهمية، تناول الأزمة السياسية الإنجليزية، وكان يعتمد بشكل أساسي على تمثيل الأحداث التي تم تفسيرها على أنها نتيجة لشهوات الملك والملكة ورذائلهما. تقود خطوات متنوعة من كريستوفر مارلو[2] إلى التفكير في

(1) A. Weir, *Queen Isabella: She-Wolf of France, Queen of England*, Pimlico Books, London 2006.

(2) C. Marlowe, *The Troublesome Raigne and Lamentable Death of Edward the Second, King of England*, 1594.

العلاقة بين الملك وغافيستون وكأنها قصة حب مخفية عن أعين الجميع، عملية ارتداء الملك لشخصية حبيبه، «إليك، خذ صورتي، ودعني أرتدي صورتك»[1]، صاح إدوارد في فورة من الرغبة. إن الوثائق التاريخية التي لجأ إليها مارلو، أشارت بالتأكيد لتلك العلاقة، ولكنه يظهر واضحاً فقط من خلال انحيازه السياسي في تأليفه الدرامي، وفي واقع الأمر فإن فشله كملك كان نتيجة لممارساته اللواطية[2].

لم يكن اللواط في تلك الفترة يستبعد الزواج أو العلاقات الجنسية العادية، لذلك لم يتم اعتباره مصدر تهديد للحياة الاجتماعية، ولكن الأمر كان ربما كذلك في الفترة التي كان مارلو يكتب فيها، في بداية الحقبة الحديثة، عندما كان اللواط مرتبطاً بتصرفات تضرّ بكرامة الوضع الاجتماعي، إذا مارسته شخصيات ترتدي القدسية الملكية. ونجد في الدراما قصة ملك إنجليزي، متهم بأنه سمح لعلاقته اللواطية بأن تكون لها الأولوية على واجباته السياسية والاجتماعية: لا يتمّ التركيز هنا بوضوح في الميل الجنسي بل في انحدار كرامة الحاكم[3]. ربما تكون الشخصية الأكثر أهمية التي يبرز من خلالها مارلو الدور السياسي في التصرفات الخاصة هي إيزابيللا، التي وُصفت في كتب التاريخ بأنها كانت الأكثر اندفاعاً وراء غرائزها. كان رفضها العودة إلى فرنسا، وقد ظهر بوضوح في مذكرات (*Holinshed's Chronicles*)، التي نُشرت عام 1577، لتظهر الملكة كشخصية غامضة، أو على الأقل، غير مفهومة[4]. كانت إيزابيللا، على وجه الخصوص، الشخصية العامة في أخبار

(1) Here take my picture, and let me wear thine.

(2) J. Parks, *History, Tragedy, and Truth in Christopher Marlowe's «Edward II»*, in «studies in English Literature, 1500-1900», 39, 1999, 2, pp. 275-290, p. 282.

(3) D. Stymeist, *Status, Sodomy, and the Theater in Marlowe's «Edward II»*, in «studies in English Literature, 1500-1900», 44, 2004, 2, pp. 233-253, p. 235.

(4) Parks, *History, Tragedy, and Truth in Christopher Marlowe's «Edward II»* cit., p. 283.

تلك الأيام الأقرب من الأحداث، الشخصية الأهمّ بعد عودتها إلى إنجلترا على رأس جيشٍ أجنبي، عندما قادت البارونات الذين أرادوا التخلص من الملك. وعلى العكس، في دراما مارلو، فإن دور إيزابيللا في سقوط الملك لا يبدو واضحاً: فهي في الدراما تعتزل في الغابة لتواجه وحدها ألَمَها، بدلاً من أن ترى إدوارد وقد طردته الثورة المدنية. وسيقنعها روجر مورتيمر، عشيقها، بالعودة إلى البلاط: تؤكد علاقتهما نظرية مارلو، بأن ما يحدث في الساحة السياسية تحدده الاندفاعات العاطفية الخاصة. يؤكد مارلو باستمرار قدرة مورتيمر على الساحة العامة، بأن يعلي من سيطرته الجنسية والعاطفية على الملكة، فيصنع بذلك من إيزابيللا ضحية سواء للملك -الذي كان يخونها جنسياً- أو لحبيبها الذي يتحكم فيها: قراءة أشدّ «نسائية» للشخصية الرئيسة في الحدث، فهي لا تثير القلق كثيراً[1].

أُقيم احتفال إدوارد وإيزابيللا في بولوني-سير-مار في الخامس والعشرين من يناير 1308م. كانت الزيجة من ترتيب البابا بونيفيس الثامن عام 1298 لضمان السلام بين المملكتين، ولكنها لم تحقق الهدف المرجو. فشل مشروع البابا بونيفيس الثامن، الذي شاركه فيه كثيرون آخرون، وكان السبب الأول لهذا الفشل أن الإقطاعيات الإنجليزية في فرنسا كانت سبباً في الصراعات المستمرة: لم يكن لأي ارتباط بالزواج أن يحل المشكلات الناتجة عن خضوع دوق، وقد كان بدوره ملكاً لملك آخر. إن إمكانية منح الدوقية لوريث من الدم نفسه لكليهما، يقدر على إزالة الصراعات، لم تنجح في معالجة الانحراف الذي يسبّبه القيد الإقطاعي وهو يفرض وجوب أن يكون ملكٌ أقل في المرتبة من الآخر. وليس ذلك فقط، فالروابط العائلية تضيف أسباباً خاصة للصراعات على السلطة الموجودة بالفعل[2]، وخاصة بسبب العلاقة

(1) *Ibid.*

(2) E.A.R. Brown, *The Political Repercussions of Family Ties in the Early* =

بين إدوارد وعشيقه غافيستون، الذي كان يُقال إن الملك قد منحه الهدايا الثمينة التي تلقاها من حميه عندما تزوج بإيزابيلا، وقد كانت طفلة في تلك الفترة. على الرغم من ذلك تم الزواج على الفور[1]، ولكن لا يبدو أن ذلك قد أثّر بشكل سلبي في العلاقة الزوجية، إذ كانت علاقة جيدة في بعض الفترات. الخلاصة أن السبب الذي أفشل تلك الوحدة، وأحبط مشروع بونيفيس الثامن، كان الإقطاعيات الإنجليزية الموجودة على الأراضي الفرنسية[2].

لا توجد وثائق ملموسة تروي كيف تصرّف إدوارد الثاني عند عزله: المصادر الوحيدة هي ثلاثة أخبار معاصرة، ومرثية إدوارد الثاني. كانت الأخبار تمثل ألم الملك وندمه، وكذلك آماله من أجل ابنه. خبران منها مختصران جداً بينما يقدم الخبر الثالث عنصراً ثالثاً. الكاتب هو آدم موريموث (Adam Murimuth)، وقد كان موظفاً في البلاط في أربعينيات القرن الرابع عشر؛ وهو من يُرجّح أن تكون لديه معلومات مباشرة عمّا كان يُقال في ذلك الوسط. يشير موريموث إلى بكائيات الملك ومآسيه وندمه على الرغم من ارتياحه لتنصيب ابنه ليخلفه في الحكم. كان ذلك الخبر مكتوباً في فترة معاصرة للمرثية. أما الأخبار التالية لذلك، والتي تأثرت ربما بهما، فقد بالغت في وصف ألَم الملك وندمه على الأخطاء التي ارتكبها لأنه اتبع النصائح السيئة، ووصف رغبته في أن يُقدِّم حياته للمسيح لخير ابنه، وأن يموت ليضع حداً لعذابه[3].

إن «مرثية إدوارد الثاني» يمكن أن تكون نتيجة للتأثر بالدعاية الرسمية، ولكنها لم تُدوَّن بطريقة فردية، مثل كتابات أخرى تم تأليفها لمصلحة إيزابيلا

= *Fourteenth Century: The Marriage of Edward II of England and Isabelle of France*, in «speculum», 63, 1988, 3, pp. 573-595, pp. 573-574.

(1) Ivi, pp. 582-583.

(2) Ivi, p. 589.

(3) C. Valente, *The «Lament of Edward II»: Religious Lyric, Political Propaganda*, in «speculum», 77, 2002, 2, pp. 422-439, p. 428.

وروجر مورتيمر[1]: على الرغم من أن المؤلّف يشارك في وصف ردود فعل الملك تجاه عزله، فإنه ينتقده بشدّة وينتقد كل من منحهم الملك الهبات بسخاء، وكل من أحبه. يرثي إدوارد بخاصة خيانة إيزابيلا «العادلة» الجميلة التي كان ينتظر منها الإخلاص التام[2]. توجد العديد من النسخ لمرثية إدوارد الثاني، ونسخة السِير فرانسيس هوبيرت (Francis Hubert): «**الحياة التعسة لإدوارد الثاني ملك إنجلترا، ثم موتُه، وكذلك سقوط محظييه التعسين، غافيستون وسبنسر، قد رَوَتها قصيدة شعرية رائعة**».

وقد نُشرت عام 1628، وهي تُركز تركيزاً شديداً في مساوئ إيزابيلا:

في مخالب النمور رحمةٌ أكثر
وفي لسعة العقارب سمٌّ أقل
في كفّ الأسود الجائعة شفقة
تتسبب عينا البازيليسك في رعب أقل
إنها كنداء الضباع على العابرين
وأنفاس الأرقط، ودموع التماسيح الكاذبة[3].

(1) مثال متأخر، يتبع نماذج الأزمنة الدعائية لإيزابيلا ومورتيمر، وينتهي بإخراج السلطة المضطربة بسبب ممارسات اللواط لإدوارد، هو كتاب درايتون:
Mortimeriados. The Lamentable Ciuell V varres of Edward the Second and the Barrons (1596), di Michael Drayton (1563-1631)
حيث الإشارة للملك بـ«إدوارد الثاني ولكن الأول في العار». ويحكي عن استيلاء إيزابيلا على السلطة «تلك المرأة الفاضلة بالفعل»، وعن عشيقها، يمدح درايتون شجاعة مورتيمر الذكورية: لم يكن تدفق رجولته يحتمل عشاق أفروديت التافهين، أنصاف النساء المبتليات بالضعف، سيئات السمعة، الفاسدات وسريعات الغضب.

(2) Valente, *The «Lament of Edward II»* cit., p. 431.

(3) There is more mercie in the Tigers Clawe/Lesse venome in the Scorpions sting doth lie/more pittie in the hungry Lions pawe/ less danger in the Basiliske his eye,/Hyaena that doth call the goers by/The Panthers breath and the Crocodiles false tears.

نشر المؤلّف نفسه في العام التالي قصة عن إدوارد، يصف فيها على لسان الملك نفسه بكلمات مشابهة، قسوة عشيق الملك[1]. وتوجد نسخة تالية متأخرة، تتوقف كثيراً عند عشق إدوارد لغافيستون، واصفاً إياه بنبرة تعاطف، مخففاً من الإدانات الأخلاقية للواط الملك، وكتب في سخرية شعرية «من لا يستطيع كبح مشاعره، لن يستطيع أن يعيش: الأفضل له أن يموت». وعن الكلمات التي كانت إيزابيللا تتوجه بها إلى ملك فرنسا طلباً للمساعدة، كما في حالة مارلو: فالموقف مهين للملكة، ولكن الأهم أنه خطر على سلامة إنجلترا واستقرارها وعلى تولّي إدوارد الثالث العرش بسبب «بؤس» المؤيدين[2]. وكانت أغنيات توماس ديلاوني تلقى ترحيباً شعبياً. وكان منها نسخ متعددة ظلت في الذاكرة الشعبية. الأغنية الشعبية السادسة كانت «أغنية **الملكة إليزابيث، زوجة الملك إدوارد الثاني، وهي تحكي كيف أجبرتها عائلة سبنسر على الخروج من إنجلترا مع ابنها البكر، الأمير إدوارد، لتطلب الغوث من فرنسا، وما حدث لها أثناء رحلتها**».

يتمّ تقديم إيزابيللا في هذه النسخة على أنها هي من حكم على سبنسر -بتهمة الخيانة، شنقاً وتقطيعاً- إنها هي من قامت بعزل زوجها وإنقاذ عرش ابنها، وليس ثمة إشارة إلى مورتيمر.

(1) F. Hubert, *The historie of Edward the Second, surnamed Carnarvan, one of our English kings together with the fatall down-fall of his two vnfortunate favorites Gaveston and Spencer: now published by the author thereof, according to the true originall copie, and purged from those foule errors and corruptions, wherewith that spurious and surreptitious peece, which lately came forth vnder the same tytle, was too much defiled and deformed: with the addition of some other observations both of vse and ornament*, 1629.

(2) *The History of the life, reign, and death of Edward II, King of England, and Lord of Ireland with the rise and fall of his great favourites, Gaveston and the Spencers / written by E.F.[Sir Henry Care Falkland] in the year 1627, and printed verba tim from the original*, 1680.

الفصل الثالث

ملكات طالحات وأُخَر صالحات

1. البحث عن الاستقرار السياسي و«الفوضى» النسائية

انطلاقاً من القرن الخامس عشر، تضاءلت فرص النساء في الحصول على مواقع قيادية أو توارثها، سواء فيما يتعلق بعملية تجميع المقاطعات الحادثة على الصعيد الأوروبي، أو ما ارتبط -فيما بعد- بتأكيد حكم العائلات الملكية كعنصر لضمان الاستقرار السياسي، أو ما يتصل -في نهاية الأمر- بالأهمية التي عهدت إلى السلطة الملكية بحصولها على حقّ التشريع. وفي الثقافة القانونية للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، كانت الأطر الخاصة والعامة والجنائية مرتبطة ومتناقضة: كان يتمّ الانحراف عن التباين في طرق التفكير عنه بوساطة تأكيدات بديهية تكتسب مصداقيتها بطُرقٍ متبادلة. وعلى سبيل المثال فقد كان الأخلاقيون والقضاة، والمفكرون والساسة، يوصون بسلوك الحماية تجاه النساء، بسبب ضعفهنّ الشديد الذي كان يبرّر استبعادهنّ من الساحة العامة، ولكن ذلك لم يكن يعفيهن من الأحكام الجنائية القاسية: وهو تناقض ظهر بوضوح في نهاية القرن الخامس عشر، في جوّ من عدم الاستقرار كان قد حدث كردّ فعل لأحداث استثنائية

(بداية من اكتشاف الكوارث العالمية الجديدة إلى الانقسام الديني)، وقد جرت مواجهته في الإطارين الاجتماعي والعائلي بتعزيز التقليد الكلاسيكي الكتابي، الكنسي والأبوي المعادي للمرأة. وقد سمح باستعادة هذا التقليد تضاربُ أدوار المرأة وخاصة في الثقافة التشريعية. كان يمكن، في كل وقت، العودة إلى التركيز في عدم قدرة النساء وضرورة حمايتهن، وذلك لإنكار أي نوع من الاعتراف باستقلالهن، وبالتالي منحهن الأهلية بشكل كامل[1].

بل إن الحدود التي فُرضت على النساء من السلالات الملكية والشهرة التي اكتسبتها أولئك النساء لدى المعاصرين والسابقين، قد اعتمدت على استعداد الملكات لقبول النماذج النسائية التي كانت تُعدُّ مناسبةً لمرتبتهن الاجتماعية، وبشكل حاسم على قدرتهن على الانسحاب، وفي الأقل بأن يتمّ اختيارهن كواجهة، وإخضاع صفاتهن كملكات للاعتماد على أدوارهن كزوجات. وفيما يتعلق بالمنع من وراثة الإقطاعيات، أُستُعيدت المجادلات التي صاغها بالدو الأوبالدي في القرن الرابع عشر (عدم قدرتهن على حمل السلاح، قلّة الرشد، والكذب، إلخ)، والتي كانت تجد معارضات بسيطة. كان جيرولامو غارزوني (Girolamo Garzoni) صوتاً منعزلاً في قلب القرن السادس عشر، في بحث نُشر عام 1581م، يؤكد أن استبعاد النساء من وراثة الإقطاعيات لم يكن له أي أساس، ولم يكن سوى إجراء بُني على الاعتياد؛ ولكنه لم يقترح أي تعديل في التقاليد. في الواقع، ثمة مؤلف آخر، وهو غريغوريوس رولباغ (Gregorious Rollbag)، الذي واجه في بدايات القرن السابع عشر مشكلة حقوق النساء الوراثية، مقارناً بين حالات في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا، واختتم مقاله بأن القليل من الأسباب يمكن أن يكون ذا سند قانوني: كانت الغالبية العظمى من الكتّاب تقتصر في كتاباتها على الأشياء المعروفة المأخوذة

(1) M. Graziosi, *Infirmitas sexus. La donna nell'immaginario penalistico*, in «Democrazia e diritto», 2, 1993, pp. 99-143.

من نماذج تمت معالجتها من الأدب اللاهوتي أو الطب أو التاريخ، بغرض الإجابة عن السؤال البلاغي: ما إذا كان يجب اعتبار النساء أعلى شأناً أو أقل شأناً من الرجال[1].

في الواقع ليس أمراً مفاجئاً أن الأبحاث قد اهتمت بتهذيب دور النساء في الزواج باللجوء إلى نماذج من الكتب المقدسة، ومن الأدب الأخلاقي والعلمي. كانت المعرفة الطبية، بصفة خاصة، تؤكد فكرة ضعف المرأة الجسدي والنفسي، وكانت تبريرات عزلها من مجال الوظائف العامة والأعمال القانونية، أو مركزية الزواج لتأكيد الوضع الاعتمادي للنساء، تستند كلها على ضعفهن «الطبيعي».

كانت العادات والتقاليد الاجتماعية تدعم عناصر الغموض المرتبطة باستعادة التقليد الرومانسي، وذلك بخلطه بالعناصر التمييزية في الحقوق[2]. فقد كتبت ناتالي زيمون ديفيز أن التبادل الرمزي للأدوار الجنسية تم تفسيره على أساس خبيث من نزع الشرعية ومعاداة القدرة النسائية. في الواقع تم نشر صورة المرأة الفوضوية منذ نهاية القرن الخامس عشر وذلك لتأكيد الترتيب الهيكلي للأدوار العائلية وتقويته، وليس هذا فحسب، بل إن «عالم العائلة الصغير، في توتره الواضح بين الخصوصية والسلطة، كان يُقدَّم [...] رمزاً فورياً للمشكلات الخاصة بالترتيب السياسي والاجتماعي الأكثر امتداداً»[3]. تمّ تخصيص إشارة واحدة فقط للتحوّل المنتظم للسلطة النسائية: «كان ممنوعاً أن تحكم امرأة في فرنسا بقوة القانون السالي، وكانت تتمّ السخرية من هذا

(1) I. MacLean, *The Renaissance Notion of Woman: a Study in the Fortunes of Scholasticism and Medical Sciences in European Intellectual Life*, Cambridge University Press, Cambridge-NewYork 1980, pp. 71-75.

(2) Ivi, pp. 76-81.

(3) N. Zemon Davis, *Le culture del popolo. Sapere, rituali e resistenze nella Francia del Cinquecento*, Einaudi, Torino 1980, p. 178.

الأمر باستخدام المثل الشعبي «السقوط على المغزل». كان الكاهن جون نوكس (John Knox) يعتبره «نظاماً وحشياً»، و«تخريباً للنظام الأصلح [...] لكل مساواة وعدل»، بينما عدّه كالفن، الأعدل «أحد ابتلاءات غضب الله» التي علينا احتمالها في صبر مثل أي طغيان آخر»[1]. ولا يجب أن نندهش، إذ أن القرن الخامس عشر بصفة خاصة شهد إعادة اكتشاف القانون السالي، وتأكيد تبنيه لوضع نهاية لأي توريث نسائي. لم يكن ذلك القانون، نافذاً سواء في القرنين السادس عشر أو السابع عشر في مواجهة تقلبات القدر التي كانت تضع في الحكم البنات الوحيدات اللواتي نجين من بين ورثة سواء قلّ عددهم أو كثر. من المهمّ إذن أن ننتبه إلى الميول التي ظهرت في أبحاث القائمين على التشريع، ولكن بالأخص إلى ربطها بالوضع السياسي في القرن الخامس عشر والعقود الأولى للقرن السادس عشر.

لاحظتْ فاني كوساندي، فيما يتعلَق بتأكيد القانون السالي في فرنسا، كيف أن استبعاد النساء عن الحكم كان قد تمّ تبريره بفترة طويلة من عدم الاستقرار، انتهت فقط عام 1453م، بانتهاء الحروب مع إنجلترا وبتعزيز نفوذ السلالة الملكية لعائلة فالوا، التي نجحت في فرض سيطرتها على الإقطاعيات، وقد كانت في البداية في قبضة الإنجليز. تؤكد كوساندي من هذا المنظور أن القانون السالي لم يكن بالنسبة إلى النساء قانوناً سلبياً فقط: ففي سياق تطبيقاته، دعَمَ هذا القانون وضع الملكات الأرامل، واللاتي تم تعيينهن، للمرة الأولى بحكم القانون، في وظيفة الوصيات على الحكم في حالة الأبناء القصّر من ورثة العرش[2]. بناء على ذلك، فإذا كانت التضحية بالبنات قد تمت في سبيل

(1) Ivi, p. 176.

(2) F. Cosandey, *De lance en quenouille. La place de la reine dans l'État moderne (XIVe-XVIIe siècles)*, in «Annales. Histoire, sciences sociales», 52, 1997, 4, pp. 799-820.

استقرار الدولة وجرى استبعادهن من وراثة العرش، فإن النساء بصفة عامة، والأمهات بصفة خاصة، اكتسبن دوراً لم يكن لهن من قبل، أو على الأقل لم يكن معترفاً به على الإطلاق، وليس ذلك في فرنسا فحسب. وهو دورٌ كان يجب أن يتحولَ إلى دور غير ضار، لما كان له من ملامح مثيرة للقلق، وذلك من خلال عزله في العالم التخيلي. وقد كُتب أن:

صفحات كتب عصر النهضة تضجّ بنساء مسلحات وخطرات، يمثلن الانقلاب الجنسي في الحكم، ويُثِرْنَ الخوف والإعجاب في آن [...]. يمكن أن يثير الدهشة وجود مثل هذا الحشد الهائل من النساء– الرجال (النساء اللاتي يتصرفن كالرجال) في الأعمال الأدبية. والأكثر إثارة للدهشة هو أن تلك الشخصيات النسائية كان لها وجود أيضاً في الواقع: ففي قرون عصر النهضة أثارت اثنتان من العذارى، معروفتان لدى الجميع وهما –جان دارك التي قادت جيشاً وإليزابيث تيودر التي قادت أمّة بأكملها– مشاعر مختلطة من الخوف والإعجاب، مثل أمازونيات على قيد الحياة[1].

يمكننا أن نضيف أن الشيء الفريد والمتميز هنا هو أن النقل السياسي من جهة والعرض الأدبي والرمزي لتلك الشخصيات من جهة أخرى، قد أخفى، لفترة طويلة، حقيقة العديد من الأمثلة، في القرن السادس عشر، وفي القرون السابقة وتلك التالية، لنساء كان يصعب الاعتراف بقدرتهنّ المستقلة على اتخاذ قرارات سياسية، فجرى اعتبارهن، بلا أي دليل واضح، ظواهر مثيرة للقلق ومخلوقات شيطانية (كما في حالة المحاربة جان دارك)، أو

(1) M. King, *Le donne nel Rinascimento*, Laterza, Roma-Bari 1991, pp. 220-221.

مستشارات ووصيات على الحكم يقودهن «حب الأم» فحسب[1]. كانت في الواقع أولى تلك الدراسات الأحادية التي عالجت موضوع سلطة النساء في عصر النهضة والتي تحدثت عن حكم النساء (*Queenship*) من خلال تقديم نموذج حكم مارغريتا بوفور (Margherita Beaufort)، تفسّر النجاح السياسي للملكة وتأثيرها، لا فقط بقدراتها الفردية المتميزة بل بالأحرى لما لها من قوة «طبيعية» نابعة من حبها كأم[2].

تبقى في الخلفية حادثة لا أهمية لها، وهي أن مارغريتا بوفور نجحت في وضع نهاية لحرب الوردتين بفضل قدراتها كمفاوِضة ومحارِبة. كانت عادة استخدام السلاح غير منتشرة، ولكنها لم تكن فريدة في أوروبا التي شهدت حروب جان دارك، والتي شهدت أيضاً في نهاية القرن الخامس عشر في إيطاليا كاترينا سفورتسا (Caterina Sforza)، وهي تصارع على دولتها الرومانية الصغيرة أمام شيزاري بورجا (Cesare Borgia) وحلفائه الفرنسيين.

ثم إن المثير للدهشة، بالنسبة إلى مارغريتا، أن كينغ تعتبرها مخادعة، بدلاً من أن تطلق عليها صفة سياسية أكثر نبلاً وملاءمة:

«كانت طموحة وذكية، [...] تتآمر باستمرار لتضعَ ابنها الوحيد، الذي أنجبته في سن الرابعة عشرة، على العرش، الفرحة الوحيدة التي تتمناها في هذا العالم»[3].

إن حبها تجاه من سيصبح في المستقبل هنري تيودر السابع، هو بالتأكيد

(1) Ivi, pp. 24-29.

(2) M.K. Jones, M.G. Underwood, *The King's Mother. Lady Margaret Beaufort Countess of Richmond and Derby*, Cambridge University Press, Cambridge 1992.

(3) King, *Le donne nel Rinascimento* cit., p. 27.

أحد ملامح شخصية الملكة، ولكنه ليس أكثر العناصر التي يمكن من خلالها تقييم الدور الذي لعبته في المراحل الأخيرة من حرب الوردتين: إن الأمر الحاسم الذي يفسّر عمل مارغريتا هو واقع أنها كانت قد وُضعت في وضع السلطة بشكل مستقل، بحق الميراث، حيث كانت من سلالة جون دي غانت (John di Guant)، دوق لانكاستر. عرفت مارغريتا كيف تستخدم تميزها هذا ببراعة، من خلال بناء تحالفات في مصلحتها وتدعيمها، في فترة من أكثر فترات عدم الاستقرار في تاريخ أوروبا؛ واستطاعت في واقع الأمر أن تضع الأسس لتأكيد حكم عائلة تيودر الملكي، وهو أمر مُعترف به حالياً كتجربة لا بد من تقييمها على مستويات التاريخ السياسي وليس على المستوى «النسائي»، الخاص بالمكائد.

في هذه الحالة أيضاً، كما حدث في حالات أخرى دفعت فيها الظروف بالنساء إلى أن يلعبن أدواراً حاسمة في الظروف السياسية، حورت الدعاية المعاصرة صفات مارغريتا سواء بالمدح أو بالذم من قبل خصومها. في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وبجوار الاحتفال بمارغريتا بوفور كامرأة متفوقة على بنات جنسها، انتشرت إشاعة بأنها كانت امرأة تمارس الأعمال السحرية. وكما حدث لمعاصرات لها كثيرات أخريات، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، كنّ يمارسن دوراً سياسياً مهماً، فإن أنشطتها اعتبرت مثيرة للشك والريبة؛ واُتّهمت بصفة خاصة بأنها قضت على كل المطالبين بالعرش الذين كانوا يعوقون نجاح ابنها، وذلك باستخدام سموم وطقوس سحرية. استُعيدت صورة الأم المناورة مرة أخرى في القرن السادس عشر بوساطة السير فرانسيس بيكون[1]، ثم طغى بعد ذلك التقليد الذي جمدها في دور

(1) F. Bacon, *History of the Reign of King Henry the Seventh*, a cura di R. Lockyer, Folio society, London 1971, p. 130. والاستشهاد من Underwood, *The King's Mother* cit., p. 4.

راعية الثقافة التقية[1]. وفي تنوع آخر لصورة «الملكة الشريرة»، تلك الصورة الخاصة بآن بولين لحظة سقوطها في البؤس، عام 1536م، نجد الاتهامات نفسها المسيئة للسمعة التي كان الخصوم يلجؤون إليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لنزع الشرعية عن تأثير النساء السياسي: ليس فقط من خلال تهمة الخيانة، بل كذلك السفاح والسحر[2].

وإنه لأمر حقيقي، كما تؤكد فاني كوساندي، أن سلطة الأمهات قد أصبحت رسمية تقريباً في كل مكان؛ ولكن بينما صار الحكم الملكي جامداً في إطار التثبيت الأيقوني للرمز -إذ بات قمة النظام، وتجسيد السلطة، وضمان العدل، الممسوح من الرب- فإن وظيفة الملكة الوصية، التي لم تكن قد تم تقديسها بالطقوس المخصّصة لذلك، ولم «ينفصل» شخصها رمزياً عن واقعها الجسدي، كانت تظل هدفاً للهجمات، التي تظهر، بشكل خاص، في إهانة جنس المرأة. من ناحية أخرى فإن وصول المرأة إلى السلطة، وبسبب الضعف المؤسسي للحكم بالوصاية، كان يتطلب القدرة على تكوين تحالفات، وتجميع تكتلات في البلاط للدعم واكتساب السطوة. وإضافة إلى أفراد عائلة الملك، كان على الحاكمات بالوصاية، الارتباط بالعائلات القريبة من المملكة من النبلاء الكبار للدخول، بهذه الطريقة، إلى آلية صراعات السلطة.

على كل حال، فإن المبالغة في تلك الاختلافات التي تمجّد قداسة الملك، كانت حديثة نسبياً: بالنسبة إلى طقس «الخواتم المداوية» التي يتمّ تقديسها للملوك. كتب مارك بلوخ عام 1924 «حوالي منتصف القرن الخامس عشر، كان طقس «الخواتم المداوية» قد اتخذ طابعاً جديداً، واتخذ دور الملك أهمية أكبر مما سبق [و] نسي الجميع كيف أن الملكات كنّ يقمن بهذا الدور بكل

(1) Jones, Underwood, *The King's Mother* cit., pp. 171 sgg.

(2) R.M. Warnicke, *The Fall of Anne Boleyn Revisited*, in «English Historical review», n. 108 (1993), pp. 653-665.

كفاءة»[1]. والجدير بالذكر أيضاً هو واقع أن معاهدة «*Du Sacre du Roy de France et de la Royne*»، المكتوبة عام 1372، قد نُشرت في الصحف، فانتشرت على نطاق واسع عام 1503م: وفي الفقرة المخصصة لتصعيد الملكات، كان ثمة تأكيد استبعادهن من توريث الحكم، ومن القدرة على شفاء الأمراض فهن لم يخضعن قطّ لطقوس المسح المقدسة[2].

2. «النساء» الإيطاليات في القرن الخامس عشر

أكدت كريستين دو بيزان (Christine de Pizan)، التي عاشت بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، في كتاباتها، قدرة النساء على القيام بأي دور. وهي نفسها، ككاتبة، كانت أفضل مثال على ذلك. والأمر يشمل أيضاً حكم الدول وحمل السلاح، كما أثبتت ذلك معاصرتها جان دارك. وفي ظل نظام التوازنات المعمول به في إيطاليا منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى نهايته، كان التأثير الذي حظيت به النساء في البلاط يعتمد على التشابك بين الوظائف العامة والوظائف الخاصة للعائلة الحاكمة، وعلى شبكة التحالفات التي يشاركن في نسجها. في مانتوفا، وعلى التصوير الجصي في غرفة زوجي مانتينيا (Mantegna)، تظهر باربارا دي براندييورغو (Barbara di Brandeburgo) في مركز المشهد. كان بإمكان النساء في وضعها الحكم بدلاً من الأزواج، والحفاظ على مصالح الأبناء والأسرة الحاكمة. إن الدور السياسي الذي كان بإمكانهن تغطيته في الاستراتيجيات الخاصة بالزواج وأدوار «الرعاية»، كان يعرّضهن للمدح والنقد أيضاً. كانت توصياتهن تنتقل من بلاط إلى آخر، بطريقة أفقية، عن طريق النساء، كإعلان

(1) M. Bloch, *I re taumaturghi*, Einaudi, Torino 1989, p. 134.
(2) Ivi, p. 382.

دور «الخدمة» بين زوجات السادة المحليين، وكانت تلقى استحساناً من الرجال. فقد كانت «الرعاية» النسائية تُشكّل نوعاً من التنقية والوساطة لما يقوم به الرجال من رعاية.

كان الدور الذي أدته بيانكا ماريا فيسكونتي (Bianca Maria Visconti)، في الحكم واضحاً جدّاً، فقد كانت وريثة دولة ميلانو، وكان هذا هو منصبها بالنسبة إلى قرينها فرانشيسكو سفورتسا (Francesco Sforza). حكَمَ فرانشيسكو سفورتسا ميلانو كقرين لبيانكا ماريا، بينما كان لقبه هو سيد بيزارو. لم تحكم بيانكا ماريا مباشرة، ولكنّ دورَها كسيّدة للمدينة تمّ التعبير عنه باختيارها كراعية للفنانين وممولّة لمشاريع العمارة الدينية. كانت اختياراتها، أيضاً في تلك المجالات، تتراوح باستمرار بين الرغبة في إظهار سلطتها السياسية الخاصة، وإخلاصها لعائلة سفورتسا؛ كان التناقض يتمثل في الرقم المتزن للأديرة والمشاريع الدينية، والتمثيل الرمزي لكل منهما كراعيين. وكان اختيار الاحتفاظ بسلطة في العائلة قد أعاقه الأبناء، فقد ألغى غالياتزو ماريا (Galeazzo Maria)، اسمَ أمّه من الوثائق الرسمية. كما أنها عندما دعاها كوليوني (Colleoni) لتولّي السلطة، اعتزلت في كريمونا[1].

رأست باتيستا الأولى دي مونتيفيلترو (Battista I di Montefeltro) دوقية كاميرينو لمدة ثلاثة أعوام بدل زوجها؛ وباتيستا الثانية منحها زوجها تفويضاً واسع الصلاحيات؛ وجوفانا دا مونتيفيلترو (Giovanna da Montefeltro) حكمتْ أيضاً لفترة معينة. كل أولئك النساء تمت تربيتهن بحيث يصبحن قادرات على إتقان فن الخطابة لأغراض سياسية. والأهم هو أن أعمالهن لم تكن تُعدّ استثنائية أو مثيرة للاستياء. أنطونيو كورناتزانو (Antonio

(1) E. Welch, *Women as Patrons and Clients in the Courts of Renaissance Italy, in Women in Italian Renaissance Culture and Society*, a cura di L. Panizza, European Humanities Research Center, University of Oxford 2000.

Cornazzano) مثقفٌ، كان يكتب نصائح للسيدات في مواقع السلطة، انضمّ في منتصف القرن الخامس عشر لخدمة عائلة سفورتسا، وقد بقي فيها حتى موت فرانشيسكو. بعد ذلك انتقل إلى البندقية ومنذ عام 1475 حتى موته عام 1484م، عمل لدى إيركولي الأول ديستي (Ercole I d'Este). تضمّ مجموعة أعماله الضخمة أربعة مجلدات على الأقل موجهة إلى نساء في السلطة. وتشكل تلك الإهداءات طلبات رعاية، وتقريباً على المستوى نفسه وكتعبير رمزي للإهداءات للرجال المهمّين، وتؤكد أعماله أن النساء كنّ بالنسبة إليه وسائط أفضل للحصول على عطايا. في «كتاب فنّ الرقص» يتوجه إلى إيبوليتا سفورتسا (Ippolita Sforza)، زوجة ألفونسو الأراغوني (Alfonso di Aragona)؛ التي أهدى إليها كورناتزانو أبياتاً مغرقة في مديح فضائلها واهتمامها بالدراسة والرقص. كان الهدف في الحالتين اكتساب حظوة لدى أمها بيانكا ماريا فيسكونتي ودعم وضعه في بلاط ميلانو[1].

وكان كتاب «نساء رائعات»، المقدّم إلى النساء الأكثر استحقاقاً للإعجاب، مُهدى مباشرة إلى بيانكا ماريا؛ ولكن ربما كان كورناتزانو قد ترك ميلانو قبل الفراغ منه. والعملُ عبارة عن كتالوغ تقليدي، ولكنه مفيدٌ لنفهم لماذا اختار هذا الموضوع، أو لماذا هذه المرأة، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا العمل كان جزءاً من عمل آخر فُقد؛ حول نسب بيانكا ماريا من الناحية النسائية. لقد تمّ التعبير عن هذه الخاصية بوضوح أشدّ في عمل أكبر «عن

---

(1) عن بيانكا ماريا فيسكونتي ومعاصراتها يمكن الاطلاع على فيرينتي:
S. Ferente, «*Naturales Dominae*»: *Female Political Authority in the Late Middle Ages*, in *Women Rulers in Europe. Agency, Practice and the Representation of Political Powers (XII-XVIII)*, a cura di G. Calvi, EUI Working Papers, HEC n. 2008/2, pp. 45-61, http://www.academia.edu/1791360/Women_Rulers_in_Europe_Agency_Practice and_the_Representation_of_Political_Powers_XII-XVIII_.

الحكم وطرق الوصاية على الحكم»، الذي ألفه في فيرارا، تقريباً عام 1478، وتم نشره عام 1517م. قدّم المؤلف في هذا الكتاب إيليونورا داراغونا ديستي، وقد أهداها إيّاه، على أنها المعنية بالحصول على سلطة انتقلت إليها عن طريق النساء، من خلال خط السلالة، من جدتها لأمها بيانكا ماريا فيسكونتي[1].

إن التوسع ووضع الحدود للسلطة النسائية في المقاطعات الإيطالية في منتصف القرن الخامس عشر، والتشابك بين البُعد الخاص والبُعد السياسي لعلاقة الصداقة «المؤسَّسة على روابط الحرب والزواج»، قد تم تمثيلها في دراسة المراسلات بين بيانكا ماريا وباربارا دي براندبورغو.

عام 1450م، قام زوج باربارا المسمى لودوفيكوو، بتوقيع عقد حربي أو «إداري» مع فرانشيسكو زوج بيانكا [...] لمواجهة البندقية المعتدية، وكان دعم مانتوفا شيئاً حاسماً للحفاظ على وضع سفورتسا، وقد تم الحصول عليه مؤخراً. إضافة إلى ذلك فإن علاقات باربارا مع ألمانيا منحت سفورتسا الأمل بإقناع الإمبراطور أن يعهد إليه بالاستثمار في ميلانو، فيصبح للَقب الذي حصل عليه بالزواج وبالغزو أحقية [...]. قرّبت المرأتان –بلا شك– بين الزوجين من خلال الجهود المشتركة للتوسط في الخلافات التي نتجت، [...]. وعندما أخذت العلاقات بين مانتوفا وميلانو في التدهور، بذلت بيانكا أقصى جهودها لتؤكد النوايا الطيبة تجاه عائلة غونزاغا.

عند موت فرانشيسكو، وقبل أن تعتزل في كريمونا «كان عليها الدفاع عن الدولة ضدّ الرعايا المتمرّدين والمرتزقة الباحثين عن الحظ»: لجأت إلى لودوفيكوو غونزاغا، الذي وافق في نهاية الأمر على توقيع اتفاقية حربية جديدة[2].

(1) D. Zancani, *Writing for Women Rulers in Quattrocento Italy: A. Cornazzano*, ivi, pp. 57-74.

(2) E. Ward Swain, *Il potere di un'amicizia. Iniziative e competenze di due* =

وبداية من تلك الفترة إلى عقود قليلة لاحقة سيتمّ محو ذكرى الحكم النسائي وشبكة العلاقات السياسية–الدبلوماسية التي كونتها ارتباطات الزواج والعلاقات بين النساء. بدت الحقوق التي دُعمت عام 1499 على طريقة ميلانو من قبل لويس الثاني عشر كوريثٍ للجدة فالينتينا فيسكونتي (Valentina Visconti) بالنسبة إلى إيرازموس عام 1517م «[...] مبتذلة وبلا قيمة»[1]. وفي نهاية القرن الخامس عشر لم تعد سياسة صلة القرابة –كنظام سريع لتبادل النساء ومميزات السلالات الحاكمة– تعمل كضمان للاستقرار السياسي. كان الارتباط الوثيق بين العلاقات العائلية وعلاقات السلطة، وبين تحالفات الدول والوحدة المادية بين الأفراد من خلال الزواج، ينعكس على اللغة والاستعارات التي كانت تُعبّر عن أزمة هذا النظام. وغالباً ما تصادَف انقطاع التوازنات السياسية وانقطاع اتفاقات الزواج، وأمّا في المراسلات والعلاقات الدبلوماسية مثلما هو الحال في الوصف الذكوري، فإن «الفوضى» نتجت بسبب «عيب» نسائي: كان السبب في فسخ المعاهدات هو رفض الجسد المشوّه للمرأة، القبيحة، الحدباء العقيم. يمكن أن نرى، على سبيل المثال، حالة لويس الأرليوني الذي حصل من البابا إسكندر السادس

= *nobildonne rinascimentali*, in «memoria», 21, 1987, pp. 7-23.

إن شبكة العلاقات المنسوجة في البلاطات الإيطالية في القرن الخامس عشر الميلادي من خلال الزيجات أوسع بكثير من تلك الأمثلة التي أشرت إليها هنا. على الأقل لا بد من ذكر بلاط غونزاغا لإيزابيلا ديستي، التي عُرفت على مستوى كبير بسبب دراسات ماريا بيللونشي، ولكن هناك دراسات حديثة استطاعت أن تلقي الضوء على العديد من حالات البطولات للنساء في عائلة سفورتسا في جنوب إيطاليا. سأذكر منها فقط الدراسات التالية:

T. Mangione, *Una milanese alla corte di Napoli. Ippolita Sforza principessa d'Aragona*, in *In assenza del re. Le reggenti dal XIV al XVII secolo (Piemonte ed Europa)*, a cura di F. Varallo, Olschki, Firenze 2008, pp. 361-453 e G.Cioffari o.p., *Bona Sforza donna del Rinascimento in Italia e Polonia*, Levante Editore, Bari 2000.

(1) Erasmo da Rotterdam, *Il lamento della pace*, Einaudi, Torino 1990, p. 42.

على إذن بأن يُطلّق زوجته جوفانا، أخت شارل الثامن وابنة عمه «العقيم والمتوحشة التي زوّجها له بالإكراه أبوه لويس الحادي عشر»[1].

إن التركيز السلبي على «الطبيعة» النسائية يتكرر كثيراً في الرواية التاريخية لغويتشارديني، فعلى صفحاته يمكن أن نجد التساوي بين الفوضى السياسية وانحلال النساء. جوفانا الأولى، الابنة الوحيدة لروبرتو السافيو، ملكة نابولي منذ 1343 إلى 1382م «بدأت مبكراً في فقدان كل تقدير، ليس فقط بسبب ملابسها الفاضحة، بل لحماقة جنسها [...]. الذي بسببه بدأت تتطور -بمرور الوقت- العديد من الخلافات والحروب [...]، تبنّت لودوفيكوو دوق أنجو، شقيق شارل الخامس ملك فرنسا»[2]. نزل الأخير إلى إيطاليا بعد موت جوفانا العنيف، ولكن فترة حكمه هو أيضاً كانت قصيرة: فبعد أعوام قليلة، في عام 1414 انتقلت السلطة مرة أخرى إلى امرأة: جوفانا الثانية، «اسم تعس الحظ لتلك الملكة، ولكل من الملكتين، فلم تختلف إحداهما عن الأخرى سواء في عدم الحرص أو في الملابس الخليعة. ولأن جوفانا قد وضعت الحكم في أيدي أشخاص أتاحت لهم جسدها بلا حياء، سرعان ما حشرت نفسها في العديد من المشاكل [...] ما أجبرها في النهاية [...] على تبني ألفونسو ملك أراغونا وصقلية[3].

يرى غويتشارديني أن لعنة ملكات نابولي تمتد إلى معاصراته في كلّ التحليلات التي يمكن فيها أن ترتبط الأزمة السياسية بوجه نسائي. فيما يتعلق ببونا دي سافونا سفورتسا، يُرجع المؤرخ ابتعادها عن وصاية الابن جان

---

(1) F. Guicciardini, *Storia d'Italia*, Garzanti, Milano 1988, vol. I, p. 375.

في أعقاب صعوده إلى العرش باسم لويس الثاني عشر، دوق أورليون، تزوج آنا البريطانية، أرملة شارل الثامن نفسه، وهكذا حفظ ما ورثه زوجته.

(2) Guicciardini, *Storia d'Italia* cit., vol. I, p. 26.

(3) Ivi, pp. 26-27.

غالياتزو (Gian Galeazzo) من قِبل عمّه لودوفيكوو سفورتسا (Ludovico Sforza)، المُلقّب بالأسمر، إلى «عدم الحرص والعادات المخزية للأم»[1].

إن الأخطاء التي تُنسب إلى «الاضطراب الجنسي»، وانحلال النساء الأخلاقي، كانت هي الأكثر خزياً: السحر، والسفاح والهرطقة، مواضيع خادعة معادية للنساء، رسّخت في الشعور العام لمدة طويلة الارتباط بين الأزمات السياسية وضروب السلوك غير العاقلة والمضطربة لدى النساء. إن حالة لوكريتسيا بورجا (Lucrezia Borgia) حالة نموذجية؛ كان يشار إليها كحالة لعنة بسبب انحرافاتها الجنسية المزعومة، ومن خلال شيطنتها تمت إدانة أسرة البابا ودورها في زعزعة استقرار البلاد. ويعود الفضل إلى غابرييللا زاري (Gabriella Zarri) في التتبّع من جديد لخطوات الدعاية السياسية المناهضة لبورجا، التي نجحت لسنوات طويلة، ثم تمّ تكريسها في القرن التاسع عشر. الاستثناء الوحيد لتلك الأعمال الأدبية المشوهة للسمعة، والتي ضمت لوكريتسيا، هي الملامح التي خطها الكونت آرثر دي غوبينو (Arthur de Gobineau): إنه يمنح دوراً لابنة البابا إسكندر السادس، وقد أصبحت دوقة فيرارا في أعقاب زواجها الثالث بألفونسو ديستي، وهو دورٌ من الدرجة الأولى سواء كانت سيّدة حاكمة أو راعية للفنون[2]. وهي، من

(1) Ivi, p. 5.

(2) G. Zarri, *Il Rinascimento di Lucrezia Borgia*, in «Scienza & Politica», 37, 2007, pp. 63-75. La citazione delle Scènes historiques di de Gobineau (1816-1882) è a p. 64.

للاطلاع على وصف آخر للوكريتسيا، انظر زاري:

Zarri, *La religione di Lucrezia Borgia. Lettere inedite del confessore*, Union Printing Spa, Roma 2003.

قبل زاري كان الوصف الأكثر تعاطفاً وموضوعيةً هو ما كتبته ماريا بيللونشي في كتاب «سيرة حياة لوكريتسيا بورجا» الذي ظهر للمرة الأولى عام 1939. عن هذا الموضوع، وبصفة عامة حول استخدام أسلوب السير الذاتية شكلاً أدبياً لتدوين سير النساء، يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:

M. Bordin, *Per una storia solidale: «Lucrezia Borgia» di Maria Bellonci e altre psicobiografie al femminile*, in *Lucrezia Borgia. Storia e mito*, a cura di M. Bordin e P. Trovato, Olschki, Firenze 2006, pp. 345-399.

ناحية أخرى، صورة لم تنجح لمدة طويلة في أن تعوّض أسطورة المرأة الفاسقة للوكريتسيا.

في منتصف القرن العشرين فحسب، وبعد رواية ناجحة، مِثْل تلك التي كتبتها ماريا بيللونشي، وقد نقلت اهتمام البحث حول لوكريتسيا بورجا من فترة الشباب في روما إلى تلك الفترة الخاصة بمرحلة النضج في فيرارا، ودراستها في إطار بلاط إيستي، إثر هذا العمل الأدبي لماريا بيللونشي، اتخذت الدراسات حول لوكريتسيا بورجا طابع السيرة الذاتية بشكل واضح، وذلك في تقليد وإدخال لنموذج نال مثل هذا الحظ لتحويله بدوره إلى نموذج نمطي[1].

إن السيدات اللاتي ملأن المشهد السياسي الايطالي في النصف الأول من القرن السادس عشر قد تعرّضنَ إمّا لتشويه السمعة أو للنسيان من قبل أكبر مؤرخ عاصرهنّ: غويتشارديني، فقد كان غير قادر –ثقافياً– أو كان على الأقل رافضاً الاعتراف بقدرة السيدات على تولي أدوار حكم في الدول الايطالية الصغيرة في قلب الأزمة السياسية للأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وفي العقود الأولى من القرن التالي. لم يجر حتى ذكر إيزابيللا غونزاغا ديستي في كتابه «تاريخ إيطاليا»؛ ولكنه احتفظ بأفضل حكم لكاترينا سفورتسا، التي هزمها شيزاري بورجا في حصار قلعة فورلي: «نظراً إلى كونها من بين محاربين مليئين بروح نسائية ولكنها كانت هي وحدها ذات روح تقية [...] [شيزاري بورجا] –ناظراً إلى القيمة التي تكمن فيها وليس إلى جنسها– أرسلها إلى السجن في روما، حيث بقيت تحت الحراسة في قصر سانت أنجيلو»[2]. وعلى العكس، تظهر كاترينا وكأنها سليطة اللسان، عديمة الرحمة في إحدى أشهر الفقرات التي تشير عرضاً إلى السيدات في موقع

(1) Zarri, *Il Rinascimento di Lucrezia Borgia* cit., p. 71.

(2) Guicciardini, *Storia d'Italia* cit., vol. I, pp. 470-471.

السلطة التي يمكن الوصول إليها في الأعمال الكبرى لماكيافيللي، وهي ترد بكلمات مشينة وإيماءة إباحية على تهديد المتآمرين من فورلي بقتل أبنائها الصغار إن لم تستسلم، فقد «فقد كشفت لهم عن فرجها وقالت إنها ما زال بوسعها أن تنجب آخرين»[1].

كان انتقال إيمولا –بعد انتزاعها من تاديو وأسترورجو مانفريدي (Taddeo e Astrorgio Manfredi) عام 1471– إلى جيرولامو رياريو (Girolamo Riario)، ابن أخت سيستو الرابع (Sisto IV) من أخته بيانكا ديللا روفيري، بأربعين ألف دوقية، وأدخلها في بنود عقد الزواج الذي وُعدت به عام 1473م كاترينا ذات السنوات العشر، الابنة غير الشرعية لغالياتزو ماريا سفورتسا، لتتزوج بجيرولامو، وذلك ليقرّ التحالف بين البابا والدوق. وبذلك أصبحت المقاطعة الصغيرة (السينيورية) أحد محاور سيطرة عائلة سفورتسا على منطقة رومانيا ومناطق ماركي إضافة إلى بيزارو التي حصلت عليها عام 1444، كحصة من مهر كوستانسا فارانو (Costanza Varano)، زوجة أليساندرو سفورتسا.

مات سيستو الرابع عام 1484، قبل أن تنجح سلطة ابن أخته في الرسوخ؛ وكان تأكيد التنصيب من قبل البابا الجديد إينوسنت الثامن، يعود غالباً إلى ثقل عائلة سفورتسا السياسي والحربي، وإلى قدرة كاترينا على أن تمنح قيمة لانتمائها إلى تلك العائلة. عندما قلّت الوسائل العديدة التي كانت تحظى بها العائلة بفضل عطايا سيستو الرابع، اضطرّت كاترينا ومعها جيرولامو إلى أن يعودا إلى رومانيا وأن يعتمدا على موارد دولتهما الصغيرة. ولكن في إيمولا،

(1) N. Machiavelli, *Discorsi sopra la prima deca di Tito Livio*, in *Il Principe e i Discorsi*, Feltrinelli, Milano 1979, pp. 407-408;

القصة نفسها أوردها ماكيافيللي تقريباً حرفياً في مؤلف:

Istorie Fiorentine, Feltrinelli, Milano 1962, p. 571.

التي كانت قد حصنت وأُعيد بناؤها جزئياً، ساهم حجم الضغط الضريبي والسيطرة الاحتكارية لمطاحن القمح، في أن يعجّل بقبول حكم الرياريو. وفي 14 أبريل 1488م سقط جيرولامو في فورلي، ضحية إحدى المؤامرات العديدة ضده. ومن خلال دعم لودوفيكوو سفورتسا، سيّد ميلانو، وجوفاني بنتيفوليو سيد بولونيا الفعلي، استطاعت كاترينا أن تحتفظ بالمقاطعة الصغيرة (السينيورية)، بعد أن حصلت من البابا على تأكيد بتنصيب ابنها أوتافيانو، وكان عمره عشر سنوات، على أن تحكم هي كوصيّة.

في عام 1494 عبَرَ ملك فرنسا شارل الثامن جبال الألب، وفي التاسع من سبتمبر وصل إلى آستي، مطالباً بحقوقه الوراثية في مملكة نابولي. كان الملك قد وصل أيضاً لمساندة لودوفيكوو الأسمر، الذي كان محاصراً من البندقية ومن فلورنسا، وقد كان باستطاعته أيضاً أن يعتمد على تحالف حميّه إيركولي ديستي الأول، وعلى سهولة حشد القوات والإمدادات من جماعات رومانيا، وأرسل على الفور جزءاً من جيشه إلى إيموليزي. كانت القوات الفرنسية، التي عبَرَت توسكانا دون أن تلقى أي معارضة من بييرو دي ميديتشي (Piero de' Medici)، قد عبَرَت جبال الأبنيني وهاجمت ولاية كاترينا واستولت على قصور بوبانو وموردانو. كان العنف الذي مورس ضد السكان هو ما قاد كاترينا لأن تتفق مع الفرنسيين، دون أن تبدي أية مقاومة.

الأحداث التالية قصّها مرات عديدة مؤرّخو كاترينا سفورتسا، على الرغم من الأعراف المنتشرة بقوة، من المؤرخ أندريه تيراكو (André Turaqueau)، الذي لا يذكر أي شيء عنها، كما لم يذكر شيئاً عن جان دارك، مفضلاً أن يحذف أي شيء عنهما، فهما تكذّبان وبشدة ما يدعو إليه من أن النساء لا يقدرن على خوض الحرب. مما لا شك فيه أن كاترينا حاربت للدفاع عن أراضيها مستخدمة السلاح، كما تدربت بالفعل في عائلتها المحاربة،

وعلى يد بيانكا ماريا فيسكونتي نفسها التي كانت قادرة هي الأخرى على حمل السلاح. وفي الواقع، قامت بيانكا ماريا، وقد كانت «امرأة جسوراً في ركوب الخيل والحضور بين المحاربين، كما كانت ماهرة في فنّ الحكم»، «بتعليم كاترينا وتربيتها على ماضي أجدادها الحربي والبطولي، وعلمتها أن تُظهر شجاعتها وتشعرَ بالفخر لأنها من عائلة سفورتسا، ونقلت إليها الشغف بالسلاح ومتعة الحكم»[1].

في النهاية، لم تحتفظ كاترينا بممتلكاتها، ولكنها كانت قد رُزقت بابن من زوجها جوفاني دي ميديتشي البوبولانو، جوفاني دالي باندي نيري (Giovanni dalle Bande Nere)، الذي كان سيصبح القائد الأخير لتستمر التقاليد العائلية الموروثة من الأم. قدمت إحدى السير الذاتية، وقد صدرت منذ بضعة أعوام، كاترينا كحفيدة وابنة حفيد لكل من فرانشيسكو سفورتسا وموتزيو أتيندولو (Muzio Attendolo)، والديْ تلك العائلة من المحاربين، وأكثر من ذلك، فهي حفيدة إيليزا دي بتراشيني (Elisa de' Petrascini)، والدة موتزيو وتسعة عشر آخرين من الأبناء، وقد وصفتها كتب التاريخ بأنها «أم حقيقية، قاسية» و«سليطة اللسان وفظة وشجاعة»[2].

(1) C. Brogi, *Caterina Sforza. La più bella, la più audace e fiera, la più gloriosa donna d'Italia, pari se non superiore ai grandi condottieri del suo tempo*, Alberti & C. Editori, Arezzo 1996, p. 12.

يؤكد غراسياني أيضاً القدرات العسكرية لبيانكا ماريا:

N. Graziani, G. Venturelli, *Caterina Sforza*, Mondadori, Milano 2001 alle pp. 8 e 12.

(2) Brogi, *Caterina Sforza* cit., p. 9.

عن كاترينا سفورتسا يمكن العودة إلى العمل القديم ولكن الموثق جيداً لبازوليني:

P.D. Pasolini, *Caterina Sforza*, 3 voll., Loescher, Torino 1893

والعمل الحديث التالي:

E. Lev, *The Tigress of Forlì. Renaissance Italy's Most Courageus and Notorious Countess. Caterina Riario Sforza de' Medici*, Houghton Mifflin Harcourt, Boston 2011.

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في إيطاليا، لم يكن ثمة نساء فقط على رأس المقاطعات، بل كانت توجد ملكات لهن كل الصلاحيات، وهن اللاتي يذكرهن غويتشارديني بمصطلحات مهينة تنمّ عن الاحتقار. الأولى، جوفانا الأولى دانجو، ولدت عام 1326، كانت ملكة نابولي منذ عام 1343 إلى 1382م العام الذي تُوفِّيت فيه، وعلى الرغم من وجود القانون السالي، بسبب حسابات سياسية من الجد روبرتو دانجو الحكيم الذي بوفاة ابن أخيه روبرتو الوريث الوحيد الذكر من أقارب الدرجة الأولى ممن لا يزال على قيد الحياة، فضّل أن يتجنب الصراعات الحتمية بين الأقارب الأباعد من الورثة الذكور وأن يعهد بالعرش إلى وريث مباشر، حتى وإن كان امرأة، ثم حاول أن يحرص على «تعويض» القطْع الحتمي لاستمرارية العائلة المالكة بأن اختار لها زوجاً من الفرع الآخر من العائلة[1]. تزوجت جوفانا عام 1333 بأندريا دانجو (Andrea d'Angiò) من المجر. كانا ما زالا طفلين، وتمّ الزواج الفعلي بعد ذلك بعشرة أعوام، عند وفاة روبرتو دانجو.

كانت وصية روبرتو تنصّ على أن يتمّ تتويج أندريا في نابولي، ولكن جوفانا، البالغة من العمر ستة عشر عاماً، لم تراع رغبة جدها، معتمدةً على مساندة نبلاء نابولي، وعلى تدخل البابا كليمنتوس السادس؛ وكان هذا التدخل بناء على واقع أن الملك كان يقدّم للبابا التبعية الإقطاعية. ألغى كليمنتوس السادس وصية روبرتو الحكيم وقام عام 1343 بتتويج جوفانا وحدها. إلا أن تطلعات قرين الملكة إلى السلطة وقد لقبه البابا دوق كالابريا، لم تنته، وأيضاً لأن أندريا كان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على مساعدة أخيه ملك المجر، لويس الملقب بالكبير. يكتب بعد ذلك بقرن عن أندريا،

(1) C. Raia, *Giovanna I d'Angiò regina di Napoli*, Tullio Pironti editore, Napoli 2000, p.61.

الفظ والقاسي الذي لم يحظ بحبّ أهل نابولي، كاتب الإنسانيات باندولفو كولينوتشي (Pandolfo Collenucci) (1444–1504م)، أنه لم يكن قادراً على تلبية احتياجات جوفانا الزوجية «كان ما زال شاباً صغيراً، لم يكن قادراً من الناحية الجنسية على إشباع الرغبات الجامحة للملكة»[1]. كان ذلك الجانب الخاص بالحرية الجنسية لجوفانا مقولة شعبية يعضدها جمالها، إضافة إلى ترتيب الزواج غير الموفق ووضعها كملكة، وهو الأمر الذي تبنّته بعض الأعمال الأدبية المعاصرة. لم تسهم تلك الزيجة في استقرار المملكة، بل وتعارضت مع آمال روبرتو الحكيم كلها، وفي عام 1345 دبّر بعض النبلاء الذين يؤيدون جوفانا مكيدة لأندريا وقتلوه. مؤكد أنه كان ثمة من اتهم الملكة نفسها بأنها هي من دبّر حادث القتل، وكان البعض يفسر طريقتها القاسية في معاقبة المتآمرين كوسيلة لإبعاد اللوم عن نفسها.

بعد مقتل أندريا، أنجبت جوفانا كارلوس مارتيللو (Carlo Martello)، الذي كان مُقدراً له أن يموت مبكراً. وفي عام 1347، تزوجت الملكة بلودوفيكوو التارانتي، الذي كان عشيقها منذ فترة طويلة: كان هو أيضاً من عائلة أنجو، حفيد شارل الثاني الأعرج. غزا لويس الكبير المجري المملكة في بداية عام 1348، انتقاماً لموت أخيه: وبذلك بدأ الصراع على السلطة بين فروع عائلة أنجو المختلفة، ذلك الصراع الذي كان يخشاه روبرتو الحكيم، ولكنه استطاع تأجيله فحسب. بدأت فترة من عدم الاستقرار والاضطراب، وما استطاعت جوفانا أن تعود إلى نابولي إلا عام 1352، حيث تم تتويجها في حفل مهيب، ولكن لودوفيكوو كان شريكاً لها في العرش هذه المرة. بعد موته عام 1362، تزوجت جوفانا مرتين، ولكنها، كما في حالة الزوج الأول، كان عليها الاكتفاء بلقب دوق كالابريا، وهي العلامة الواضحة على

(1) Ivi, p. 37.

أنّ الحسابات السياسية قد اشتركت في اختيارات جوفانا الخاصة بالزواج كلها -فيما عدا في حالة أندريا المجري-، أمّا الميل العاطفي فكان في حالة لودوفيكوو فحسب، على الرغم مما جاء في «الأخبار الجديدة» (*Nuova Cronica*) لماتيو فيللاني (Matteo Villani)، وهو الذي أكمل عمل أخيه جوفاني الذي قدّم لودوفيكوو كشخص جامد وطماع ومزهو بنفسه[1].

وعندما تقدّم بها العمر وهرمت وهي بلا أبناء على قيد الحياة، عيّنت جوفانا ابن عمها كارلوس دي دوراتسو (Carlo di Durazzo) وريثاً لها. لكن الملكة تجد نفسها مرة أخرى في مواجهة كارثة خطيرة، إذ أنها كمؤيدة لمناهض البابا كليمنتوس السابع، وجدت نفسها في موضع الخصومة مع كارلوس، مؤيد البابا أوربانوس السادس، الذي لم يتردد في أن يعاقب جوفانا موالية كنيسة روما بقسوة، بوصفها مهرطقة، ومنشقة، ومحرومة من العرش. وبعد فترة أخرى من الصراع بين كارلوس الدوراتسي، والوريث الجديد الذي عينته الملكة لويس من آنجو، وهو أخو ملك فرنسا، اغتال كارلوس جوفانا في نهاية مأساوية لحياة مليئة بالأحزان والخيانة. كانت الخيانة الأخيرة هي الأكثر إيلاماً، إذ جاءت من ابن عمٍّ ربتهُ الملكةُ كابن لها، ليملأ الفراغات -العاطفية والسياسية- لأمومتها التعسة. كانت جوفانا قد أورثت عدم الاستمرارية في الخلافة، ولذلك تبعات في المستقبل (حروب إيطاليا التي بدأت عام 1494، وانتقام كارلوس الثامن)، ولكن تبعات فورية أيضاً، جلبت إلى عرش نابولي امرأة أخرى في غضون بضعة أعوام وهي جوفانا الثانية. وهي التي كانت في أقصى حالات عدم الاستقرار، وبلا أي أمل في أن يكون لها ورثة حقيقيون، فقد كانت عقيماً، وحاولت أن تمنح الحكم استمرارية من خلال اللجوء المتكرر لعلاقات أمومة اصطناعية.

(1) Ivi, p. 139.

استعانت جوفانا الثانية بمعهد التبني –وقتما كانت الندرة الشديدة للمصادر التي تشير إليه، تدفع إلى الاعتقاد بأن اللجوء إلى تلك المعاهد كان يحدث في حالات نادرة جداً، على الأقل من الناحية الرسمية– وذلك من خلال أعمال متتالية وناتجة عن التزامات متكررة غير متوقعة من الورثة الذين تم تعيينهم، وفي علاقة بتقييمات متناقضة للفرص السياسية للاختيارات المطروحة. كانت حالة جوفانا الثانية ملكة نابولي، حالة حدثتنا فيها المصادر بشكل مكشوف عن التبني الواضح، ولكن لم يكن واضحاً أي نوع من القواعد كان يُتَبَع: ذلك الخاص بالحقوق الرومانية، أم القواعد الدينية الخاصة بالتبني المسيحي[1]، أم التعاقد الخاص المعتاد الموقَّع من قِبَل موظف حكومي؟ وقد جرى تطبيقه، في حالة جوفانا، في احتفالية طقسية كبيرة بالبلاط.

أحد الأعمال الحديثة حول ملكات عائلة أنجو، يترك الانطباع بأن الاحتفال الطقسي الموصوف لتبني ألفونسو الخامس الأراغوني كان شيئاً فريداً من نوعه، فقد نظمته الملكة (التي بدأت تمارس صلاحيات الأمومة) ودعت في سبتمبر 1420 سفراء المملكة معلنة لهم «أنها تريد أن تتبنى ألفونسو وتتخذه وريثاً». وفي يوليو 1421، وفي أعقاب الاحتفالات المعتادة، «أمرت الملكة كل الرعايا، البارونات ومختلف طبقات الشعب، بأن يقدّموا التكريم ويقسموا على الإخلاص لألفونسو»، الذي استقبلته بعد ذلك جوفانا، المزينة بالجواهر الغالية، وقامت الملكة «بتقبيل جبهته ووجنتيه وبدأ كلاهما تبادل التحية». في أعقاب ذلك، في كاستلنوفو، «جلسا على العرش، وقرأ

---

(1) U. Gualazzini, *Adozione (diritto intermedio)*, in *Novissimo Digesto Italiano*, vol. I, Utet, Torino 1957, pp. 288-290.

لم يكن التبني، على الرغم مما يسمح به من تولّي الحكم، يخلق أي اعتراض شعبي أو إعاقات للورثة في العائلة من الذكور، ولذلك لم يكن وجود هؤلاء الورثة يعوق تلك الممارسة.

باسكوالي من كامبلي المحضرَ للتأكيد الجاد من كليهما على الشروط الخاصة بالتبني، وهو ما يضمن احترام الالتزامات المنصوص عليها، وقام العاهلان بتبادل صكوك مملكتيهما».

إلا أن المجلس العام للملكة اقترح في عام 1423م إلغاء تبني ألفونسو إثر سطو مدمّر على نابولي قامت به قوات الملك. وبتأييد من البابا ودوق ميلانو، «وبعد دراسة المسألة من قبل مجموعة من الخبراء القانونيين»، ألغت جوفانا تبني ألفونسو، واستعدت لتتبنّى لويس الثالث دانجو، وهو الأمر الذي استحسنته الجموع؛ تمّت صياغة التبني في حضور البارونات وموظّفي البلاط. أمام تهديد بهجوم من ألفونسو، اضطرت جوفانا في عام 1430، بعد أن أصيبت بالمرض والضعف بسبب الخلافات بين البارونات، وعدم شعبيتها التي تسبب فيها فرضها للتبرعات على عائلات المملكة، وبسبب فساد مؤيديها، وأخيراً بسبب ابتعاد لويس، الذي تمَّ استدعاؤه في فرنسا من قِبَل شارل السابع، أن تلغي تبني لويس وأن تتبنى من جديد ألفونسو نفسه، «مشجعة إياه على أن يعود إلى المملكة كابن صالح لها، ووريث شرعي»[1].

إن ما حدَثَ لجوفانا الثانية نموذج يوضّح كيف أن مؤسسةً كانت قد نشأت على القانون الروماني على أساس المبدأ المعتاد لسلطة الأب الشرعية، حتى وإن توقّفَ ذلك لفترة، يمكن إحياؤها مرة أخرى وتعديلها بوساطة امرأة لأهداف سياسية أو أهداف ذات علاقة بالسلالات الحاكمة، وفي هذه الحالة من حيث السماح للملكة المسنّة، العقيم والمحرومة من الاعتماد على أطفالها الفعليين، بأن تجعل لنفسها بالتبني بنوة ذات شرعية قانونية يمكن مناقشتها، وفعالة في مواجهة الضغوط المتعارضة التي كادت تعصف بمملكتها: كان

(1) M. Gaglione, *Donne e potere a Napoli. Le sovrane angioine: consorti, vicarie e regnanti (1266-1442)*, Rubbettino, Soveria Mannelli 2009, pp. 366-367, 374-375, 378-379.

هذا الرابط بالنسبة إلى الملوك الذين تبنوا التزاماً بالإخلاص يشبه ذلك النوع الطبيعي من إخلاص الابن لأمه. من جهتها، وفي المفاوضات الخاصة بالتبني للمرة الثانية، أخبرت جوفانا ألفونسو بأنها «تحبه وكأنها هي من أنجبته»[1].

3. إيزابيلا الصالحة وجنون جوفانا

بعد موت جوفاني الثاني ملك قشتالة، عام 1454، اعتزلت الملكة الأرملة إيزابيلا -من البرتغال- حياة البلاط ومعها ابناها: إيزابيلا المولودة عام 1451، وألفونسو البالغ من العمر عامين. مدركة حجم مسؤولياتها، وقد اهتمت الملكة الأم، أوّلاً، بتعليمهما الديني والأخلاقي بدافع من إيمانها العميق. وتمّ اختيار الراهب الفرانسيسكاني مارتن القرطبي (Martín de Córdoba) مستشاراً روحياً لابنتها إيزابيلا. كتب الأخ مارتن «**حديقة الآنسات النبيلات**»، وهو كتاب تعليمي في كيفية الوصول إلى الكمال الروحي؛ وبه يمكن للملكة المستقبلية الصغيرة أن تتعلم كيف تسلك السبل المستنيرة لمعلمها وتمارسها[2]. كان إنريكو أخو إيزابيلا غير الشقيق، وهو

(1) Ivi, p. 379.

(2) P. Demerson, *La «Doncella a Dios» de Martín de Córdoba*, in «Bulletin Hispanique», 86, 1984, 1-2, pp. 142-153.

للجزء التالي يمكن الاطلاع على الأعمال التالية:

W.H. Prescott, *History of the Reign of Ferdinand and Isabella, the Catholic, John Foster Kirk*, Lonndon 1892; L. Suárez Fernández, *Claves históricas en el reinado de Fernando e Isabel, Real Academia de la Historia*, Madrid 1998; *Isabel la Catolica, Queen of Castile: Critical Essays*, a cura di D.A: Boruchoff, Palgrave MacMillan, New York 2003; J.m. Javierre, *Isabel la Católica, el enigma de una reina*, Sigueme, Salamanca 2004; M. Fernández Álvarez, *Isabel la Católica*, Espasa-Calpe, Madrid 2006; B. Aram, *Juana the Mad: Sovereignity and Dynasty in Renaissance Europe*, The Johns Hopkins University Press, Baltimore 2005 (ed. orig. Spagnola 2001); C. Hernando Polo, *Isabel la Católica*, Nowtilus, Madrid 2007.

ثمرة زواج سابق لجوفاني، قد أصبح ملك قشتالة بعد وفاة أبيه، وكان معروفاً بإنريكو الرابع العاجز. عندما وُلدت جوفانا، الابنة التي أنجبت له جوفانا البرتغالية، نَسبَت الإشاعات الشعبية على الفور أبوتها لعشيق الملكة، بيلتران دي لا كويفا (Béltran de la Cueva): وطوال حياة ابنة الملك كان يُطلق عليها لقب «البلترانيجا». عام 1468، عندما مات ألفونسو، حاول بارونات المملكة أن يقنعوا إيزابيللا بأن تُطالب بالحكم بينما أخوها غير الشقيق على قيد الحياة ولكن باءت محاولاتهم بالفشل. تمّ تعيين إيزابيللا وريثة لعرش قشتالة بوساطة أخيها إنريكو الرابع نفسه، ولكنه حرمها من الميراث عندما خالفت إيزابيللا الاتفاقيات، وفضلت الزواج بفرديناندو الأراغوني على الاقتران بملك البرتغال ألفونسو الخامس وتزوجت سراً ودون موافقة أخيها غير الشرعي، في 19 أكتوبر عام 1469، بعد أن حصلت على إعفاء من الزواج بسبب قرابة الدم، وهو ما تم تأكيده سنة 1471.

أقسمَ الملك إنريكو عندئذ علانية، ومعه زوجته، أن جوفانا البلترانيجا ابنته الشرعية، وأعلنها وريثة للعرش. أثار هذا القرار صراعاً بين مؤيدي جوفانا ومؤيدي إيزابيللا. وفي 13 ديسمبر 1474، بعد يومين من الموت المفاجئ لإنريكو الرابع، تم إعلان إيزابيللا ملكة على قشتالة وأصبح فرديناندو قرين الملكة وأصبح اسمه فرديناندو الخامس القشتالي، بينما تزوجت البلترانيجا بألفونسو الخامس البرتغالي، وهي لا تزال تطالب بحقها في العرش، ما جعل زوجها يغزو قشتالة في الصيف التالي ليدافع عن حقوق زوجته. نتجت عن ذلك حرب خلافة دموية، استمرت حتى استطاع مؤيدو إيزابيللا الحصول على الاعتراف بحقها في العرش بدلاً من البلترانيجا، بسبب نقص أدلة بنوتها الشرعية للملك. وقع الصدام الحاسم بالقرب من تورو؛ المدينة التي كانت جوفانا قد استولت عليها وأقامت في بلاطها.

كان فرديناندو وإيزابيللا موضع تأييد من أغلب النبلاء ومن رؤساء الجماعات الدينية والأديرة الكبيرة، الذين كانوا يرغبون في إبعاد خطر سيطرة ملك البرتغال على قشتالة؛ وفي الأول من مارس عام 1476، دفع فرديناندو، قائد الجيش القشتالي، ألفونسو إلى الهرب، وإذ رأى أن مؤيديه في قشتالة أقلية، عاد إلى البرتغال مع زوجته. أما الاتفاق النهائي على السلام، الذي أنهى مسألة الخلافة، فقد تم عقده عام 1480م.

عام 1474، عندما تُوّجت إيزابيللا في سيغوفيا، كان فرديناندو غائباً، ولكن طالب عند عودته بحقوقه كقرين للملكة في تاج قشتالة. إلا أن إيزابيللا أبدت ممانعتها للخضوع غير المدروس في حق الوراثة القشتالية[1]، وفي عام 1475 تم عقد اتفاقية بين الزوجين، بدأ تطبيقها عام 1479، عندما توحّد عرشا قشتالة وأراغون؛ فأصبح فرديناندو، نظراً لوفاة والده، -بجانب كونه ملك صقلية- ملكاً على أراغون أيضاً. نصّ عقدُ الزواج على أن كلاً من الدولتين، وعلى وحدتهما، تحتفظ بحكومة منفصلة. وتم الاعتراف لإيزابيللا بحق ممارسة سلطتها الملكية في قشتالة، ولكن ليس في أراغون، وبالنسبة إلى فرديناندو، كان في إمكانه إضافة إلى ممارسة سلطاته في أراضيه، إدارة العدالة في قشتالة بالاشتراك مع زوجته أو منفصلاً عنها إذا لم يكونا موجودين معاً في المكان نفسه. وكان لا بد من توقيع الأوامر الملكية في قشتالة من كليهما،

---

(1) لاستعراض الدراسات حول الأسس القانونية التي أدت إلى تصعيد إيزابيللا لعرش قشتالة يمكن الاطلاع على البحث التالي:

M. Galán, *Estudios jurídicos sobre el papel de la mujer en la Baja Edad Media*, in «Anuario Filosófico», 26, 1993, pp. 541-557.

على كل حال فإن الصور التي تمثل إيزابيللا أو الابنة جوفانا تظهر بالأدلة الزوجين بعلامات السلطة الواضحة، والكلمات التي نسبها لهم المعاصرون التي تركز في أهمية دوريهما كزوجتين عن دوريهما كملكتين، انظر:

R.E. Ríos Lloret, *Imágenes De Reinas: ¿Imágenes De Poder? (Siglos XV-XVII)*, in «Revista Pedralbes», 23, 2003, pp. 371-384.

وكانت النقود تحمل صورتيهما معاً، وتحمل الأختام الملكية شعار عائلتيهما؛ وكان فرديناندو هو من يهتم بالسياسة الخارجية. وعلى الرغم من تأكيدها أنها تحكم بالاشتراك مع فرديناندو، كانت إيزابيللا تقدم نفسها على أنها حامية المجتمع، في وضع يحمل ملامح العذراء مريم، وبصفتها سليلة عائلة من الملوك المحاربين. كان يتمّ رسمها، في الواقع، وهي تحمل سيفاً مسلولاً، رمزاً للقيادة ولممارسة الأمور القضائية: وكان الصليب المقدس رمزاً لرسالة الإمبراطور قسطنطين والصراع ضد غير المؤمنين في إسبانيا، ويشير إلى حملات جان دارك، التي كانت الملكة تحترمها[1].

أدت أنشطة فرديناندو العسكرية –التي أثبتت بالفعل قدراته الهائلة كقائد أثناء حروب الخلافة– إلى استعادة القلعة الإسلامية الأخيرة في إسبانيا من خلال سقوط غرناطة في الثاني من يناير عام 1492م. وفيما يتعلق بإيزابيللا، فإن شخصيتها، التي تعضدها الإرادة القوية والكثير من المعتقدات الدينية، أدّت إلى اتخاذها قرارات –بالاشتراك مع فرديناندو– ذات عواقب وخيمة، مثل تأسيس محاكم التفتيش في قشتالة عام 1478، وبعد ذلك في أراغون، وإصدار قرار غرناطة، عام 1492م، الذي أدى في البداية إلى إرغام اليهود والمسلمين على تغيير دينيهما، ثم أدى فيما بعد إلى طردهم.

طاردَ سوءُ الطالع إيزابيللا، في الأعوام الأخيرة من حياتها، حتى إن بعض المؤرخين في تلك الفترة كانوا يقارنون الملكة الفاضلة بالعذراء المتألمة. وكان فقدان ابنها الذكر الوحيد والإجهاض المبكر لأرملته، وموت ابنتها البكر إيزابيللا –التي كانت قد تزوجت بمانويل، الابن الثاني لألفونسو الخامس

(1) P. Liss, *Isabel of Castile (1451-1504). Her Self-Representation and Its Context*, in *Queenship and Political Power in Medieval and Early Modern Spain*, a cura di T.Earenfight, Ashgate, Aldershot (GB)-Burlington (USA) 2005, pp. 120-144 e P.K. Liss, *Isabel the Queen. Life and Times* (1992), University of Pennsylvania Press, Philadelphia 2004.

البرتغالي- وابنها ميغل، الذي من خلاله كان يمكن توحيد مملكة الملوك الكاثوليك إيزابيللا القشتالية، وفرديناندو الأراغوني مع ملك البرتغال، وظهور الأعراض الأولى المزعومة لجنون ابنتها جوفانا (التي تحدّت أمها علانية في بلدة مدينة ديل كامبو)، والتصرفات الماجنة لزوج ابنتها فيليب من هابسبورغ الملقب بالوسيم، والوضع الملتبس لابنتها كاترينا بعد وفاة زوجها الإنجليزي (آرثر، الابن الأكبر لهنري الثامن تيودر)، كان كل هذا قد عجّل بأن تسقط في اكتئاب عميق، ما أدى إلى دخولها في حالة حداد شديدة، على أنّ هذا الألم يعضده إيمان لا يتزعزع.

في 26 نوفمبر 1504 ماتت إيزابيللا، بسبب مرض عضال أصابها، ولكنه لم يكن مفاجئاً إذ منحها الوقت لتتأمل في أعمالها على الأرض وفي الترتيبات التي تريد أن تتركها بعد رحيلها. لم يكن من بين الأبناء الخمسة الذين أنجبتهم سوى ذكر واحد، ولم يبق منهم غير ماريا، التي تزوجت بأرمل أختها مانويل البرتغالي في انتهاك صارخ للمحرمات الكنسية الخاصة بالزواج التي تدخل في الدرجة الرابعة من القرابة! وهي علامة على الرغبة المُلحة في استكمال خطة توحيد عروش شبه الجزيرة الإيبيرية؛ وكاترينا، التي تزوجت بهنري تيودر الثامن شقيق زوجها الأول أرثر بعد خمس سنوات من وفاة أمها -مخالفة هي أيضاً القاعدة نفسها-، وطفل عمره أربعة أعوام، وهو ابن جوفانا. كان يمكن الرهان على هذا الطفل، وربما كانت إيزابيللا قد تركت له وصيتها التي لم تُكتب بخط يدها، ولكن تمّ ختمها بختم «أنا الملكة».

كان يبدو أن إيزابيللا تتصوّر مسبقاً الحلم الإمبراطوري الذي حاول حفيدها تحقيقه، وهي توصي باستكمال محاولة استعادة شمال إفريقيا، واكتشاف أمريكا، مؤكدة ضرورة الدفاع عن حقوق «رعاياها الأمريكان في عالمهم القديم» وهي العبارة التي نالت من خلالها من قِبَل بعض المؤرخين

لقب «رائدة حقوق الإنسان»، وقد تناسوا أمر تغيير العقيدة الإجباري لليهود والمسلمين. ولكن الأرجح أن الملكة، في عبارتها «رعايانا»، كانت تقصد المحتلين وليس السكان الأصليين. وعلى كل فقد شرع رئيس الأبرشيات في فاللادوليد عام 1958 في عملية تقديس إيزابيللا، التي ما زالت حتى الآن موضوع دراسة، وذلك لخصالها غير العادية كمؤمنة وابنة محبة للكنيسة الكاثوليكية.

وُلدت ابنتها جوفانا عام 1479. منذ نعومة أظافرها نالت التعليم المناسب لامرأة، والمؤسَّس بالأحرى على الخضوع وليس على تعلم الخصائص الملائمة للحكم. كان أهمّ شيء بالنسبة إلى الطفلة هو التعليم الديني، ليطبع فيها سلوكاً منسحقاً وطرائق صالحة مناسبة لجو البلاط، وهو الأمر الذي بدا صعباً. وكان الدومينكاني أندريه دو ميراندا (Andrés de Miranda) من بين معلميها. في أغسطس عام 1496، أبحرت جوفانا البالغة من العمر سبعة عشر عاماً من كانتابريا على متن سفينة من جنوة تتبعها قافلة من ثماني عشرة سفينة أخرى على متنها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل: كان الأمر يتعلق باستعراض قدرة الملوك الكاثوليك، ولكن متعلق أيضاً بإحباط بعض الضربات من ناحية الفرنسيين الذين علموا بالاستعداد للاحتفال بزواج جوفانا وفيليب هابسبورغ، أرشيدوق النمسا المعروف بالوسيم وذلك في فياندري، وهو الزواج الذي كان ترتيبه بهدف احتواء عنف أهل فالوا. لم تكن الرحلة هادئة، وقبل الوصول إلى أرض زيلاندا، غرقت إحدى السفن وهي تحمل 700 رجل فضلاً عن الملابس والزينة باهظة الثمن. عندما تقابل فيليب وجوفانا، ولم يكونا قد تقابلا قط من قبل، وقع كلّ منهما في حبّ الآخر على الفور وبشكل جنوني، ولكن تلك العاطفة بالنسبة إلى فيليب لم تستمر طويلاً (أو على الأقل لم يكن مخلصاً لها)، بينما تسببت لجوفانا في

غيرة استحواذية. وفي الفترة بين 1498 و1501 أنجبت جوفانا ثلاثة أبناء –من بينهم ولدٌ هو كارلوس في 24 فبراير 1500– وقد كانت تتخلل حالات الحمل والإنجاب لديها الوعكاتُ الصحية مع إدراكها أنها لم تعد جذابة في نظر زوجها بالدرجة الكافية.

أصبحت جوفانا عام 1502 وريثة العرش، بسبب موت أخيها وأختها الكبرى، وتم الإعلان الرسمي من البرلمان في كاتدرائية توليدو، وكان معها فيليب. عام 1503، وهي حامل للمرة الرابعة، وقد تركها زوجها وحدها، بدت عليها أعراض مقلقة من الاضطراب العقلي. وخلال العام التالي تم إعلانها رسمياً ملكة قشتالة، ولكن فرديناندو كان في واقع الأمر ممسكاً بالحكم بقوة. إلا أن فيليب لم يقبل أن تتم تنحيته جانباً، واستطاع عام 1505 أن يحصل من فرديناندو على حصته في الحكم (وجوفانا أيضاً تبعاً لذلك بشكل غير رسمي). أنجبت ملكة قشتالة في العام نفسه للمرة الخامسة. وفي يونيو عام 1506 تولى فرديناندو حكم أراغون وأعلن برلمان فاللادوليد فيليب ملكاً على قشتالة باسم فيليب الأول؛ وفي 25 سبتمبر للعام نفسه توفي، ربما مسموماً. عندما قررت جوفانا أن تنقل جثمان زوجها من بورغوس إلى غرناطة، وحسب رغبة الملك المتوفَى، قامت وهي حبلى باقتفاء الجثمان، وكانت تواصل السفر حتى في الليل مدة ثمانية أشهر باردة، وكان يتبعها موكب حاشد من النبلاء والأعيان ورجال الدين وسيدات مرافقات وخدم. وفي الطريق وفي الرابع عشر من يناير 1507، أنجبت ابنتها الأخيرة.

ازدادت الإشاعات حول جنونها. لم تكن ترغب في تغيير ملابسها ولا في الاغتسال. وكانت تلك العلامات تكفي دليلاً على حالة خطيرة من الاكتئاب، إضافة إلى الغيرة الشديدة للسنوات السابقة والمتاعب التي صاحبت كل فترات الحمل والولادة، كان كل ذلك كافياً ليستعيد فردیناندو

الكاثوليكي الوصاية على حكم قشتالة ويضع ابنته في دير في توردوسيلاس في شهر فبراير 1509، ليتجنب أن يتكون حزبٌ من النبلاء القشتاليين حول ابنته. مات فرديناندو عام 1516م؛ وأراد في وصيته أن تُعيَّن جوفانا رسمياً ملكة على أراغون ولكن رغبته لم تحظ بالقبول من المنظمات الممثلة للمملكة، وبهذا تم إعلان كارلوس، ابن جوفانا وفيليب، ملكاً مع أمه الملكة، وأصبح اسمه كارلوس الأول. حكم كارلوس –الوريث من خلال أمه– مملكتي قشتالة وأراغون، ومعه جوفانا رسمياً. لم يتم إعلان عدم قدرة جوفانا على الحكم من قبل البرلمان القشتالي قط، وهو ما لم ينزع عنها لقب الملكة. كانت الوثائق الرسمية وهي على قيد الحياة، تحمل اسمها قبل اسم كارلوس.

عام 1519م، أصبح ملك قشتالة وأراغون (وأماكن أخرى كثيرة) كارلوس الأول، إمبراطور روما المقدسة وصار لقبه كارلوس الخامس. ظلت أمه دائماً في توردوسيلاس، حيث توفيت عام 1555. بدأت الشكوك حول جنون جوفانا من قبل غوستاف أدولف برجنروث (Gustav Adolf Bergenroth)، وهو موظف بروسي وُلد عام 1813، ونُفي بتهمة التمرّد عام 1848، ومات في مدريد عام 1869، وقد أكد، على أساس وثائق ملكية لم تُنشر من قبل[1]، أن الملكة في عام 1520 كانت لا تزال تتمتّع بمداركها العقلية. لا بد أن فرديناندو الكاثوليكي هو من كان وراء قصة جنون ابنته، ليبعدها عن الحكم بعد موت

(1) في عام 1868 أعطى برجنروث إلى الصحافة في لندن، نسخة كاملة من الوثائق التي جمعها تحت عنوان: «مجموعة الخطابات والمراسلات المرتبطة بالمفاوضات بين إنجلترا وإسبانيا»، ومن بين الوثائق التي نُشرت، منحَ أهمية كبيرة للوثائق المائة والأربع التي تتناول الأحداث التاريخية الخاصة بجوفانا القشتالية، والتي يمكن من خلالها إثبات سلامتها العقلية المناهضة للرواية الرسمية التي روجت أنها مختلّة عقلياً. ومن بين تلك الوثائق وثيقة تحوي كتاباً من أدريانو دي أوترخت، البابا المستقبلي هدريانوس السادس، الذي كان مرتبطاً بكارلوس الخامس، وقد نقل فيه إلى الإمبراطور أن الكلّ يشهدون بسلامة جوفانا العقلية، وهو يحدد له أيضاً قناعته بأن الابن استغلّ لقب الأم الملكي استغلالاً سيئاً، وقام بحبسها بالقوة، بذريعة جنونها.

إيزابيللا. ثم استخدم حفيده كارلوس الذريعة نفسها، بعد موت الجد، ليحتفظ بقبضته على قشتالة التي كانت تتأرجح بسبب الثورة الشعبية التي اشتعلت في مايو. وفي أغسطس احتل الثوار توردوسيلاس، محررين جوفانا، في محاولة لأن تنضم إليهم.

استقبلت جوفانا ممثلي الثوار عدة مرات، ولكنها لم توافق قط على أن تقف مع المعارضة ضد ابنها، وكانت ترفض باستمرار أن توقع أي وثيقة تمنح أي شرعية لأفعالهم. كان يمكن أن يدل هذا التصرف من جوفانا، بصفة خاصة، على أنها تتمتع بكل مداركها العقلية. إلا أنها بعد ذلك، وبسبب سوء المعاملة التي تعرضت لها باعتقالها لمدة طويلة، ظهرت عليها أعراض المرض العقلي الشديد الذي أصابها حتى موتها. بعد ذلك بعام، في 1869م، ظهر باحث ألماني، وتناول من جديد بحث برنجنروث، ونشر كتاباً دعمه بوثائق جديدة: «**لغز من التاريخ. حبس جوفانا المجنونة بناء على وثائق جديدة**»[1]، يُفنّد فيه جنون ملكة قشتالة، لا بد أن جوفانا، قد تحولت ببطء مع سبق التعمّد، إثر سلسلة لا تنتهي من أعمال التكدير الصغيرة والكبيرة، فوصلت إلى تلك الحالة المتدهورة.

في عام 1868م، رفض ألويس هايس إعادة التفسير تلك بناء على براهين متنوعة مُقتبسة من وثائق رسمية، وكان مقتنعاً بأن الملكة المستقبلية قد أظهرت علامات تؤكد جنونها عام 1503، تم إثباتها رسمياً في العام التالي لذلك في وصية إيزابيللا[2]. وفي القرن العشرين، نُشرت دراسة أمريكية، لأماري دينيس التي عاشت حياة مديدة مليئة بالمغامرات (1912–2010)،

(1) K. Hillebrand. *Un enigma della storia*, sellerio, Palermo 1986 (ed. orig. 1869).

(2) A. Heiss, *La démence de la reine Jeanne de Castille, femme de Philippe le Beau et mère de Charles-Quint*, in «Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres». 33, 1889, 3, pp. 167-168.

قضت منها ثمانية وعشرين عاماً في أرشيفات مدريد، ونَشَرتْ خمس سير ذاتية، منها واحدة عن الملكة جوفانا. وفي كتابها، الذي اطلعتُ على نسخته الفرنسية التي تعود إلى 1956 [1]، تتمسك دينيس بالقول إن الدليل القاطع هو ذلك المكتوب في الوثيقة الرسمية -وصية إيزابيللا-، وهو يُفسَّر بكونه علامة على إدراك الملكة لحالة ابنتها العقلية، لأنها تشير إلى الجنون كأمر مفروغ منه، دون أن تحاول تقديم مزيد من التفسير. وإلى ذلك كان يمكن إضافة دليل الصمت السابق، ممثلاً في غياب الاعتراض لدى ممثلي المجتمع، من أعيان المملكة وعظمائها المجتمعين في البرلمان، كما لو أنّ تأكيد حقيقة معروفة قد تم، من خلال تلك الإشارة المختصرة[2].

وفي دراسة أحدث، أعادت بيثاني أرام الاعتبار إلى أسطورة تشويه سمعة الملكة -أحد الشخصيات الأشهر في عصر النهضة وإن لم تتناولها الدراسة بشكل كاف-، وقد رُسِمت ملامحها بالطريقة التقليدية كزوجة تحب زوجها بجنون وتسيطر عليها الغيرة، امرأة فريسة لأزمة اكتئاب عميقة، ملكة غير قادرة على الحكم. تتناول أرام، مرة أخرى، الأدلة والوثائق التي تم فحصها بالفعل منذ مائة وخمسين عاماً، قبل أن تتساءل عما إذا كانت جوفانا مجنونة بالفعل، أو كانت مجرد ضحية لعائلة تُخضع أفرادها للسيطرة المُحكمة، وذلك من خلال قمع أي اندفاعات شخصية. إن الأطروحة التي تدعمها هي أن الملكة جوفانا حاولت بكل جهدها أن تضمن خلافة ابنها وأن تفرض على إسبانيا سلالة هابسبورغ العائلية: إنها امرأة لم يستطع التاريخ الأوروبي أن يتعرّف إلى أهميتها العظيمة. إن جنونها، بالتأكيد، سيكون في عدم الخضوع وعدم القدرة على التكيف مع القواعد المفروضة على من هم في

(1) A. Dennis, *Jeanne la folle, mère de Charles V*, Hachette, Paris 1956.

(2) Ivi, pp. 122 sgg.

وضعها الاجتماعي ومن في جنسها، فقد شرعت بالفعل في ثورتها على أمها عام 1503، وأعتقد أن ذلك زاد من حدة شكل جنونها الاكتئابي الذي يمكن معالجته في أيامنا هذه، ولكنه لم يكن مألوفاً وقتها، وخاصة تلك الأهمية في تطور النظام السياسي الأوروبي الذي كتَبَ عليها القدر أن تلعبه[1].

(1) Aram, *Juana the Mad* cit.

الفصل الرابع

الحكم بوساطة المحبة:
أمهات صالحات، أخوات عزيزات، خالات وعمات حبيبات

1. هل الأمر مرتبط بنمط نوعي؟

لقد تأكد بدءاً من القرن الخامس عشر في كل مكان من أوروبا، تقريباً، وجوب الخلافة للأبناء الذكور، سواء في العائلات الأرستقراطية، أو في العائلات الحاكمة. كانت الحجة القانونية التي تستبعد النساء من السلطة في فرنسا تؤكد عدم حق الوريثات في المطالبة بذلك، واضعة القانون السالي على نحو غير محدد الزمن، رابطة إياه بأصول الحكم الملكي، ومحولة إياه إلى أحد القوانين الأساسية في المملكة. يمكن التأكد من فاعلية هذا الاستبعاد في الواقع بأننا عندما نحاول الإحالة إلى حكم ملكي نسائي، فإن الصورة الفورية لا تكون هي الخاصة بالملكة الحاكمة، ولكنها تلك الخاصة بالملكة قرينة الملك[1]. كانت احتفالات تتويج الملكة ومسحها، هي احتفالات

(1) M.A.Visceglia, *Politica e regalità femminile nell'Europa della prima età moderna. Qualche riflessione comparativa sul ruolo delle regine consorti*, in *Storia Sociale e politica. Omaggio a Rosario Villari*, a cura di A. Merola, G. Muto, E. Valeri, M.A. Visceglia, Franco Angeli, Milano 2007, pp. 425-458, p. 427. =

مُكمّلة للاحتفال بالملك، وذلك لتشير إلى عدم استقلالية دورها هذا.

وفي دورها كحاكمة بالوصاية لأحد أبنائها القُصر، تكتسب الملكة شرعيتها من وجود الملك، فحكْمُ كاترينا وماريا دي ميديتشي وآنا النمساوية هو تأكيد للحدود المتزعزعة لسلطاتهن. على كل حال، فلا تلك الأمثلة ولا غيرها تسمح بتقييم فترات الحاكمات بالوصاية بسهولة على أنها فترات عدم استقرار أو فترات خمول ناتجة عن عدم قدرة النساء على الحكم. لكن الحقيقة هي أنهن جميعاً قد تولّين السلطة في فترات حرجة نتيجة موت الملك وصغر سنّ الأبناء المعرَّضين لضغوط الأمراء والتحزبات المختلفة في البلاط.

وعندما نتحدث عن الخضوع لحكم ملكة، لا بد من أن نميز بين اللواتي أصبحن ملكات بحقّ قانوني، وبين من مارسن السلطة بصفتهن حاكمات بالوصاية، نظراً إلى عدم قدرة الأولاد مؤقتاً على الحكم، أو لأنهن مسؤولات عن مهام دقيقة كلّفهن بها الملوك. فإذا اقتصرنا على الحالة الأولى، فإن الذي سيقابلنا في كل مكان في القرن السادس عشر هو بالتأكيد ذلك الرصد لإمكانيات الخلافة النسائية على العرش –سواء تم بنجاح كبير أو ضئيل–، مصدقين على فكرة أن لا بد من اعتبار حكم النساء أمراً مخالفاً للطبيعة، وأن تقييمه في أفضل أحواله يجب ألا يكون في الإطار السياسي، بل في مجال الفضائل البطولية، بما في ذلك القداسة[1]. إلا أن ملكات ظهرن منذ القرن السادس عشر، على قمة السلطة بطريقة تكاد تكون حافلة في الحالات المختلفة للملكات الوصيات: في دور لا يتجاوز النظام «الطبيعي» أو الترتيب الهيكلي بين الجنسين، إذ تجري تغطيته بأسماء ملوك شرعيين،

= يمكن أيضاً الاطلاع على البحث التالي:

M. Nassiet, Parenté, *noblesse et états dinastiques XVe-XVIe siècles*, Editions de l'École des Hautes Études en Sciences Sociales, Paris 2000.

(1) S. Cabibbo, *La santità femminile dinastica (1650), in Donne e fede*, a cura di L. Scaraffia e G. Zarri, Laterza, Roma-Bari 1994.

كنوع من امتداد الوظائف والعلاقات العائلية في حكم الدولة[1].

بالنسبة إلى تلك الحالات أيضاً، وحتى زمن قريب، فإن التاريخ قد أدخل في تقييم القدرة على الحكم تقييم تلك القدرات الفردية، والطباع السيئة وجوانب الضعف، وفضائل الملكات بالوصاية ومميزاتهن «النسائية»، وما إذا كنّ مناسبات للأدوار التي يُعهَد بها إلى النساء في الإطار المنزلي[2]. إن الشكليات والطقوس حول الصفات الملكية قد تسببت على الأرجح في انفصال جزئي عن صُلب الشخصيات الفردية للحكام، وكان لذلك نتائج مختلفة في تقييم الرجال والنساء. فبينما تتمثل سلطة الملك بالمجازات الخاصة بقدسية السلطة، وهي لذلك منفصلة عن شخصيته الحقيقية، لتأكيد المبدأ المعنوي الخاص باستمرارية السلطة -«مات الملك، عاش الملك»-، ظلت شرعية الملكات، مثلها مثل شرعية النساء الأخريات، مرتبطة بالمجال الطبيعي والخصائص الجنسية لدورهن، ثم صاحب ذلك إلغاء حقهن في الخلافة[3].

وهكذا كما كان يتم الاعتراف للأرامل بدوْرهن في حماية الأبناء لضمان مصالح الورثة المباشرين الذين هم في حالة تنافس مع الأقارب، كان يتم تكليف الملكات الأرامل، أيضاً، بوظائف الحكم لمصلحة العائلة الملكية وورثة العرش، وكان هذا يتم بأن يوضع في الحسبان ذلك الرباط العاطفي الذي كان يربط الأرامل بالملوك المتوفين، وبناء على التوقعات

(1) F. Cosandey, *Quelques réflexions sur les transmissions royales maternelles: la succession de Catherine de Médicis, in Women Rulers in Europe. Agency, Practice and the Representation of Political Powers (XII-XVIII)*, a cura di G. Calvi, EUI Working Papers, HEC n. 2008/2, pp. 62-71, http://cadmus.eui.eu/bitstream handle/1814/9288/Hec_2008_02.pdf?sequence=1.

(2) لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على لينش:

K.A. Lynch, *The Family and the History of Public Life*, in «The Journal of Interdisciplinary History», 34, 1994, 4, pp. 665-684.

(3) Cosandey, *Quelques réflexions* cit.

المبنية على حبهن الأمومي وبأنهن سيتصرفن بلا أية أغراض شخصية، بل لمصلحة الأبناء فحسب –وبالنتيجة مصلحة الدولة–، ولكن أيضاً، وعلى الأخصّ، انطلاقاً من استبعادهن من ممارسة السلطة كحق شخصي لهن. على كل حال، تعرضت بعض الملكات بالوصاية إلى لحظات حرجة تتسم بالدقة الشديدة، دفعت بهن إلى أن يُغَلِّبن أهدافهن السياسية على حبهن لأولادهن. كان درس ماكيافيللي فعالاً أيضاً بالنسبة إلى النساء: فقد تصرفت كاترينا دي ميديتشي ضد ميول ابنتها مارغريتا بهدف تهدئة الأوضاع بين الكاثوليك والهوغونيين، وأعلنت كاترينا سفورتسا أنها على استعداد للاستغناء عن أولادها للحفاظ على دولتها.

بينما تظل صورة الملك جامدة في الأيقونية الرمزية، متحولاً بها إلى قمة النظام، ومجسداً السلطة وضامناً للعدل، وممسوحاً من الرب، تبقى وظيفة الملكة بالوصاية، غير مقدسة بأي طقس، كما تظل شخصيتها غير «منفصلة» في الرمز عن حقيقتها الملموسة، هدفاً للهجوم، وخاصة في شكل إهانات لجنسها. من جهة أخرى، ونظراً إلى ضعف الوضع المؤسسي للملكة بالوصاية، يتطلب صعود النساء إلى السلطة القدرة على عقد التحالفات، ومن خلال إبطال التحزبات الموجودة في البلاط وإدارتها، وذلك للحصول على دعمها واكتساب السلطة تبعاً لذلك. لا بد للحاكمات بالوصاية من الارتباط بأعضاء العائلة الطبيعية للملك، ومع عائلات على المستوى نفسه، كعائلات النبلاء، وذلك للدخول في ديناميكية الصراع من أجل السلطة.

إن بحث ناتالي زيمون ديفيز، لعام 1991، «النساء والسياسة»[1]، قد عالج بطريقة مباشرة موضوع ممارسة الملكات للسلطة، طارحاً فرضية كونها «نمطاً

(1) In G. Duby, M. Perrot, *Storia delle donne. Dal Rinascimento all'età moderna*, a cura di N. Zemon Davis e a. Farge, Laterza, Roma-Bari 1991, pp. 201-219.

نوعياً»، من خلال التساؤل عمّا إذا كان يمكن الاعتراف باختلاف محدد في حكم النساء عن حكم الرجال. لقد ظلت إجابتها التي أسستها على فحص حالات إليزابيث تيودر وكاترينا دي ميديتشي وآن ستيوارت، محدودة في إطار خلع ملامح عامة على الشخصيات الفردية، ومحددة في الصور الرمزية التي كانت كل ملكة، بمفردها، ستختارها حتى تعطي الشرعية لطريقة إدارتها للمُلك. لكن دراسة زيمون ديفيز قد مثّلت بوصلة ثمينة للعديد من الدراسات التي نُشرت بعد ذلك، وخاصة في محيط المتحدثين باللغتين الإنجليزية والفرنسية. وقد تم وصف أسلوب إليزابيث بالخشونة الفاتنة.

كانت الملكة العذراء تظهر، إذا استلزم الأمر وكأنها رجل قادرة على تشجيع الجنود، وكانت أيضاً شخصية رمزية، تستحق أن تحلّ محلَّ الصورة الكاثوليكية للعذراء مريم [...]. وكملكة عذراء كان يمكنها أيضاً تأكيد أنها عاشقة وزوجة وأم لشعب إنجلترا ولعشاقها، وكان يمكنها التحدث معهم بحيث تصبح موضوع رغباتهم من خلال لغة الحب [...]. واستطاعت إليزابيث تطوير أسلوب السيطرة الذاتية النسائية مما جعلها تحتفظ بالسلطة الملكية في إطار التفكير الهيكلي للقرن السادس عشر[1].

كانت الخبرة المركّبة لحكم الملكة بالوصاية كاترينا تتسم بوضوح بأسلوب الأم:

> لم يكن مقبولاً أن يكون سلوكها مصدراً للفتنة في شعبها، ولكن كان يجب أن تبدو مخلصة لملكهم الأخير. كما أنها كانت تعكس صورة المرأة التي منحت لفرنسا ملوكها [...]، كان في استطاعتها أن تجعل الأمومة هي مركز حكمها، جاعلة منها مصدر حمايتها، ومحبتها، ودفاعها المستميت عن أبنائها من الذكور وبحثها عن الاستقرار

(1) Ivi, p. 205.

[...]. كان يكمن في هذا أيضاً جزء من الصعوبات التي اعترضتها، فقد كانت صورة الأم وحكم الأم صوراً لها قيمٌ مزدوجة في القرن السادس عشر. عندما تلت الجريمة ليلة الزواج، كما حدث في مذبحة يوم سان بارتولوميو، كان يمكن بسهولة تقديم الملكة الأم على أنها ساحرة (وإيطالية قاتلة بالسم، يجب مطاردتها)[1].

أما بالنسبة إلى آن، ملكة إنجلترا منذ عام 1702 إلى 1714م مع زوجها جورج الدنماركي، وعلى الرغم مما كانت تتميز به من آراء خاصة في الحكم، غالباً ما بدت قاطعةً، فإن علاقاتها بنساء أخريات وبصديقاتها من النساء كانت قوية جداً إلى حد يدفع إلى الحكم عليها بأنها «ضعيفة»، وتسيطر عليها صديقاتها الحميمات. ولكن كان يمكن أيضاً تأكيد كون أسلوبها «النسائي» هو الاستراتيجية المناسبة لتدعيم فكرتها عن العائلة المالكة والوحدة القومية أثناء تلك الفترة التي تزايدت فيها الأحزاب بكثرة. وإذا ما كانت الملكة أكثر ذكورة، فإنها قد تتسبب في ثورة، أما الملكة التي تميل إلى الأمومة فقد تُقابل بالاحتقار[2].

إن بعض العناصر الخاصة بالتكوين الذهني -وخاصة التعليم الإنساني الرفيع- والعديد من أنماط السلوك التي تميل إلى بلوغ حل هادئ للكوارث الداخلية والخارجية هي ما يميز الطابع المشترك بين العديد من الملكات والحاكمات بالوصاية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. ولكن هل يمكن أن نعثر بالفعل على ميل نحو الوساطة، ودعوة لمحاولة رأب التصدعات، وإن بنتائج مختلفة، في حكم الغالبية العظمى من النساء اللاتي تولّيْن السلطة في أوروبا في الأعوام والأماكن التي تميزت بالتوترات

(1) Ivi, pp. 206-207.

(2) Ivi, p. 208.

الكبرى؟ يوجد تفسير يعتمد على الميل إلى السلمية؛ كانت قد صاغته بالفعل فرانسيس ياتس للنزعة الرمزية التي تبنتها كل من إليزابيث تيودر وكاترينا دي ميديتشي. في حالة إليزابيث كانت الصورة السلمية تطرح نفسها بنوع من المرونة الشديدة: «بدءاً من العذراء المنفتحة، البروتستانتية، والمناهضة للباباوات، كان يمكن أن تصبح إلهة أكثر غموضاً»، قادرة على أن تجتذب إلى فلكها سواء البروتستانت أو الكاثوليك «السياسيين» [...]. كان غموض العذراء يخدم الهدف المزدوج من الاحتراس من القوى الغريبة، ويجعل أيضاً المسألة الدينية مختلطة في أذهان رعاياها. كانت العناصر الأسطورية، المركبة والمتناقضة، لرمز إليزابيث العذراء تكون إذن انعكاساً للصراعات والمعارضات التي كان التوافق الإليزابيثي يحاول أن يتغلب عليها. كان «السلام الإمبريالي» لإليزابيث يحجب، وجود توترات داخلية عميقة، واتجاهات دينية متناقضة[1].

وفيما يتعلق بكاترينا، توقّفت ياتس بصفة خاصة عند تقديم «امرأة، في ملامح الملكة الأم، التي تحمل خريطة بلاد الغال» وعند المدائح التي تُلمح إلى مجهوداتها للوصول إلى إقرار السلام [...]. كان إقراراً عادلاً، منح كاترينا دي ميديتشي صورة صانعة السلام في الحروب الدينية، إذ كانت سياستها تتميز دوماً بالنزعة الإنسانية والتسامح: فهي التي كانت قد دعت إلى محادثات بويسي (Poissy)، التي بدأت أثناءها المحاولات للوصول إلى حل في مشكلة الانقسام، وقد كانت محاطة بالمنضمين إلى حزب «بوليتيك»، الحزب المعتدل والمؤيد للمصالحة[2].

(1) F. A. Yates, *Astrea. L'idea di impero nel Cinquecento*, Einaudi, Torino 1978 (ed. orig. 1975), p. 103.

(2) Ivi, p. 160.

الصورة التي يشار إليها هنا هي الصورة الواردة ص: 46، والتي أُعيد استخدامها في كتاب ياتس.

إحدى الظواهر الفريدة التي تبدو وكأنها تصنع نمطاً يقود إلى تفسير تجارب الحكم النسائي حتى وإذا كانت متباينة جداً فيما بينها، إذ يمكن التعرف على هذا النمط من خلال ضروب السلوك التي تُظهِرها العديد من النساء في السلطة أو القريبات من قمة السلطة سواء من خلال روابط الدم أو الزواج؛ ظهرت في مناخ التجديد الديني في النصف الأول من القرن السادس عشر. بالنسبة إلى وسط شمال إيطاليا، تؤكد سيلفانا سيدل مينكي أن النزعة الإنسانية لإيرازموسس كانت تمثلها سيدات ثريات ومثقفات مرتبطات بالسياسة زوجات أو بنات أو قريبات من الدرجة الأولى، وكن أيضاً راعيات لمحاولات التقارب الموسعة بين المختلفين دينياً[1]. في مناخ التجديد نفسه، حتى إذا كان بشكل منفصل جزئياً عن إيرازموسس، نضجت الخبرة الثقافية والروحية لمارغريتا دانغولام (Margherita d'Angoulême)، ملكة نافارا، أخت فرانسوا الأول، وقد ألّفت عام 1531 كتاب «مرآة الروح الخاطئة»، الذي ترجمته إلى الإنجليزية إليزابيث تيودر وعمرها أحد عشر عاماً[2]. كانت أيضاً ضحية لأسطورة مشوهة للسمعة، اخترعها فرانسوا جينا (François Génin) عام 1842 [3] وروّج لها المؤرخ جيل ميشيليه (Jules Michelet) كأخت مُسافحة[4].

(1) S. Seidel Menchi, *Erasmo in Italia. 1520-1580*, Bollati Boringhieri, Torino 1987.

(2) B.S. Anderson, J.P. Zinsser, *Le donne in Europa*, vol. III, *Nelle corti e nei salotti*, Laterza, Roma-Bari 1993, p. 87.

(3) *Nouvelles lettres de la Reine de Navarre adressées au roi François Ier, son frère / publiées d'après le manuscrit de la Bibliothèque du Roi* par F. Génin, Renouard, Paris 1842.

(4) L. Febvre, *Amor sacro, amor profano. Margherita di Navarra: un caso di psicologia nel '500*, Cappelli, Bologna 1980, p. 193.

العمل الذي يشير إليه فيفر لميشيليه هو:

l'*Histoire de France*, T. VII, *Renaissance*, P. Chamerot, Paris 1855, cap. XVI.

أثناء حملة فرانسوا الأول في إيطاليا، ومنذ عام 1524، حكمت مارغريتا دانغولام فرنسا مع أمها لويزا دي سافويا (Luisa di Savoia). بعد القبض على الملك عَقِب معركة بافيا، في فبراير 1525م. شرعت مارغريتا في المفاوضات لتحريره، وفي سبتمبر وصلت إلى فرنسا حيث قابلت أخاها وكذلك شارل الخامس.

كان [...] من الضروري [...] التفاوض، من أجل الحصول على حرية الملك من الإمبراطور، ومن وزرائه ومستشاريه [...]. بذلت مارغريتا قصارى جهدها، فقد جلبت للملك سيئ الحظ تعاطف النساء؛ وتعاطف إيليونورا البرتغالية أخت شارل الخامس، وقد كان قد وقع عليها الاختيار لتتزوج بفرانسوا، وهي التي وقعت في غرام السجين بطريقة رومانسية. إلا أن مارغريتا [...] فوجئت [...] دون أن تتوقع أنها أمام رغبة محسوبة جيداً للاستمرار في حبس فرانسوا.

إثر محاولة فاشلة أخرى لإخراج أخيها، غادرت مارغريتا إسبانيا ومعها وثيقة من الملك؛ فيها «يعهد إليها، في حالة ما إذا تعذّر على أمها لويزا ممارسة السلطة، مهمة أن تتحمل هي المسؤوليات الخاصة بفرنسا وبكل الصلاحيات». ولقد تمّ إطلاق سراح فرانسوا بعد ذلك ببضعة أشهر[1].

وإذا كان الإصلاح البروتستانتي قد انتشر في فرنسا في عشرينيات القرن السادس عشر، فإن الفضل في ذلك يعود إلى حدّ كبير إلى الدعاة الأساسيين للحركة وإلى كتاباتهم التي كانت موضع تقدير من أخت الملك، وقد أصبحت ملكة نافارا عام 1527. درست مايرا أورث كتاباً لم يُنشر «**مقدّمة في تلقين الصّبية الدين المسيحي**». صُمّم الكتاب بحسب ذوق الملكة، وكانت الوثيقة الأصلية قيّمة ورفيعة المستوى، وكانت نتيجة التعليم الإصلاحي

(1) Febvre, *Amor sacro, amor profano* cit., pp. 50-51.

الأول للدين المسيحي للأولاد. في تلك السنوات نفسها أصبحت مارغريتا أمّاً، واستخدمت هذا العمل بالتأكيد لتعليم ابنتها جوفانا[1].

تساءل لوسيان فيفر كيف يمكن أن يتعايش في الشخص نفسه الملكة المخلصة ومؤلفة المجموعة المشهورة من الكتابات الإباحية «*Heptaméron*»، وهو ذلك التناقض الواضح الذي حاول المؤرخ الكبير حله من خلال الوقوف على الوضع النفسي للرجال وللنساء في تلك الفترة الزمنية وبخاصة من خلال إعادة اكتشاف القيمة الأخلاقية العميقة لقصص مارغريتا القصيرة، وهي قصص حقيقية وموجعة، ولكنها لوحات رحيمة للضعف الإنساني وبخاصة للتناقضات المُلازمة للزيجات. تتمّ إدانة تلك التناقضات وخاصة في أشكالها المتجلية في الزيحات الملكية؛ زيجات ليس فيها في معظم الأحيان أي اتفاق في المشاعر، وهي قائمة على حسابات سياسية، ولذلك تتطلب نوعاً من التعويض خارج إطار العلاقة بين الزوجين. لقد تعلمت مارغريتا أيضاً قصص السيدات في عائلتها، فهي حديثة العهد، كما أطلق عليها فيفر، ولكنها ترتبط بالملك ليس فقط كأخته، بل كدوقة أيضاً، وملكة بالأحقية الفعلية، وكبطلة سياسية في زمنها[2].

وُلدت مارغريتا عام 1492م من لويزا دي سافويا، التي بدورها ابنة كونت

(1) M.D. Orth, *Radical Beauty: Marguerite de Navarre's Illuminated Protestant Catechism and Confession*, in «The Sixteenth Century Journal», 24, 1993, 2, pp. 383-427.

يمكن الاطلاع أيضاً على رولكير:

N.L. Roelker, *The Appeal of Calvinism to French Noblewomen in the Sixteenth Century*, in «The Journal of Interdisciplinary History», 2, 1972, 4, pp. 391-418.

(2) B. Stephenson, *The Power and the Patronage of Marguerite de Navarre*, Ashgate, Aldershot (GB)-Burlington (USA) 2004, pp. 114-115.

للاطلاع على سيرة ذاتية حديثة عن مارغريتا يمكن مراجعة شولاكيان:

P.F. Cholakian, R.C. Cholakian, *Marguerite de Navarre. Mother of the Renaissance*, Columbia University Press, new York 2006.

بريس، أحد المؤسسين متوسطي القيمة لفرع حربي لعائلة سافويا. كان الأب، شارل، كونت أنغولام، -عملياً- مجبراً على الزواج بلويزا ابنة لويس الحادي عشر، لأن الملك لم يكن يرغب في أن يعرّض على غرار شارل السلالة الوراثية إلى خطر، وبالنسبة إلى كونت أنغولام كانت فرص وراثة العرش ستزيد من خلال الزواج بسيدة أكثر رفعة من الناحية العائلية.

من جهتها، كانت لويزا، وقد تزوّجت في سن الثانية عشرة، امرأة صبوراً ومقتنعة بإمكاناتها المتواضعة، تزوّجت على مضض برجل تتحكم فيه اهتمامات كثيرة وتتسبب في شروده. واستقبلت أيضاً العديد من الأبناء لعلاقات غير شرعية من الكونت أنغولام الذي تقدّم يطلب الزواج بها، وقد مات في سن الخامسة والثلاثين، تاركاً إياها أرملةً في سن الثامنة عشرة، ومعها مارغريتا البالغة من العمر ثلاث سنوات وفرانسوا ذو العام الواحد[1]. لم يترك شارل الثامن ورثةً مباشرين له من بعده. وفي عام 1498، عند وفاته، تضاءلت أيضاً آثار القرارات التي اتخذها لويس الحادي عشر في زمنه، عندما كان مهتماً بإعاقة لويس الأورليوني (Luigi d'Orléans) -هكذا كما فعل مع شارل أنغولام- فارضاً عليه زيجةً لم تمنحه أملاً في الخلافة، مع ابنته جوفانا المشوهة وغير القادرة على الإنجاب في أغلب الظن (تلك التي وصفها غويتشارديني بأنها «قبيحة وحدباء وعقيم»)، حتى لا يكون ثمة سلالة من عائلة أورليون[2].

(1) عن لويزا ودورها في صعود فرانشيسكو إلى العرش يمكن الاطلاع على فريمان:
J.F. Freeman, *Louise of Savoy: A Case of Maternal Opportunism*, in «The Sixteenth Century Journal», 3, 1972, 2, pp. 77-98.

(2) بعد أن كرست حياتها للعذراء مريم، أسست في بورج عام 1502 نظامَ رهبنة تأملياً فرانسيسكانياً، عذارى البشارة، ودُفنت في كنيسة الدير عند وفاتها عام 1505م. بعد رحيلها بقليل بدأ الناس يتحدّثون عن معجزات الشفاء بشفاعتها. دنّس الهوغونيون مقبرتها عام 1562. وعام 1742 أعلن بنديكتوس الرابع عشر تطويبها، ثم تمّ الاعتراف بقداستها عام 1950 على يد البابا بيوس الثاني عشر، وأصبح اسمها القديسة جوفانا دي فالوا. لمزيد التوسع يمكن الاطلاع على برتيار: =

بقيت أرملة شارل الثامن، الدوقة آنا البريطانية، التي كانت صبية غنية وجميلة. نال لويس الأرليوني، الذي أصبح لويس الثاني عشر، من البابا أمراً سريعاً ببطلان زواجه بجوفانا دي فالوا، وتزوجها. أقرّت الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر ذلك، وكان تبرير تلك الزيجة أنها علاقة حب بين الملك وآنا[1]. أياً كان الحال، وكما كانت رغبة لويس الحادي عشر، فإن فرع أورليون لم يستطع أن يُرزق بأي وريث من الذكور. وفي واقع الأمر أنجبت آنا البريطانية أربعة أبناء لشارل الثامن ماتوا بمجرد ولادتهم، أما بالنسبة إلى لويس الثاني عشر فقد أنجبت له ابنتين: كلاوديا وريناتا. بينما لم يأتِ الوريث الذكر، فقد وُلد ابنان توفّيا بمجرد ولادتهما. وبعد العديد من اتفاقيات الزواج التي قادها لويس الثاني عشر من أجل مارغريتا (المثقفة ولكن الفقيرة، وغير الجذابة أيضاً)، استطاع عام 1506 عقد الخطبة بين فرانسوا، الابن الآخر لشارل دانغولام ولويزا دي سافويا، والبالغ من العمر وقتها سبعة أعوام، وابنته كلاوديا من آن البريطانية. لقد سمحت لمارغريتا ترقية أخيها الاجتماعية تلك، بالعثور، وهي في سن السابعة عشرة، على شريك حياة مناسب وافق أن يتزوجها؛ هو شارل دوق آلنسون.

عام 1514 ماتت آنا البريطانية دون أن تمنح زوجها وريثاً. فتزوّج لويس

= S. Bertière, *Les Reines de France au temps des Valois*, 3 voll., Éditions de Fallois, Paris 1994, vol. I, pp. 101 sgg..

حيث الحديث عن تجربة جان دارك الفرنسية.

(1) A. Le Roux De Lincy, *Détails sur la vie privée d'Anne de Bretagne, femme de Charles VIII et de Louis XII*, in «Bibliothèque de l'École des chartes», 11, 1850, pp. 148-171.

حول استقبال الملكة الحافل عند دخولها إلى باريس لدفنها يمكن الاطلاع على براون:

C. J. Brown, *The Parisian Entry (1504) and Funeral (1514) of Anne of Brittany*, in «Yale French studies», numero monografico, *Meaning and Its Objects: Material Culture in Medieval and Renaissance France*, 110, 2006, pp. 75-91.

للمرة الثالثة بماري تيودر البالغة من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، وأخت هنري الثامن ملك إنجلترا، ولكن لويس توفي في العام التالي. في النهاية، وجدت مارغريتا نفسها أختاً للملك فرنسا فرانسوا الأول، بينما انتظرت ماري تيودر نهاية الدورة الشهرية قبل أن تعود إلى إنجلترا، إذ كانت تأمل في أن تكون حاملاً. وبوفاة الملكة كلاوديا، زوجة فرانسوا الأول، أصبحت مارغريتا المسؤولة عن تعليم بنات الملك. وفي ليون، كانت قد استقرت مع أمها وبنات أخيها حيث كانت ترد إليها الأخبار المتسارعة أثناء المرحلة الأخيرة من الحرب الإيطالية. وعام 1525، بلغها خبر أن فرانسوا قد أصبح أسيراً عند الإمبراطور كارلوس الخامس هابسبورغ. في تلك الفترة نفسها مات زوجها. ووقعت على كاهلها وكاهل أمها لويزا كل مسؤوليات الحكم والمملكة والمبادرة الخاصة بالتفاوض على تحرير أخيها.

بعد عبور البحر المليء بالعواصف، ورحلة منهكة على ظهر الحصان، عبرت مارغريتا نصف إسبانيا ووصلت إلى مدريد. وهناك قابلت فرانسوا، الذي كان مصاباً بالحمى والإعياء من السجن، ثم بدأت المفاوضات من أجل تحريره. كان كارلوس الخامس يطلب زواج فرانسوا وأخته إيليونورا، وهو من كانت سلطاته غير المحدودة ستمتد أيضاً إلى فرنسا. حاولت مارغريتا أن ترتِّب هروب أخيها، ولكن المحاولة باءت بالفشل بسبب خيانة أحد الخدم، وأُجبرت مارغريتا على العودة إلى فرنسا. على كل حال، سبقتها إلى هناك شهرتها كامرأة استثنائية، قادرة على إدارة الحكم من خلال التوكيل الموسَّع الذي تسلمته من أخيها. تم إطلاق سراح فرانسوا بعد ذلك بفترة قصيرة وسمح لها التقدير الذي حصلت عليه بأن تجد سريعاً لنفسها زوجاً آخر: كان الحديث عن كل من هنري الثامن، وكارلوس الخامس نفسه كخاطبيْن لها، ولكنها اختارت إنريكو دالبير، الذي كان

ملك نافارا بالاسم، وهي المملكة التي استعادها الملك عام 1520 من إسبانيا، ولكن كارلوس الخامس انتزعها منه مرة أخرى بعد ذلك بقليل. كان الثنائي ملكاً وملكةً بلا مملكة إذن، ولكنهما عاشا حياة ملكية ممتازة متبعيْن فرانسوا الأول.

2. النزعة الإنجيلية في دوائر البلاط

تم تكوين مارغريتا في الفترة الزمنية نفسها وفي الإطار الثقافي نفسه لريناتا الفرنسية، أخت كلاوديا، الزوجة الأولى لفرانسوا الأول. تأثرت كلتاهما بتعليم معلم اللاهوت وصاحب النزعة الإنسانية جاك لوفافر ديتابل (Jacques Lefèvre d'Étaples)، أحد أهم مؤسّسي النزعة الإنجيلية في فرنسا. أوضحت دراساتُ ديليو كانتيموري (Delio Cantimori) أنشطة الحركة الكالفينية الكبرى حول بلاط عائلة آستي، ورحلةَ كالفينو نفسه عام 1536 إلى فيرارا بناءً على طلب من ريناتا، التي تزوجت عام 1528 بإيركولي الثاني من إيستي، دوق فيرارا. قام الدوق، المرتبط بالكاثوليكية المتشدّدة وبالتوجهات السياسية التي لا تتسامح مع وجود كالفينو في البلاط، باستبعاده، ولكن الدوقة استمرت في مراسلته، وساعد دورها في حمايته على انتشار التعاليم البروتستانتية. وبعد أن حدّ زوجها من نشاطها منذ عام 1554م، وتحديداً في عام 1559 اضطرت ريناتا للعودة إلى فرنسا بسبب معاداة ابنها ألفونسو، الذي أصبح دوق فيرارا، وكان كاثوليكياً شديد التعصب، تتحكم فيه صرامة التوازنات السياسية التي كانت قد تأكدت في ذلك العام في معاهدة السلام التي وُقعت في كاتو كابريسي[1].

---

(1) D. Cantimori, *Eretici italiani del Cinquecento*, Einaudi, Torino 1992, pp. 527-528.
عن ريناتا وإيركولي الثاني، يمكن الاطلاع على مؤلف زوم كولك: =

إلا أن خبرة ريناتا تشهد أيضاً بأن تلك العلاقات النسائية قد استمرت بفاعلية، متشعبةً ومتصلةً في كل أوروبا حتى نهاية منتصف القرن السادس عشر، وكانت أقوى من الجمود العقائدي؛ بدءاً من التماسك الجماعي وإلى غاية التطلعات المشتركة للتجديد الروحي التي كانت تجمع بين البلاطات الأساسية، عبْر التصدعات التي فرضها الانقسام الديني. في حدود عام 1540، عندما فقدتْ مارغريتا دي نافارا جزءاً كبيراً من تأثيرها في أخيها، دخلت في علاقة مع فيكتوريا كولونا، التي كان خوان دي فالديس (Juan de Valdès) يقودها نحو النزعة الصوفية الإيرازموسسية والإصلاحية في آن. عندئذ ارتبطت مارغريتا من حيث النوايا بتلك النخبة من الرجال والنساء، وخاصة السيدات الكبار والأميرات: ريناتا الفرنسية دوقة فيرارا، وإيليونورا غونزاغا من أوربينو[1].

إن تلك العلاقات الموسعة، وذلك التجديد الروحي والثقافي اللذين تركا أثرهما في تكوين العديد من السيدات النبيلات في أوروبا، قد وضعا جميعاً على المحك في النصف الثاني من القرن، بسبب وطأة الخلافات الدينية والسياسية. كان لا بد في تلك الظروف من أن تعمل «المُدبرة» كاترينا دي ميديتشي و«العذراء» إليزابيث تيودر، تحت الضغوط المهيمنة لفيليب الثاني. ومهما كان من أمر، فإن قدرة النساء على القيام بدور الوسيط تم اختبارها، وليس في قمم السلطة فقط.

وفي سبيل فهم أفضل للأطر التي كان يمكن فيها تأكيد بطولات النساء السياسية لا بد أن نبحث في الفترات الانتقالية وفترات انقطاع التوازنات

= C. Zum Kolk, *Les difficultés des mariages internationaux: Renée de France et Hercule d'Este, in Femmes et pouvoir politique. Les princesses d'Europe, XVe-VIIIe siècle*, a cura di I. Poutrin e M.-K. Schaub, Bréal, Rossny-sous-Bois 2007, pp. 102-119.

(1) Febvre, *Amor sacro, Amor profano* cit., p. 307.

الثابتة، وفترات التوترات الاجتماعية القوية. تظهر في دراسة عن جان دي غونتو (Jeanne de Gontault)، وهي سيدة تنتمي إلى عائلة متنفّذة، إذ يمتد مدى عمل النساء الناشطات من الحاكمات إلى الأرستقراطيات طيلة نصف قرن من الحروب الدينية وتحزبات البلاط التي سبّبت الاضطراب في فرنسا. وُلِدت جان عام 1520، وكانت لسنوات عديدة صديقة لكاترينا دي ميديتشي ثم بعد ذلك لمارغريتا دي فالوا؛ واستخدمت ثراءها وقدرتها على نسج العلاقات السياسية -سواء بين الكاثوليك أم الهوغونيين- لخدمة زوجها. ثم فيما بعد ذلك وبعد أن أصبحت أرملة، استغلت كل قدرتها على التأثير لكي تنتقم ممن قتل أحد أبنائها، واستطاعت الحصول على عقاب مناسب للمجرم، الذي كان أحد أصدقاء هنري الثالث المفضلين[1].

أعادت الأبحاث التالية بناء التشعبات الدولية للحاكمات والأرستقراطيات، المثقفات اللاتي يملْنَ إلى التسامح. تخللت تلك التشعبات أيضاً الشبكة العائلية لآل هابسبورغ، كما كان واضحاً بالفعل في أعمال لوسيان فيفر. تعلمت ماريا المجرية مثل إخوتها كارلوس (الذي سيصبح الإمبراطور كارلوس الخامس)، وإيليونورا وإيزابيللا في البلاط النهضوي لمالين (Malines)، في برابانت (Brabante)، لدى عمتها مارغريتا من النمسا، حاكمة هولندا، التي انتشرت أثناء حكمها النزعة الإنجيلية الإنسانوية والنزاعات الدينية، مما اضطر مارغريتا في النهاية إلى الخضوع لسياسة الإمبراطور القمعية[2]. لقد وُصفت سياستها الحاكمة بـ«الحرص»[3]، حتى

(1) R.J. Kalas, *The Noble Widow's Place in the Patriarchal Household: the Life and Career of Jeanne de Gontaut*, in «The Sixteenth Century Journal», 24, 1993, 3, pp. 519-539.

(2) B.J. Spruyt, «*En bruit d'estre bonne luteriene*»: *Mary of Hungary (1505-58) and Religious Reform*, in «The English Historical Review», 431, 1994, pp. 275-307.

(3) L. Febvre, *Filippo II e la Franca Contea. La lotta fra nobiltà e borghesia nell'Europa del Cinquecento*, Einaudi, Torino 1979 (ed. orig. 1970), p. 40.

وإن كان ذلك الحكم لا ينصفها، فهي كحاكمة لم ترغب قط في اتخاذ المبادرة من باب الاستسلام، بل أرادت –بالأحرى– أن تختار بإرادتها وضعاً محايداً في الوقت المناسب. وهو الاختيار الذي اتخذه ممثلو مقاطعة بورغونيا، وقد أصبحت سيدة عليها مدى الحياة منذ عام 1508م، وكان ذلك باستقبال حافل من سكان المقاطعة [...] وهناك عاشت حياة رغيدة مثمرة، في سلام ورخاء [...] وكانت المقاطعة تدين «لمارغريتا» الصالحة، بالقيادة الحكيمة بفضل معاهدتين للحفاظ على الحياد، عقدتهما مع فرنسا «في فترة كان يسودها الاضطراب أكثر من أي وقت مضى»[1].

ترمّلت ماريا التي تزوجت بلودوفيكوو المجري في سن السادسة عشرة من عمرها، بعد أربع سنوات من زواجها، ورفضت أن تتزوج مجدَداً. عام 1531، وبعد وفاة عمتها مارغريتا، خضعت لضغوط كارلوس الخامس وانتقلت بدورها لتعيش في هولندا حاكمة لحساب أخيها. كانت ماريا حتى ذلك التاريخ قد كشفت عن انحياز واضح للنزعة الإنجيلية. وبخلاف الآراء الشائعة، التي تؤكَد أن فصْلاً بينها وبين الأوساط الإصلاحية قد حدث بسبب مسؤوليتها التي أوكلت إليها، يبدو أن ماريا كانت قد اتبعت تياراً من النزعة الإصلاحية الإنجيلية يدخل في صراع أساسي مع ولائها لآل هابسبورغ. عام 1528 وَصفَها كاهن كنيستها الخاصة هينكل (Henckel)، لإيرازموسس بأنها امرأة مثقفة ونصيرة للسلام، وفي عام 1529 أهدى إليها إيرازموسس بنفسه عمله «الأرملة المسيحية».

كانت المهمتان الأساسيتان اللتان عهد بهما إليها كحاكمة هما: تقوية

(1) Ivi, pp. 34, 36-37.

يوجد حكم إيجابي حول حكم مارغريتا النمساوية، التي أبدت قدرة على التفاوض الدولي «أكثر من العديد من الرجال» في مؤلف جانسن:

S.L. Jansen, *The Monstrous Regiment of Women. Female Rulers in Early Modern Europe*, Palgrave MacMillan, New York 2002, p. 90.

حكم آل هابسبورغ ومجابهة الإصلاح. كان على ماريا البقاء في الحكم في هولندا حتى عام 1555. كان الوضع الذي يجب عليها مواجهته هو الحركة الثورية الشعبية الناشئة من جهة، والتخلص من جذور الانشقاق الديني من جهة أخرى. تبنت ماريا خيار المناهضين للمعمدانية واتخذت سلوكاً قمعياً نشطاً، وصل إلى قمته عام 1550، بوصْم معتنقي الهرطقة بأنهم متمردون ومخربون للدولة، وتمّ الحكم عليهم بالموت بلا استثناء، تماماً كما حدث بالفعل في زيورخ وفي مونستر. زادت قسوة ماريا، بصفة خاصة، عندما بدأت الاتهامات بالهرطقة وبمقاومة النزعة المركزية المناهضة لحكم آل هابسبورغ تتجه نحو النبلاء. ولكن لم يكن سراً أنها قامت بنفسها بتهريب كاهن كنيستها، الراهب الكرملي بيير ألكسندر (Pierre Alexandre)، قبل أن يتم التحقيق معه بتهمة الهرطقة، وأن الراهب تم استقباله في هايدلربج من قِبل كل من الكونتيسة دوروتيا (Dorotea)، ابنة كريستيانو الثاني من الدنمارك وإيزابيللا أخت ماريا.

كانت ميول ماريا تجاه مواقف التجديد الديني واضحةً عندما كان يسمح دورها العام بذلك. ولا يبدو أنها أظهرت أي تغيير في موقفها[1]. في الأعوام التالية لعام 1531 كان لا بد من أن تواجه المظاهرات الخاصة بالنزعة الراديكالية التي كانت تناهض، سواء التزاماتها تجاه عائلتها أو تعاطفها مع النزعة الإنسانية الإنجيلية. إلا أن ماريا حاولت أن تفرض سلوكاً متسامحاً فيما يتعلق بالصراعات الدينية بعد عام 1535م فقط، عندما تفجرت عنصرية محاكم التفتيش ضد أحد أتباع النزعة الإنسانوية لإيرازموسس مثل غرافيوس (Grapheus)، فمنعت بذلك تفجّر التوترات. نجح تدخلها في تجنب تكتل

(1) عن البلاط المجري وماريا ونشاطها كراعية للفن والدين يمكن الاطلاع على المؤلف التالي:
O. Rethelyi, *Mary of Hungary in Court Contest (1521-1531)*, Tesi di Dottorato in Studi Sedievali, Central European University, Budapest 2010.

القوات المناهضة لحكم آل هابسبورغ حول التحركات الإصلاحية، وأن تجد الأشكال العديدة المعارضة للحكم الإمبراطوري دفْعَةً إيديولوجية.

كان واضحاً في الفترة الأخيرة من حكمها، أنها بدأت هي أيضاً تفقد السيطرة على المعارضَة، وأن قدرتها على التفاوض بدأت تُستنفد. عام 1555، بينما كان يختمر في ذهن كارلوس الخامس اختياره للتنازل عن العرش، وعندما وصل إلى علمها أن أخاها يتوقع منها أن تستمر في حكم هولندا، كتبت ماريا مذكّرةً طويلة عرضت فيها الأسباب التي لأجلها قررت بدورها تَرْكَ الحكم. كان السبب الأساسي هو إدراكها لظهور بعض الرجال الذين كانوا يجمعون بين سلوك الهرطقة ونزعة التعصب الثوري. وعلى كل حال، كان الظرف السياسي الأوروبي، الذي كانت تعده ماريا مخالفاً لرغبتها في أن تظل مخلصة «سواء لإلهها أو لأميرها»[1]، يشي بتصاعد الصراعات التي وسمت النصف الثاني من القرن.

ألْقت دراسة حديثة لدانيال دويل الضوء على حدس ماريا السياسي، وعلى علاقتها الوثيقة بأخيها، والاستخدام الحذر لعلاقات الرعاية التي جعلت من ماريا إحدى أهم الشخصيات في نظام حكم كارلوس الخامس، وأكثر مستشاريه تأثيراً، مثل نساء أخريات من السلالة الملكية واللاتي كنّ يحللن محلَ أزواجهن في حال غيابهم. وعلى الرغم من أن نموذج الملكة المثالي كان دائماً ذلك المرتبط بالقرينة، فإنّ العديد من النساء من آل هابسبورغ ومن عائلات أخرى اضطررن إلى أن يواجهن بمفردهن فترات عسيرة لضمان استمرارية السلالة. على الرغم من قيام ماريا بهذا الدور في هولندا في سنوات تعُجُ بالأحداث المصيرية، فقد تم إغفال خصالها كحاكمة، وتوقّفَ المؤرخون الأكثر كفاءة عند الملامح الخاصة في حياتها والمعروضة

(1) Spruyt, «*En bruit d'estre bonne luteriene*» cit., pp. 275-307.

في حكايات مستفيضة، تقريباً دون إشارة إلى قدرتها على بناء شبكة من العلاقات المؤثرة والقادرة على دعم إدارتها للسلطة[1].

أثناء فترة حكم «فيليب الثاني» المعقدة، يمكن أن نقيّم، في ضوء الدراسات التالية لها، أهمية مجموعة النساء الحاكمات والوصيات على الحكم في تحديد الاتجاهات السياسية الدولية. مؤكّد أن سلوك «الوساطة» لكل من إليزابيث وكاترينا دي ميديتشي هو ما أدّى إلى التحكم في رد فعل فيليب المتشدد، وصعود ملكتين كاثوليكيتين إلى السلطة في منتصف القرن، هما ماري تيودر ملكة إنجلترا عام 1553، وماريا دي جويزا حاكمة أسكتلندا عام 1554، وذلك ما أدى إلى احتقان الانقسامات في الدولتين والتركيز على الحشد في السياسة الدولية. كان زواج الملكة تيودر بفيليب الثاني، وزواج ماري الأسكتلندية بوريث فرنسا، كلاهما في فترة زمنية وجيزة، ما جعل مخاطر الخلافة النسائية واضحة، وأصبح ذلك موضوع إدانة منظماً من قبل جون نوكس[2]. في الأعوام الأولى من حكم إليزابيث، التي خلفت ماري تيودر، كانت حملة نوكس الضارية قد جعلت الدفاع عن حقوق النساء في الحكم هي إحدى أشدّ المشكلات استعجالاً بالنسبة إلى الملكة[3].

تشابكت الأزمات السياسية–العائلية مع الصراعات الدينية عام 1560، بعد

(1) D.R. Doyle, *The Sinews of Habsburg Governance in the Sixteenth Century: Mary of Hungary and Political Patronage*, in «The sixteenth Century Journal», 31, 2000, 2, pp. 349-360.

إن السير الذاتية المُشار إليها هي تلك التي كتبها ايونغ:
J. de Iongh, *Mary of Hungary*, Norton, New York 1958 والأحدث أيضاً L.V.G. Gortervan Royen, Maria van Hongarije, Verloren, Hilversum 1995.

(2) R.M Healey, *John Knox and Four Ruling Queens, in «The sixteenth Century Journal»*, 25, 1994, 2, pp. 371-386.

(3) M. Christian, *Elizabeth's Preachers and the Government of Women: Defining and Correcting a Queen*, in «The Sixteenth Century Journal», 24, 1993, 3, pp. 561-576.

موت هنري الثاني وفرانسوا الثاني وصعود كاترينا دي ميديتشي للحكم. ممّا يمكن أن يعطي الانطباع بأن التعبير الإشكالي للعدوان تجاه حكومات النساء يرتبط «بالوحشية» الفعلية الاستثنائية لحكم بعضهن. ومن أشهر الأمثلة -ماري وإليزابيث تيودر وماري ستيوارت وكاترينا دي ميديتشي- اللاتي حفزن انتباه المؤرخين (بالنسبة إلى الأختين دي ميديتشي، سوف يتضح أنه لم يكن لما قيل عنهما أي أساس من الصحة)، ما أدى إلى إهمال وجود أي نساء أخريات في أوضاع السلطة.

وحتى عندما تمّ ذكرهنّ، فكثيراً ما كانت الخبرات السياسية للملكات لا تبدو موضوعاً جديراً بأي تعمق، وذلك قبل تطور الرؤية الذي حدث في نهاية القرن العشرين وهو ما قدّمه تاريخ النساء، بل إن ذلك يتسبب، غالباً، في حالة من نزع الشرعية عن الأحكام السابقة. عهد فيليب الثاني بحكم هولندا ومقاطعة فرانكا إلى أخته غير الشقيقة مارغريتا، دوقة بارما، عام 1559، ومنَحها «السلطة الكاملة الحرة والمطلقة» حتى وإن كان، في واقع الأمر قد أدخل العديد من القيود على ممارستها السلطة[1]. هل يمكن بالفعل، كما يؤكد فيفر، تفسير النظام المُركب والمتشابك للسيطرة على الحكم، وقد أدخله فيليب الثاني، من خلال «طباع مارغريتا وقدرتها على التظاهر، وخبثها وإمكاناتها كنصف إيطالية»؟[2].

في واقع الأمر، منذ البداية استطاعت الملكة الحاكمة التوسُّطَ ببراعة خاصة بين الضغوط المتضاربة للنبلاء، وخاصة لغوليلمو دورانج (Guglielmo d'Orange)، وأظهرت ليس فقط كونها «بعيدة النظر»، بل أيضاً نقلت صورة عن نفسها بأنها امرأة لن تتسامح مع عدم احترام سلطاتها في مقاطعة

(1) Febvre, *Filippo II e la Franca Contea* cit., pp. 242-243.

(2) Ivi, p. 243.

فرانكا، وبالنتيجة سلطات الملك أيضاً[1]. ألم يكن الفضلُ يرجع إذن إلى حنكة مارغريتا، «بينما كان الأمر يتعلّق بإدارة الأراضي الحكومية، أو بإدارة مراكز النفوذ، ظهرت في المقاطعة ونُفذت عملياً الأفكار الخاصة بالتنظيم نفسها، ومركزية السلطة»؟[2] وفي نهاية حوالي عقدين من الثورات ومن انتشار إصلاح النزعة الكالفينية –التي جرت مقاومتها بتخبط فريد– كانت الحصيلة عام 1586 «من وجهة النظر الإدارية [...] تشير إلى الاحترام الحتمي للنتيجة النهائية لذلك العمل من التنظيم وتحسين أوضاع المؤسسات القضائية والمالية الذي كانت مارغريتا قد خططت وأعدت له»[3].

توجد إشارة مختصرة لعملها فيما يتعلق بالوضع في هولندا في كتاب «**البحر الأبيض المتوسّط**» لفرناند بروديل:

لا بد من أن نفرق بين التيارات التي كانت سائدة في هولندا. لم تكن كلها من المصدر نفسه، كانت هناك اضطرابات شعبية، وخاصة دينية، وغالباً أيضاً اجتماعية، وكانت هناك توترات أرستقراطية [...]. لقد سبقت تلك الاضطرابات بأربعة أشهر حركة النصف الثاني من أغسطس [1566]، التي –لكونها شعبية ومناهضة للتقاليد– اندلعت في قلب الكنائس ومن خلال تحطيم الصور، وانتشرت بسرعة رهيبة من تورناي إلى انفيرسا، وفي جميع أنحاء هولندا. ظهرت براعة مارغريتا من بارما في أنها وضعت الحركتين في موضع مواجهة. فقد وجهت النبلاء –في ما عدا غوليلمو دورانج والبريديرودي، وقد ذهبا إلى ألمانيا– ضد الحركة الشعبية وفي مواجهة المدينة، وهكذا أعادت الاستقرار، إن لم يكن للسلطة فعلى الأقل للنظام، بلا نفقات،

(1) Ivi, p. 246.
(2) Ivi, p. 274.
(3) Ivi, p. 453.

ودون استخدام القوة، وبمهارة شديدة(1).

إذا كان الوضع المركب إلى حدّ استثنائي قد جعل من المستحيل على مؤرخ في دقّة بروديل أن يتجاهل عمل الملكة بالوصاية، ولا يعطيها تقديراً إيجابياً حتى وإن من خلال هامش من التحفظ، نجد أن ظرفاً متفرداً آخر قد تم وضعه في المرتبة الثانية تماماً، وهو أنه منذ عام 1556، حكمت جوفانا إسبانيا في غياب الملك، وهي أيضاً أخت فيليب الثاني. إن الإشارات عن سياستها الداخلية قليلة، ولكن يبدو أنها تُشير إلى كونها لم تمارس السلطة من موقع الصدارة، وأنها كانت قادرة على تقييم الأوضاع من خلال معالجة امتيازات المدن والنبلاء الكبار، ومن خلال الأزمة المالية الكبيرة للدولة(2). عام 1559 وَضَع فيليب الثاني أخته بعيداً عن صعوبات الوضع الدولي، وبخاصة المشكلة التي هزّت إنجلترا بعد وفاة زوجته ماري تيودر، وعن حقوق الخلافة التي كان يمكن أن يُطالب بها وريث فرنسا، فرانسوا، في أعقاب زواجه في أبريل 1558م بماري ستيوارت(3).

على الرغم من رغبتنا في ألاّ نبالغ في ذلك الحدث، فإنه لَأمر استثنائي أن يؤكد بروديل أن «فيليب الثاني كان لا يثق كثيراً في كفاءة الأميرة جوفانا، نظراً لنزعتها الليبرالية وإخلاصها الديني وأحلامها الطموحة». يبدو أن التحفظات المعتادة لتاريخ القرن العشرين السياسي تبرز على السطح من جديد في مواجهة حكم النساء: ذلك الحكم السلبي، الذي يشير إلى عام 1559م، دون أي أساس آخر سوى إدراك الملك لأزمة هولندا ولفرصة تركيز

(1) F. Braudel, *Civiltà e imperi del Mediterraneo nell'età di Filippo II*, Einaudi, Torino 1976, p. 1113.

يتعلق الأمر بالترجمة الإيطالية للطبعة الثانية من الكتاب، التي نُشرت عام 1966، والطبعة الأولى تعود إلى عام 1949.

(2) Ivi, pp. 750, 1025, 1030-1031.

(3) Ivi, p. 1013.

جهوده على إسبانيا، ليحاول أن يتحكم في الموقف المالي المُدمر، الذي تم استنتاجه في الواقع من مذكرة غامضة لفيليب الثاني، مجبراً على فتح عينيه على سوء الفهم الصاخب للواقع الإسباني[1].

من تلك النظرة الوجيزة على القرن السادس عشر يبدو أننا يمكننا أن نستنتج وجود «أسلوب للنوع»: كان ثمة مجموعة تدعو إلى الدهشة من السيدات الموضوعات في قمم السلطة -وغالباً كان السبب اختياراً صريحاً من أحد الأقارب- وهو الأمر الذي يدعو إلى التفكير في تفسير دورهنّ الموجه بصفة أساسية إلى الاستقرار وتهدئة الصراعات، وهو الشيء الذي لم يكن يستبعد، اللجوء القاسي للقوة أيضاً. وإذا كنا نقصد بعبارة «أسلوب للنوع» أن المعاصرين كانوا يكررون بشكل استحواذي -ضعف الجسد والعقل، السطحية وعدم القدرة على اتخاذ القرار-، إذن بلا أي شك يمكن أن يقال إن هذا النوع من التفسير لم يكن ذا فائدة البتة.

3. نساء في أوقات الأزمات

لاحظ كل من فاني كوساندي وأندريه كورفيزيه المفارقة في أن ملكات فرنسا، بعد أن استبعدتهن مناورة القانون السالي من توارث الحكم، كانت لهن سلطات واسعة النطاق كملكات وصيات أثناء وجود أبنائهن دون سنّ الرشد[2]. لا يثير الدهشة إذن أن تتمَ مهاجمتهن -كنساء- باتهامات مشوهة

(1) Ivi, pp. 1032-1033.

(2) F. Cosandey, *La reine de France, symbole et pouvoir, XVe-XVIIIe siècles*, Gallimard, Paris 2000; Id., *Puissance maternelle et pouvoir politique. La régence des reines mères*, in «clio. Histoire, femmes et sociétés», 21, 2005, pp. 69-90; a. corvisier, *Les régences in Europe. Essai sur les délégations de pouvoirs souverains*, Presses Universitaires de France, Paris 2002; Id., *Pour une enquête sur les régences*, in «Histoire, économie et société», 21, 2002, 2, pp. 201-226.

للسمعة وأن تضيع بجانب ذلك القدرة على التقدير السياسي لدورهن كحاكمات.

لقد تتابع حوْل كاترينا دي ميديتشي أجيال من المؤرخين، ومن الروائيين أيضاً (باستثناء بلزاك)، في وصمها بكافة أنواع المساوئ والشرور، مرددين حرفيّاً الاتهامات الأشدّ تشويهاً للسمعة وقد انتشرت من قبل مروجي الأكاذيب من أعدائها بينما كانت الملكة لا تزال على قيد الحياة، وتم إهمال أي تقدير خاص بقدرتها على الحكم. لقد عكست هذا الاتجاه السيرة الذاتية التي نشرتها في فرنسا دار فايارد عام 1979 وتمت ترجمتها إلى الإيطالية في العام التالي[1]، والتي يؤكد فيها الكاتب كلولا أن الملكة أنقذت المملكة الفرنسية عندما نجحت في أن تجعلها تنجو من فترة بالغة الخطورة. بعد ذلك بفترة قصيرة، ظهرت سيرة ذاتية ثانية لكاترينا، مكتوبة أيضاً بوساطة فرنسي هو جان أوريو[2]. وتشير تحليلاته الدقيقة إلى أن الملكة لم تكن تحمل أية ضغائن شخصية تجاه الهوغونيين: كانت النزعات المتطرفة للاتجاهات الدينية تبدو بالنسبة إليها، وبالأحرى، العقبة الأخطر أمام عملية إعادة السلام للبلاد التي كانت تنفذها بالاشتراك مع حزب «البوليتيك» الذي كان يتطلع إلى الوفاق الوطني والتسامح الديني في مقابل تطرف الحشود الكاثوليكية والهوغونية. إن الحرب المعروفة «بحرب الملوك الثلاثة» - هنري الثالث من فالوا، وهنري من جويزا قائد الجيش الكاثوليكي، وهنري من نافارا، زوج أخت الملك، مارغريتا دي فالوا، وقائد الهوغونيين - والتي اندلعت عام 1588، قبل موت الملكة بعام، أثبتت كم كانت ضعيفة تلك الحصون التي حاولت كاترينا بكل جهدها أن تقيمها ضد الكراهية بين الأطراف المتصارعة. كان ملك نافارا،

(1) I. Cloulas, *Caterina de' Medici*, Sansoni, Firenze 1980.

(2) J. Orieux, *Caterina de' Medici. Un'italiana sul trono di Francia*, Mondadori, Milano 1987.

وقد أصبح ملك فرنسا وحمل اسم هنري الرابع، هو من أكمل عمل كاترينا، مجدداً الولاء للتاج ومشجعاً على التماسك الداخلي للبلاد، حتى وإن كان التوازن الذي ساعده إيمانه بالإصلاح في إنجازه قد استمر فترة وجيزة، وتم إنهاء تجربته السياسية، مع حياته نفسها، على يد قاتل متطرف.

إن السيرة الذاتية التي كتبها جان أوريو مدعمة جداً بالوثائق وتوضح جوانب كانت مجهولة من الحياة في البلاط، من مثل تلك العلاقة الحميمة بين كاترينا ومارغريتا من نافارا، وهي تظهر هنا في البزّة غير المعتادة للمحاربة. ولكن أوريو نفسه لا يهرب من فتنة الإشارة إلى تفاصيل غير مؤكدة عن مارغريتا من فالوا وعن علاقتها الجنسية المزعومة مع أخيها هنري، أمّا فيما يتعلق بفرانشيسكو، دوق آلينسون، والابن الذّكر الأخير لكاترينا فإنّ أوريو يستخدم تعابير صريحة صراحة مزعجة مثل «المسخ» أو «القزم». تلك السيرة الذاتية الروائية، التي ما زالت في حوزة الكثير من القراء، والتي تتطلع في حالة كلولا وأوريو إلى «إعادة تأهيل» كاترينا، لا يبدو لي أنها قد أضافت أي شيء إلى ما قاله بالفعل أونوريه دو بلزاك[1]. في الأعوام الأخيرة تولّت ليوني فرايدا مهمة إعادة بناء جديدة لحياة كاترينا، ومع أنها كانت حريصة على ألاّ تحوّل تأويلها إلى مستوى الأحكام الدفاعية الخالية من النقد، فإنها تنسب إلى كاترينا صفات مثل (الحدس السياسي والشجاعة والرحمة) وقد

(1) H. de Balzac, *La Comédie Humaine. Études Philosophiques Sur Catherine De Médicis*, 1842.

كتب بلزاك في المقدمة أنّ كاترينا دي ميديتشي وكانت حاكمة بالوصاية استثنائية، أنقذت فرنسا في ظروف كان يمكن أن ينحني أمامها أكثر الملوك قوة، وأنه يجب اعتبارها هي نفسها ملكاً عظيماً. حتى في إيطاليا ثمة من أعاد بناء التجربة السياسية للملكة، بشكل ناضج، على أساس علاقاتها بالسفراء، دون اللجوء إلى القصص المتداولة، وأشير هنا إلى مؤلف:

Vita di Caterina de' Medici. Saggio storico di Eugenio Albèri, pubblicata nel 1838 a Firenze da V. Batelli e Figli.

كانت جميعها صفات تنطبق في الواقع على هنري الرابع الذي استطاع إنقاذ فرنسا والحكم الملكي خلال الإصلاح المالي الذي أنجزه وزيره سولي والحرية الدينية التي منحها عام 1598، عبْر قانون نانت (Nantes)[1].

إن زواج مارغريتا دي فالوا، الذي دبرته من دون أي دهاء سياسي الملكتان –كاترينا دي ميديتشي وجوفانا دالبير، ملكة نافارا والبنت الوحيدة لمارغريتا دانغولام، ووالدة هنري البربوني– لتدعيم السلام الديني الذي كان قد تمت الموافقة عليه أخيراً، كان عشية المذبحة الكبيرة سان بارتولوميو (23–24 أغسطس 1572م)[2]. في العقود التالية أيضاً، ستحاول مارغريتا أن تتولى دور الوساطة، من خلال الاعتماد على الوضع المعتدل لحزب «البوليتيك»، الحزب الثالث، الذي يؤيد تجاوز الانقسامات بين الكاثوليك والهوغونيين لمصلحة البلاد واعتماد سياسة أكثر فاعلية مناهضة للإسبان، قريبة كما رأينا أيضاً من سياسة أمها كاترينا. لهذا الغرض تم تكليفها بمهمة دبلوماسية غير رسمية، وبذريعة أن عليها أن تخضع لعلاج بالعيون المائية، ذهبت مارغريتا عام 1577 إلى منتجع مائي، في الأراضي البلجيكية الحالية، ومن هناك إلى فياندري، حيث حاولت أن تدعم ترشيح أخيها فرانشيسكو دالينسون لدى النبلاء الثائرين ضد فيليب الثاني، واستطاعت أن تجري المباحثات على الرغم من وجود دون جوفاني من النمسا باعتباره حاكماً. هذه المهمة، والتي لم تكن لها أية نتائج ملموسة، نموذج على كل حال للدور السياسي الفعال المعترف به للنساء في العائلات الملكية.

في عام 1584 وفي أعقاب وفاة فرانشيسكو دالينسون، وبعد احتدام

(1) L. Frieda, *Catherine de Medici: Renaissance Queen of France*, Weidenfeld & Nicolson, London 2003.

(2) É. Viennot, *Margherita di Valois. La vera storia della regina Margot*, Mondadori, Milano 1994.

الصراعات لتصل إلى حد التطرف، أُغلقت الساحات أمام حزب «البوليتيك» ووجدت مارغريتا نفسها في صفوف الجبهة الهوغونية التي كان زوجها على رأسها؛ ووَقَعت أسيرة في يد أخيها هنري الثالث وأمها. عندما بدأت كاترينا تتفاوض مع هنري البوربوني مقترحة عليه أن ينفصل عن زوجته المحبوسة في أحد الأديرة، بدت مارغريتا وكأنها قد تحولت إلى سلعة كاسدة في المفاوضات بين طرفي النزاع. بعد وفاة الملك هنري الثالث (1598)، أصبحت مارغريتا ملكة فرنسا بالاسم، ولكنها كانت بعيدة منذ فترة عن زوجها، الملك الجديد هنري الرابع، واستمرت في عزلتها في قلعة أوسون حيث نجحت في أن تجمع حولها حلقة من المثقفين. ستصبح على كل حال، بعد ذلك ببضعة أعوام، حلقة مهمة جداً في انتقال السلالة الملكية، وبعد أن وافقت على الطلاق من هنري البوربوني الذي لم تنجب منه، والذي أقدم على هذه الخطوة فقط عندما ظهرت أمامه الفرصة ليتزوج بماريا دي ميديتشي[1].

بعد أن عادت مارغريتا في استقبال حافل إلى باريس -جعلها هنري الرابع تحتفظ بلقبها كملكة-، واهتمت هي بنقل ممتلكات أمها كاترينا دي ميديتشي إلى المولود من الزيجة الجديدة (لويس الثالث عشر لاحقاً)، وذلك بأن منحته حق الوراثة الكامل بالفعل. تم تفسير ذلك التصرف، ذي القيمة الرمزية العالية، وكأنه تسليم السلالة المالكة لعائلة فالوا الشرعية للسلالة المالكة لعائلة بوربوني من قِبَل الممثل الأخير لعائلة فالوا الملكية. في أعقاب قتل هنري الرابع (1610)، أكدت مارغريتا دعمها للملكة الحاكمة ماريا، وبذلت كل ما في وسعها لكي تفشل مؤامرات الأمراء ضد حكمها. وحتى

(1) É. viennot, *Autour d'un «démariage» célèbre: dix lettres inédites de Marguerite de Valois*, in «Bulletin de l'association d'étude sur l'humanisme, la réforme et la renaissance», 43, 1996, pp. 5-24.

وفاتها (1615)، كان لمارغريتا فضل عظيم في كونها حافظت على استمرار السلطة، سواء بأن وافقت على إلغاء زواجها، أم بأن أظهرت علانية ارتباطها بلويس الصغير.

ذلك الملخص الوجيز تم الوصول إليه من خلال عمل صعب ودقيق من الجمع والترميم، الذي استطاع من خلاله إيليان فيينو، لا أن يعيد إبراز حياة مارغريتا الشخصية والخاصة فحسب، بل إنه وقبل كل شيء استطاع إعادة تقدير هذا الثقل السياسي الذي تمّ محوه فعلياً بعد وفاتها ببضعة أعوام من قِبَل مروّجي الإشاعات و«روايات النظام». هذا الجزء بالذات من عمل فيينو هو مصدر استنارة لنسلّط من خلاله ضوءاً على كيفية بناء الملامح المشوهة لصورة مارغو، وقد وصلت حتى أجيالنا، وشهرتها كشخص منحل ومتسيب، وهي لا تزال صورة شعبية في العروض السينمائية الحديثة، مثلما كانت في القرن التاسع عشر من خلال انتشار أعمال كل من جيل ميشيليه وألكسندر دوما. إن أول إشاعتين مشوهتين كتبتا ضد مارغريتا، تلتا ليلة سان بارتولوميو، ومذبحة الكاثوليك ضد الهوغونيين. وقتها بالفعل، وبنيّة التشهير بالعائلة المالكة كلها، تمّ اتهام مارغريتا بالسفاح[1].

انطلاقاً من عام 1585م، ومع بداية حرب الرابطة الكاثوليكية، بدأ إنتاج صحافة تهاجم الملكة فقط بصورة هامشية، وظهرت فيها خاصية من هذا القبيل: «اتهام شخص بالانحلال والانحراف الجنسي هو أقصر السبل لنزع المصداقية عنه، سواء كان رجلاً أم امرأة، أما إذا كان الغرض هو الدفاع عن أحدهم، فإنّ العامل الجنسي يختفي، بلا أي اعتبار لكون المواقف متشابهة»[2]. عام 1592 تحدّث أحد واعظي الرابطة عن مارغريتا على أنها «تلك الملكة

(1) Viennot, *Margherita di Valois* cit., pp. 245-246.

(2) Ivi, pp. 247-248.

المصلحة والقديسة [...] السجينة بين أربعة جدران [...] بينما كان لزوجها حظيرة من المحظيات والعاهرات»[1]. ومن جهة أخرى، وضد أي منطق، كان الكاثوليك المتمون إلى الرابطة يتهمون الملكة العجوز، أمّ ملك نافارا، جوفانا دالبير، بأنها «كانت متاعاً للجميع، وأنه كان يتردد عليها خمسون أو ستون من الوزراء، كانوا يذهبون عندها الواحد تلو الآخر»[2].

عندما عادت مارغريتا إلى باريس بعد فسخ عقد زواجها، أثار موقفها الاستثنائي ردود أفعال متضادة: فثمة من احتفى بفضيلتها، ووُجد من حوّل فِعلتها إلى موضوع نميمة خبيثة؛ بل وفي عام 1607، تمّ نشر مؤلف «**الطلاق الهزلي**» لتيودر أغريبا دوبينيه (Théodore Agripa d'Aubigné) الذي أُنشِئت على أساسه تلك الأسطورة حول حياتها المنحلة البشعة، والمليئة بتفاصيل قُدِّر لها أن تلاقي استحساناً غير مشروط بين المؤرخين والروائيين. إن واقع كون الهدف الأساسي للهجوم قد نُزعت عنه كل الصفات الوضيعة التي نُسبت لزوجته، وهو هنري الرابع الذي أجرم في أنه لم يدافع حتى النهاية عن قضية الهوغونيين، أمر لا ينفي أنه كان، منذ «الطلاق» الذي حصل عليه بعد ذلك، يتطلع إلى أن يستخدم كل قواه ليشوّه صورة آخر من تبقّى من عائلة الفالوا، حتى تّمحي تماماً[3].

بينما كانت التقارير التاريخية الرسمية، قبل موت هنري الرابع تذكر زوجة الملك السابقة على استحياء وباحترام، أظهر القاضي جاك-أوغست دو تو (Jacques-Auguste de Thou)، في عمله الضخم «**تاريخ الأزمنة**»، وكان قد كتبه في الفترة بين عام 1604 و1608م، «الرفض المستمر [...] لتدخل النساء في اللعبة السياسية»، وكانت الفكرة أن النساء في السياسة هن

(1) Ivi, p. 249.

(2) Ivi, p. 437, n. 16.

(3) Ivi, pp. 250-253.

شيء بغيض [...]. بدلاً من أن يمكثن في الظل، يختلطن من أجل نزواتهن، بقصد «الانتقام»، -وهي كلمة تتردد كثيراً- في مسائل لا يفقهن فيها شيئاً، مبعثرات كل الأوراق. إنهن مؤذيات في أعمالهن بسبب النموذج الذي يقدمنه للأخريات، وبسبب القدرة على الاحتفاظ بالأوضاع غير الطبيعية للأشياء: فالحقيقة هي أن الحرية المنحلة لمارغريتا قد ورثتها عن كاترينا[1].

لم يكن لهذا العمل في زمن نشره تأثيرٌ كبيرٌ؛ فقد أثار جدلاً ومُنع من الانتشار. وخلاصة ذلك أن مارغريتا كانت تحظى حتى لحظة موتها بالشعبية والتقدير، ولم يؤثر في ذلك كثيراً الكتابات النادرة ضدها: لقد كانت دائرتها المحدودة جدّاً أكثر إيذاءً لها. عادت إلى الظهور مرة أخرى على الساحة، عام 1618، مثالاً لملكة عظيمة، للإجابة على الرجوع ثانية إلى إشكالية كراهية النساء، وقد كانت وُجهت بشكل غير مباشر إلى الملكة بالوصاية، ماريا دي ميديتشي[2].

في نهاية عام 1630 انتهت محاولات نزع السلطة من ريشيليو (Richelieu)، وقد كانت الملكة الأم ماريا دي ميديتشي وكنتها آنا النمساوية متضامنتين معاً للوصول إليها، فقد كانتا متفقتين على أن للكردينال «تأثيراً سيئاً متزايداً في الملك [...] وكانتا تُدينان سياسته الخارجية العنيفة». وَجَد ريشيليو على الفور في الملكتين الحلقة المفقودة من الجبهة الملكية والتي يريد أن يحدد سلطاتها:

لم يرْضَ إذن بأن يشهد هروب الملكة الأم وتحوّل آنا النمساوية فقط إلى زوجة الملك، وبدأ يحرّك كتّاب الدراما والمؤرخين ليعدَّ هجوماً

(1) Ivi, pp. 258-259.

(2) Ivi, pp. 265-266.

إيديولوجياً عاماً حول القناعة بأن وجود النساء على الساحة شيء شرعي. بطبيعة الحال، كان الهدف الأساسي لذلك الهجوم هو ماريا دي ميديتشي، العدو الخطير، وكانت لا تزال على قيد الحياة؛ ومع ذلك جرى، أثناء تلك العملية التي كانت قد بدأت لتوها، واستمرت حتى فوز الملكية المطلقة، استهداف وإصابة نساء أخريات كثيرات. أما بالنسبة إلى مارغريتا [...] وكتابها «مذكرات» فقد أوردت بشكل واضح ما يمكن أن يكون عليه الدور السياسي للملكات [...]. ولذلك لا يمكن أن تُجرَّد من فضلها بضمها مع الأخريات[1].

في الجزء الأول من القرن التاسع عشر صارت نساء السلطة مواضيع لمؤلّفي الموسيقى والروايات، ذوات شعبية إذ غالباً ما يتم تحويلهنّ إلى شخصيات خيالية. إن الفعلة المُروّعة لمارغريتا بقطع رأس حبيبها بسيف الجلاد، هي من الاختراعات التي وضعها ستندال في رواية «الأحمر والأسود»، ولكن ألكسندر دوما كان من أثبت تلك الأسطورة عام 1845، وقد كان من المُقدَّر لها أن تؤثر أيضاً في المؤرخين، فعن الملكة مارغو، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي تزامن مع انتشار الحركات النسوية الأولى، كانت ثمة استعادة لسِيَر ذاتية وكتابات لنساء «مشهورات»، أو سيدات بلاط، وهي عملية قام بها في المقام الأول مؤرخون من أصول نبيلة. لقد كانت الشخصيات الفردية التي يرغبون في تقديرها في تفسيراتهم أيضاً، على كل حال، منفصلة عن الأحداث المتعلقة بزمانها، وأدى ذلك إلى عدم فهم تصرفاتهن على الوجه الصحيح[2].

(1) Ivi, pp. 275-276.

فيما يتعلق بنقد مؤرخي النظام يمكن الاطلاع على الصفحات التالية: 275–278.

(2) Ivi, p. 356.

ولكن ما حدث في الحقيقة أنّ عملاً ذا تأثير علمي كبير نُشِر في تلك الفترة، عام 1887: سيرة ذاتية لمارغريتا دو فالوا التي صححت، للمرة الأولى، الاختراعات والأساطير المشوهة التي رويت عنها في كل الأعمال السابقة، وكان ذلك العمل يضع في الاعتبار، إضافة إلى سلوكها الخاص، عملها السياسي والعام. من جهته، فإن مؤلف «**تاريخ مارغريتا دو فالوا**»، الكونت ليو دو سان بوانسي (Léo de Saint–Poincy)، لم يكن محصناً هو الآخر من الأحكام الأخلاقية المسبقة، مدفوعاً برغبة في تبرئة بطلة كتابه، إلى أن يسقط في أخطاء تاريخية تعرّض بسببها للهجوم، وقد نال هذا من مصداقية عمله لإصلاح التاريخ[1]. بعد كتاب «**تاريخ مارغريتا**»، وفي الأعوام العشرين السابقة للحرب العالمية الأولى، ظهرت ثلاث سِير ذاتية كبيرة لمارغريتا دي فالوا: توقفت فيها الخيالات الجنسية، وباتت سيدات عصر النهضة موضوعاً لأبحاث دقيقة على صلة بالأهمية التي مُنحت، في تلك الفترة، لمشكلة سلطة النساء السياسية، وظلت تلك الدراسات هامشية، دون تأثير في النصوص الكبيرة لتاريخ فرنسا، والأدب المعاصر[2].

في ثلاثينيات القرن العشرين تقريباً، كانت نتيجة نزع المصداقية عن مؤرخي السِّير الذاتية تضاعف عددها وانطلاق النسخ الروائية الأسوأ والمليئة بالأخطاء من كتب السير الذاتية. كان هذا «الفولكلور التاريخي»، وقد فرض نفسه حتى منتصف القرن العشرين، يُرضي أذواق الجمهور العريض الذي كانت السوق تقدّم منه وفرة من الأعمال متدنّية المستوى. وإذا ما كانت الملكات والأميرات هن موضوع كتابة مطلوبة، فإنّه لم يتم «على الأقل حسبان فكرة أن أولئك النساء قد مارسن الحكم بالفعل، أو كان لهن دور في

(1) Ivi, pp. 362-365.

(2) Ivi, p. 366.

الحياة السياسية في زمانهن»[1]. تمَّ عام 1947، وانطلاقاً من رواية مارغو لدوما، تم عمل النسخة السينمائية الأولى[2]. وفي العقود التالية اتخذت التنويعات العديدة لكتابة السير الذاتية طابع الميل للانزلاق في الكتابة الإباحية، وفقدت في الوقت نفسه أي اهتمام ولو ضئيلاً بالمصداقية التاريخية. عام 1985 ظهر مقال أضاف إلى سمعة مارغريتا دو فالوا، السيئة جداً فعلياً، اتهاماً لم يُذكر من قبل، وهو ذلك الخاص بالمثلية الجنسية[3].

(1) Ivi, p. 388.

(2) Ivi, p. 390.

(3) Ivi, p. 403.

الفصل الخامس

أربع ملكات وجزيرة

1. تسعة أيام من المُلك

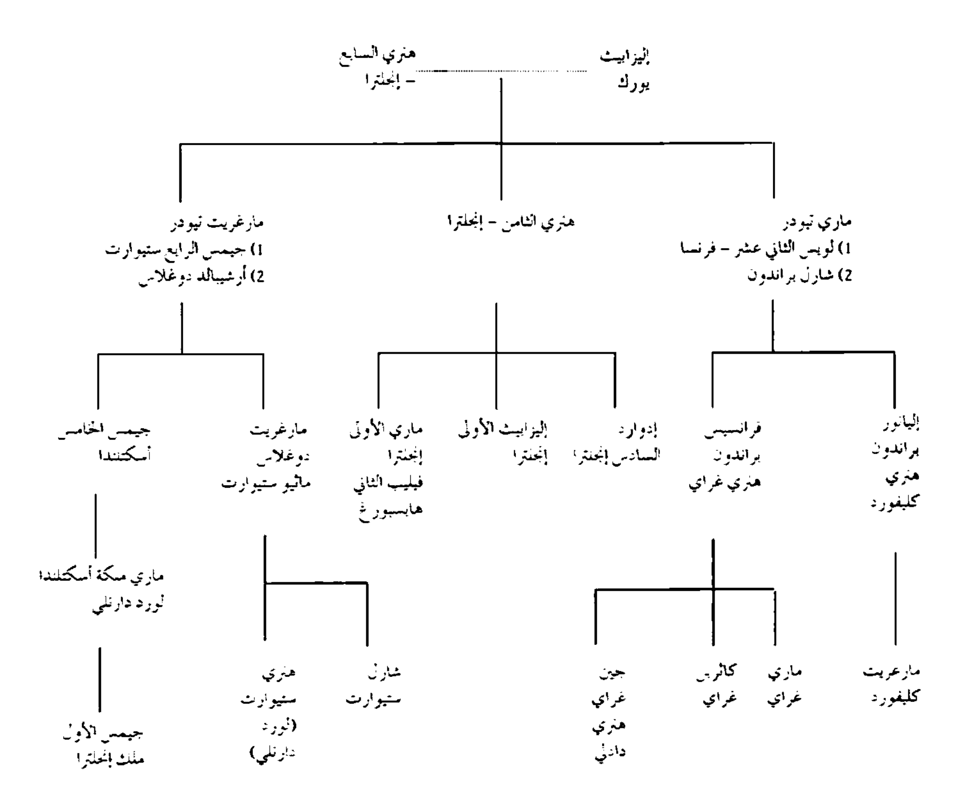
في العاشر من يوليو 1553م، وبعد أربعة أيام من وفاة ابن عمها الملك إدوراد السادس، توجهت ليدي جين غراي بصفتها ملكة إنجلترا إلى رعاياها. كانت جدة ليدي جين هي ماري تيودر، أخت هنري الثامن، وهو ما يجعلها مُرشحة شرعية للعرش، والرابعة في ترتيب الخلافة بعد أبناء عاهل إنجلترا. الأخت الأخرى لهنري الثامن، مارغريت، كانت قد تزوجت بملك اسكتلندا جيمس الرابع، ولكن سلالتها كانت مستبعدة من إمكانية الدخول في سلالة التيودر كما جاء في وصية هنري لأنها ستكون قد جلبت إلى حكم إنجلترا سلالة ملكية أجنبية. وجاء استبعاد إدوارد السادس لأختيه غير الشقيقتين ماري وإليزابيث تيودر والتفضيل المعترف به لجين غراي، وقد كان مؤسساً على نظرية أن الأختين جاءتا من علاقة غير شرعية. إن حديث تولّي جين، البالغة ستة عشر عاماً من العمر، يُعيد تلك المواضيع من حيث إن ماري أصبحت أختاً غير شرعية بعد فسخ عقد زواج الملك بأمها كاترينا الأراغوني، بينما باتت إليزابيث أختاً غير شرعية في أعقاب

الاتهامات بالخيانة والسفاح الموجهة إلى أمها آن بولين التي حُكم عليها وقُطع رأسها. في أعقاب ذلك قام هنري الثامن، ومن خلال عقد الخلافة لعام 1544، بإعادة الحقوق إلى ابنتيه.

يُقال بحسب التقليد، إن الإيمان الأنغليكاني القوي لدى ليدي جين هو ما دفع ابن خالها، وقد كان في سنها نفسها -إذ تربّيا معاً-، إلى عدم احترام رغبة أبيه. يبدو أن إدوارد، الذي يقدمه المؤرخون على أنه شاب عليل الصحة، قد أُصيب فجأة في منتصف فبراير عام 1553 بمرض أدى على الفور إلى موته، حيث كان قد أُصيب بالتهاب رئوي تحول بعد ذلك إلى تسمّم في الدم. إن التهديد المفاجئ لصحة الملك نفسه دفعه، في منتصف مارس، إلى التفكير في خطة لتعديل ترتيب الخلافة الذي أعدّه والده. وبالفعل تمّ وضع التصور الجديد في نهاية الشهر نفسه، وفي الثاني عشر من يونيو، أعلن إدوارد السادس للملأ نواياه بأن يستبعد ماري وأن يتجاهل إليزابيث تماماً لمصلحة جين غراي. وتوفي إدوارد في السادس من يوليو، وكان قد أعلم ماري بمشاريعه بين نهاية مارس وأوائل أبريل، عندما منحها حيازة اثنين من أملاكه الواسعة ليدفعها للموافقة على تنازلها عن العرش. عندما اعتقد أنه حصل على موافقة أخته، استكمل الملك مع مستشاره دوق نورثمبرلاند، جون دودلي، إجراءات تقوية ترشيح ليدي جين للخلافة، وذلك بأن اتفق على زواجها بابن نورثمبرلاند، جيلفورد دودلي، في 25 مايو. طلب الملك بعد ذلك رأي الخبراء القانونيين لدعم ترشيح ليدي جين في منتصف يونيو، ثم كتب على الفور البنود التي تُدعم الخلافة الجديدة.

إن فكرة تعويض ماري عن فقدان العرش بقطعتين من الممتلكات، بغضّ النظر عن اتساعهما، يمكن أن تثير الدهشة وأن يتمّ اعتبارها فكرة لا يمكن تصديقها بسهولة. في واقع الأمر، كانت مارغريتا بوفور أيضاً قد تنازلت

في الماضي عن حقوقها في مقابل أراض. على كل حال أعطى المؤرخون لإدوارد صورة المريض أمراضاً مزمنة، الذي يتلاعب به المستشار المُخادع نورثمبرلاند، هذا الذي كان في استطاعته بهذه الطريقة أن يتحكم في الملك الضعيف، وماري التي أُجبرت على التنازل لمصلحة زوجة ابنه، وهي لم تكن تعلم أي شيء عن خططه. لكن هذا التفسير، يفترض أن ماري كانت مجرد شخصية جاهلة بسيطة، نشأت في الريف، وأنه لا إدوارد ولا نورثمبرلاند قد توقع منها أن تتسبب في مشكلات عسيرة. وكان نتيجة ذلك، بصورة عامة، أن تم النظر إلى انتصار ماري كحدث مثير للدهشة، لم يكن يتوقعه أحد من المعاصرين على الإطلاق.



هذا البناء للأحداث يعتمد، إلى حد كبير، على شهادة سفراء كارلوس الخامس، الذين كانوا يعبّرون عن تفهّم، سطحي إلى حد كبير، للوضع السياسي الإنجليزي، ولشخصية الأميرة نفسها، وهي غالباً ما كانت تقدّم نفسها إلى المبعوثين الملكيين على أنها طفلة ضعيفة، بحاجة ماسة إلى حماية كارلوس الخامس، حفيد أمها كاترينا الأراغوني. إن السيرة الذاتية التي رسمتها ماري لنفسها كضحية لأخيها، غير الشرعي والانتهازي، إدوارد، استمرت في خداع أجيال عديدة من الدارسين. إذا كنا نرفض فرضية الجهل السياسي لماري، فإن التفسير بحسب ما جاء في الوثائق التاريخية وإعادة بناء الأحداث، وفقاً لها، مختلف جداً.

كانت حاشية الملك، بين شهري فبراير ومارس عام 1553م، مُجبرة على مواجهة الظرف السياسي الطارئ الذي تسبب فيه مرض إدوارد، وهو لم يكن متزوجاً ولا ولد له. وبحسب ما جاء في قانون الخلافة لعام 1544، وكان لا يزال سارياً، كان من سيتولى الحكم بعده هي ماري الكاثوليكية المُخيفة. توقّع إدوارد ومعه بطانته الخاصة أن تطارد ماري –بضراوة– الجبهة البروتستانتية التي كان الملك مرتبطاً بها ارتباطاً وثيقاً. إضافة إلى ذلك كان لدى مستشاري الملك أسبابهم الخاصة التي لأجلها يخشون اعتلاء الأميرة العرش، بسبب مجادلة حديثة بينهم حول انتمائها الديني، وقد قُبض عليها في أثنائها وعلى المؤمنين التابعين لها، وأودعوا السجن في برج لندن. على كل حال، كانت فكرة تجنّب حصولها على السلطة قد لاقت بالتأكيد استحساناً كبيراً من الشخصيات الأساسية في مجلس الملك الخاص. بطبيعة الحال، كانت ماري تعلم بحالة إدوارد الصحية، ولم يكن في الإمكان أن تظلّ في منأى عن مشاريعه الخاصة بالخلافة. حالة من السذاجة الرهيبة هي فقط ما كان يمكن أن يمنعها من أن تفهم المعنى من التحالف الذي انعقد في أواخر مايو بين عائلة

غراي والنبلاء البروتستانت من خلال زواج جين وجيلفورد دودلي. والأهم من ذلك أن الوثائق الرسمية التي كانت تعلن عن مراجعة عقد الخلافة قد تم نشرها في نهاية يونيو. كانت ماري بالتأكيد على علم بما يجري حولها، حتى وإن لم ترغب في معرفته.

تساءل المؤرخون عن عدم اعتراض ماري؛ والمؤكد أنها كانت تعلم بالقرارات التي اتخذها إدوارد علناً، بل والأهم لَمَ لم تُسجن الأميرة مؤقتاً بأي ذريعة بدلاً من تركها طليقة فتحشد المعارضة ضد جين غراي. يمكن أن تكون الإجابة على ذلك بأن ماري كانت بالتأكيد تعلم بالمشروع ولكن لا بد أنها قد وافقت عليه (على الأقل بصورة ظاهرية) لتحصل على فرامينغهام وأراض أخرى في مقابل إذعانها. إن واقع تبادل الممتلكات هو أحد العوامل التي تدعم اتفاقيات السلطة التي تدعمها أيضاً شبكة التأييد التي كونها إدوارد ونورثمبرلاند ليضمنَ لليدي جين ولاء السادة البروتستانت مثل كونت هنتينغدون (الذي تزوج في مايو بكاثرين غراي، أخت جين)، والكونت بدفورد، والكونت بيمبروك (الذي أتمّ خطبته في مايو على ماري غراي، أخت جين الصغيرة)، والكونت شروسبيري؛ وجميعهم أشخاص ذوو سلطة، وكانت سيطرتهم على المناطق الريفية ستغدو ضرورية جداً لحفظ النظام، عندما تحين اللحظة المناسبة لضمان الدعم السياسي للملكة جين. وبين شهري يونيو ويوليو تلقى السادةَ الآخرون والمؤثرون سياسياً أراضي وحوافز من إدوارد السادس ومن نورثمبرلاند، أيضاً لضمان نجاح المشروع.

في السادس من يوليو مات إدوارد وتم إعلان جين غراي ملكة. ولدهشة نورثمبرلاند والمؤيدين الآخرين لخطابات الخلافة، لم تلتزم ماري تيودر بالاتفاق الذي كانت قبلته، ونظمت المعارضة ضد جين غراي وأعلنت

نفسها ملكة. عندما أعلن المجلس الخاص رسمياً موت الملك في الثامن من يوليو، أرسلت ماري من قلعتها في نورفولك، في اليوم التالي، تطالب المجلس بأن يعترف بها ملكة. وتحركت الأميرة في 12 يوليو على رأس قواتها الخاصة، وفي غضون يومين انضم إليها هنري راتكليف، كونت ساسكس، وجون بورشيه، كونت باث، ولورد توماس وينتورث وسير توماس كورنواليس. وتركت خمس سفن حربية الجيشَ لتنضمّ إليها.

في 14 يوليو ترك دوق نورثمبرلاند لندن على رأس جيش ليواجه ماري ويقبض عليها لأنها خانت الملكة جين. وبينما توجّه هو إلى كمبريدج، في 19 يوليو في لندن، أعلن المجلس الخاص ماري ملكة. تمّ القبض على الدوق بعد ذلك بيومين وقُطع رأسه، بينما سُجنت جين غراي وزوجها في برج لندن تحت الحراسة الخاصة لمساجين الدولة. انتهت الأزمة، وأصبحت ماري ملكة، وألقت في اليوم نفسه خطاباً مقتضباً، مُذكرة بشرعية وضعها كوريثة حسب إرادة أبيها. بعد ذلك على الفور استقبلت صديقة قديمة، هي فرانسيس براندون، دوقة سوفلك، التي ضمنت العفو عن زوجها. كان من المؤكد أن ابنة فرانسيس، جين غراي، يمكنها هي أيضاً أن تحصل على العفو في وقت لاحق؛ ولكن في فبراير التالي، تم الحكم على ليدي جين، وقد رفضت أن تتحول إلى الكاثوليكية، بالإعدام هي وزوجها[1].

إذا كانت الأزمة السياسية قد تمَ حلها في بضعة أشهر، ماذا تبقى إذن من الملكة جين؟ إن التاريخ الرسمي للقرنين السادس عشر والسابع عشر يذكرها

(1) لإعادة تركيب الأحداث التي أدت إلى إعلان جين ملكة، استعنت بكتاب ماكنتوش وخاصة الفصل الرابع:

J.L. McIntosh, *From Heads of Household to Heads of State. The Preaccession Households of Mary and Elizabeth Tudor*, 1516-1558, Columbia University Press, New York 2008, in particolare il capitolo IV.

عرضاً، ولكن سرعان ما جرت الاستعانة بقصتها لتحويلها إلى بطلة عظيمة للإيمان البروتستانتي، وهي الصورة التي استمرت حتى يومنا هذا[1]. قبل إعدامها بأربعة أيام، وقد تم في 12 فبراير 1554، قام شماس كنيسة القديس بولس، الكاثوليكي جون فيكنام، شماس كنيسة الملكة، بالذهاب إلى برج لندن، حيث دار بينه وبينها حديث ليستطلع قناعتها الدينية. كان النقاش الذي دار بينهما حول الأسرار المقدسة قد تم تقديمه للصحف وكأنه مكتوب بخط يد ليدي جين نفسها، ونُشر في الصحيفة، وأصبح ضمن مجموعة نُشرت عام 1615[2].

وفي اليوم السابق للإعدام، أرسلت جين إلى أختها كاثرين رسالة اختتمتها ببعض العبارات حول موتها الحتمي، وقد ساهمت في زيادة شهرتها كشهيدة: «الآن وقد حان الوقت لأتحدث عن موتي، افرحي مثلي (يا أختي الغالية) لأنني سأتحرر من فساد العالم، وسأصبح في ظروف تساعدني على أن أعيش في صدق تام»[3]. وفي النهاية، وأمام السياف، أكّدت جين أنها لم تكن ترغب قط في إهانة الملكة، وإنما كانت مجبرةً على الإقدام على شيء لم تكن

(1) يمكن الاطلاع على سبيل المثال على الكتاب الذي صدر حديثاً للقس الإنجيلي السويسري كاستللينا:

P. Castellina, *La vicenda di Lady Jane Grey*, e-book pubblicato dal sito tempo di riforma, 2009.

(2) *The life, death and actions of the most chast, learned, and religious lady, the Lady Iane Gray, daughter to the Duke of Suffolke Containing foure principall discourses written with her owne hands. The first an admonition to such as are weake in faith: the second a catechisme: the third an exhortation to her sister: and the last her words at her death*, 1615, copia della British Library, STC 955:16. يصرح الناشر المجهول في الافتتاحية بأنه سلّط الضوء على شهادات أحداث أصبحت تقريباً في طيّ النسيان.

(3) «Now as touching my Death, reioyce as I doe (my dearest sister) that I shall be deliuered of this corruption, and put on incorruption», pubblicata ivi.

مدركة أبعاده، ولكنها تندم على كونها خضعت للمجد الزائل ولمتع العالم[1].

ما حدث لليدي جين عاد مرة أخرى على الساحة بصورة مكثّفة في لحظة أخرى من لحظات الأزمة السياسية، تلك الخاصة بخلافة عائلة الهانوفر، وقد أعادت الانقسامات الدينية التي طفت مرة أخرى على السطح، إلى الحزب الذي كان الملك جورج الأول يؤيده. كانت الملكة جين نموذجاً لامعاً للفضائل البروتستانتية وفي تناقض مع رذائل المدّعين من الكاثوليك، أتباع جيمس، ابن جيمس الثاني ستيوارت. وبين عامي 1714 و1715م كان يوجد إنتاج صحفي غزير عنها، بلغ ذروته بتقديم العرض المسرحي لنيكولاس رو (Nicholas Rowe)، **تراجيديا ليدي جين غراي** «*The Tragedy of Lady Jane Grey*»، التي قام الموسيقار الألماني يوهان كريستوف بيبوش (Johann Christoph Pepusch) —وكان قد استقر في إنجلترا منذ عام 1700— بتأليف موسيقى غنائية لها. على الرغم من أن ثورة اليعاقبة عام 1715م لم تهدد قطّ بصورة حقيقية مملكة جورج الأول ولا الكنيسة الأنغليكانية، فإن تغوّل النزعة الكاثوليكية المطلقة كان واحداً من مواضيع الدعاية السياسية الفعالة للكتّاب الأحرار (whigs)[2]. تمت معالجة الحدث بجدية علمية في بدايات القرن العشرين، وذلك من خلال الإشارة إلى التوترات، التي لم تكن قاصرة على الصراعات الدينية فقط، بل والسياسية أيضاً وهي تُفسّر ندم ليدي جين في نهاية حياتها. تلك النهاية، يمكن أن تُنسب، بالأحرى، إلى غرور دوق نورثمبرلاند وخيانته وكذبه، وكذلك العداوة التي كان يمكن أن تنشأ عن زواج ابنه غيلفورد بطفلة تنتمي إلى العائلة الملكية، وانتشار القناعة بأن

(1) Ibid.

(2) J.I. Marsden, *Sex, Politics, and She-Tragedy: Reconfiguring Lady Jane Grey*, in «Studies in English Literature, 1500-1900», numero monografico, *Restoration and Eighteenth Century*, 42, 2002, 3, pp. 501-522.

ترشيح جين للمُلك كان بسبب ضغوطه على الملك. كان قدرُ جين وماري يعتمد على موازين القوى بين إنجلترا وفرنسا، والإمبراطورية، ومن سينتصر. وسواء أكان الانتماء للنزعة الكاثوليكية أم البروتستانتية، لم تكن لهذا الأمر أهمية كبيرة، فقد تدخل كارلوس الخامس بنفسه فقط عندما نجحت ماري في تنظيم المعارضة بقواتها.

إن سقوط ليدي جين لا يعتمد إذن على انتصار الكاثوليكية بل يعتمد إلى حدّ كبير على عدم شعبية نورثمبرلاند «الدكتاتور»[1]. لقد عاد كتاب حديث ليتناول ذلك الحدث؛ وهو الحدث الذي يمثّل العامل الأساسي في استمرار السياسة الدينية البروتستانتية التي كانت مرغوبة بشدة في الأعوام القليلة لحكم إدوارد الرابع[2]. يقترح تفسير إيريك إيفز، أيضاً، بعض الافتراضات التي تختلف اختلافاً جذرياً عن تلك الافتراضات التقليدية: الدوق «الشرير» نورثمبرلاند لم يستغل، في الواقع، جين غراي بسبب طموحات شخصية، ولا حتى إدوارد السادس الذي أطاع رغبته ولاءً للملك الذي كان قد خدمه منذ أعوامه الأولى على العرش. أما بالنسبة إلى الملك، فقد كان قراره باستبعاد ماري عن العرش قد أملته عليه دوافعه الدينية، إضافة إلى قناعاته بعدم شرعية أخته غير الشقيقة. ورغم أن تلك الافتراضات تستند إلى معرفة عميقة بالمصادر المتوافرة، فإنها لم تفسّر هذا الغموض القائم، إذ يعتمد الكثير من تأكيدات المؤلف على قراءة تحليلية نفسية للعناصر المطروحة نفسها من قِبل من سبقوه، من وجهة نظر عكسية؛ على الرغم من ذلك، فإن الدقة في وضع الشخصيات في سياق الأحداث تكسب الكتابَ قيمة.

(1) R. Davey, *The Nine Days' Queen. Lady Jane Grey and Her Time*, Methuen & Co., London 2009.

(2) E. Ives, *Lady Jane Grey: A Tudor Mystery*, Wiley-Blackwell, Oxford 2009.

2. ستة أعوام لحكم ماري تيودر

في عام 1523م أهدى المفكر الإنسانوي الإسباني خوان لويس فيفيس (Juan Luis Vives) كتابه عن التعليم النسائي المسيحي «*De institutione feminae Christianae*» لكاترينا الأراغوني، التي كانت آنذاك زوجة هنري الثامن، المثقّفة والمرتبطة كذلك بالمثقفين أتباع إيرازموسس، عندما كان عمر ابنتها ستة أعوام. ذلك العمل المشهور، وهو أحد الأعمال القليلة جداً التي كُرّست بصفة خاصة لتعليم النساء، كان المكوّن الأساسي في تربية الطفلة، وهو ما لم يهدف إلى أن يُضيف إلى تعليمها أكثر مما هو مناسب لجنسها، لأن فكرة إعدادها لحكم إنجلترا لم تخطر حتى على بال أبيها، على الرغم من كونها كانت الوريثة الوحيدة في تلك الفترة[1]. لم يكن هنري الثامن قد رزق بعدُ بأولاد ذكور، وكان قد وجّه بالفعل عام 1527 اهتمامه صوب إحدى سيدات البلاط آن بولين. وبمجرد فسخ عقد الزواج مع كاترينا الأراغوني عام 1533 تحولت ماري إلى مجرد لقيطة. بعد ذلك بعشرين عاماً، في 19 يوليو عام 1553م، وفي نهاية فترة المُلك القصيرة لجين غراي، وفي عمر سبعة وثلاثين عاماً، استعادت ماري وضعها كوريثة. بالنسبة إلى الملكة، حتى وإن لم تكن قد أُعِدت إعداداً خاصاً للحكم، فقد قُدّم إليها نموذج الجدّة مارغريتا بوفور،

(1) حول مخطوطة فيفيس ونجاحه يمكن الاطلاع على البحثين التاليين:

G. Kaufman, *Juan Luis Vives on the Education of Women*, in «signs», 3, 1978, 4, pp. 891-896; B.S Travitsky, *Reprinting Tudor History: The Case of Catherine of Aragon*, in «Renaissance Quar terly», 50, 1997, 1, pp. 164-174.

وفيما يتعلق بتعليم ماري يمكن الاطلاع على العمل التالي:

J. Elston, *Transformation or Continuity? Sixteenth-Century Education and the Legacy of Catherine of Aragon, Mary I and Juan Luis Vives, in High and Mighty Queens of Early Modern England: Realities and Representations*, a cura di C. Levin, D. Barrett-Graves e J. Eldridge Carney, Palgrave Macmillan, New York 2003, pp. 11-26.

أي قُدّمت لها صورة سيدة قوية وشجاعة لم تسمح قط بالفساد، إضافة إلى أنها ذات دور نشط في الحياة العامة، كما أنها عملت في السياسة دون أن تهمل قط قناعاتها الدينية. لم تشجع مارغريت أي تنازل يتعلق بالإيمان، حتى وإن كانت متسامحة أمام ضعف شعبها وأخطائه محاولةً أن تساعدهم للوصول إلى الخلاص، حيث كان لا بد من استبدال غرور حكومة بلا قيود وكبريائها بالتوازن والاعتدال[1].

عام 1553م كانت ماري تيودر أول ملكة إنجليزية تُتوَّج في احتفال للمسحة. وفي عام 1558، عندما انتقل العرش إلى امرأة أخرى، إليزابيث، أثناء قداس ماري الجنائزي، كانت المُحتفل بها لا تزال تعاني صعوبة في تحديد وضعها: فقد كانت ماري تيودر ملكةً وملكاً في الوقت ذاته. حيث تم إعلانها ملكة لإنجلترا بعد فشل مؤيدي جين غراي، باستخدام النص نفسه الذي كان يُعتَمد في تصعيد أسلافها الذكور وتم منحها «التاج الملكي لمملكتي إنجلترا وإيرلندا»، وبالتالي منحُها حقّ المُلك على كل من إنجلترا وإيرلندا. ولأنها كانت عملياً أول ملكة حاكمة فقد وَعَدت كل «رعاياها الصالحين» أن تكون بالنسبة إليهم «حاكمة صالحة ورحيمة، مثلما كان الملوك النبلاء أيضاً من قبلها»، ملكة يملؤها الخير، وهي التي استطاعت –باسم انتمائها إلى العائلة الملكية آل تيودر– أن تظهر إمكانيةً طبيعيةً للانتقال بين دوري «الملكة» و«الملك».

في الثالث من أغسطس عام 1553م دخلت ماري، باحتفال كبير، إلى لندن، المدينة التي أُختيرت لتصبح مقرّ حكم جين غراي مدة حكمها الذي استمرّ تسعة أيام، وكان ذلك من خلال عرض مذهل لقوتها وخصالها

(1) L. Attreed, A. Winkler, *Faith and Forgiveness: Lessons in Statecraft for Queen Mary Tudor*, in «The sixteenth Century Journal», 36, 2005, 4, pp. 971-989.

كمملكة. لم يسبق في تاريخ عائلة تيودر أن طُرحت مشكلة حق النساء في المُلك لوجود وريث من الذكور دائماً. ولم يكن للوضع الذي نشأ في منتصف القرن السادس عشر أية سوابق. كان كلّ الورثة الممكنين في هذه المرة من النساء وهن جين غراي وماري وإليزابيث تيودر، وماري ستيوارت. ولدعم شرعية حكم ماري تيودر تم استدعاء نموذج الملكة الأسطورية والمثيرة للجدل سمير أميس[1]. وعلى كل حال، كانت الشكوك تزداد حول إمكانية أن يكون الملك من النساء، وتعاظمت هذه الشكوك عندما أُذيع أن الملكة ماري سوف تتزوّج. وما كان أكثر إثارة للقلق هو أنها ستتزوج بأمير أجنبي هو فيليب من هابسبورغ، ابن الإمبراطور كارلوس الخامس. فإن يكن التاج شيئاً يمكن اعتباره ملكيةً خاصةً تنتقل إلى الورثة مثل ملكية الأراضي، فإنه يمكن بالنتيجة انتقاله إلى امرأة عندما تخلو السلالة من الذكور.

وأيّاً كان الحال، فقد كان من المستحيل بالنسبة إلى رعايا عائلة تيودر المقارنة بين النتائج السياسية للزواج بين ملك وأميرة أجنبية وبين تلك التي يمكن أن تنتج من زواج الملكة الحاكمة بأمير أجنبي. إذا كان لا بد لماري أن تتزوج فإن الأمر خارج نطاق المناقشة؛ إذ كانت الموافقة واجبة، وذلك ببساطة بسبب القناعة بأنه سيكون غاية في الصعوبة بالنسبة إليها أن تحكم بمفردها. كانت هذه الفكرة تعتمد في الأساس على الرأي المنتشر بأن النساء لا يمكنهن ممارسة السلطة بمفردهن، وبالنسبة إلى البعض الآخر بسبب شخصية ماري نفسها[2]. وأثناء الاحتفالات بمناسبة زواج ماري وفيليب، كانت الاختيارات الاحتفالية، والترتيب الهرمي في غاية الأهمية، بما يُظهر

(1) J.M. Richards, «*To Promote a Woman to Beare Rule*»: *Talking of Queens in Mid-Tudor England*, in «The Sixteenth Century Journal», 28, 1997, 1, pp. 101-121.

(2) J.M. Richards, *Mary Tudor as «Sole Quene»? Gendering Tudor Monarchy*, in «The Historical Journal», 40, 1997, 4, pp. 895-924.

ارتباط الملكة بالتقاليد القشتالية الموروثة عن أمها. «كانت الملكة تجلس على العرش الأكثر ارتفاعاً، كما أنها طوال مدة الاحتفال كان يظهر تقدّمها على جلالته [فيليب] لأن كرسي عرش الملك من الفضة وكان عرشها هي من الذهب»[1]. إن حكايات دخولهما المهيب إلى لندن في الثامن عشر من أغسطس عام 1554م تُبرز كيف أن ماري شغلت في تلك المناسبة أيضاً موقعاً أهمّ من ذلك الموقع الخاص بزوجها. كانت الملكة تجلس على اليمين والملك على اليسار، وكان الموضعان المخصصان لهما في الكنيسة مُختارين أيضاً ليُبرِزا أسبقية الملكة، كملكة لإنجلترا على فيليب. وكذلك كان الشأن في طقوس زواجهما، إذ كانت تشغل هي الموضع المُخصص للملك، بينما شغل فيليب الموضع المخصص لقرينة الملك.

من جهة أخرى، كان الحرص على السمو التراتبي للملكة يتناقض مع تفاصيل أخرى للاحتفال بالزواج. وفي واقع الأمر، في لحظة تبادل الوعود الاحتفالية للطقس، أقسمت ماري بأن تتبع زوجها وأن تطيع إرادته سواء بعقلها أو بجسدها. من ناحية أخرى تم تأكيد سموها على فيليب في عقد الزواج المدوَّن عام 1554، الذي تم تحويله بمهابة إلى قانون من خلال المرسوم الذي يُعرف سلطات الملكة وقد تمت الموافقة عليه في الربيع التالي في البرلمان[2]. تدفعنا مقدمة القانون الذي صيغت به اتفاقية تحالف الزواج دفعاً إلى إثبات أن هذه الزيجة لم تحد من سلطة ماري تيودر ووضعها ولا انتقصت منها قط[3]. وفي مراسم جنازتها، لم يكتف وايت أسقف وينشستر بقوله إن «ماري كانت ملكة وملكاً في الوقت نفسه»، بل زاد على ذلك إذ كيف

(1) A. Samson, *Changing Places: The Marriage and Royal Entry of Philip, Prince of Austria, and Mary Tudor, July-August 1554*, in «The Sixteenth Century Journal», 36, 2005, 3, pp. 761-784, citazione a p. 762.

(2) Ivi, p. 767.

(3) Ivi, p. 773.

أنها مهدت الطريق أمام شرعية المُلك للنساء على غرار أختها إليزابيث: «لقد كانت أختاً لها، وهي التي سيكون لها الحق في أن نطلق عليها أيضاً ملك هذه المملكة وملكتها».

إن اتفاقية الزواج تنص على أن من حق فيليب مشاركة الملكة في أسلوب الحكم وأن يُكرم بلقب ملك، إلا أنه من الناحية الدستورية تم الاعتراف له فقط بحق مبهم «يساعد» من خلاله زوجته في إدارة البلاد، وكان لا يزال ثمة مشكلة في كون الأزواج، في ثقافة القرن السادس عشر، أعلى مقاماً من الزوجات. وببساطة يمكن أن يتحكم هو في ماري، فكان ثمة تخوّف من أن يحكم فيليب البلاد، ولذلك كان لا بد من فصل هوية ماري الملكة عن تلك الخاصة بماري الزوجة. ولذلك وُضعت حدود خاصة أمام صلاحيات الملك في بعض التصرفات، ولم يكن له حق التدخل في القرارات الصادرة عن زوجته ولا في توزيع المنح والوظائف، أو منح الأراضي أو الرواتب التي توجه فقط للإنجليز بالمولد. وإلى ذلك، لم يكن بإمكانه إخراجها خارج البلاد من دون موافقتها المكتوبة. كان على الملك أن يكتفي، بعد نزع كل تلك الامتيازات عنه في هذه الزيجة، بأن يمدّ المملكة فقط بالوجه الذكوري الذي ينقصها، من خلال تولّيه الوظائف التي كانت تُعدّ غير مناسبة لها كامرأة، مثل قيادة الجيوش.

وعلى كل حال، إذا لم تكن ماري قد فقدت أيّاً من امتيازاتها من خلال صياغة اتفاقية الزواج، فقد نزع عنها الزواج أحد أهم العناصر الدعائية المؤثرة، وهو عفتها. كانت ماري هي أول امرأة في تاريخ إنجلترا تحكم البلاد بشكل فعلي وبحق فعلي أيضاً، وكانت صور الملكات اللاتي يمكن أن يكُنَّ مصدر إلهام لها قليلةً ومتباعدةً. وكانت عذريتها، على الأقل، سترسخ علاقتها بالدولة، كما سيصبح الحال فيما بعد مع إليزابيث، ولكن بمجرد أن

أصبحت ماري زوجة فيليب، فإن وضعها، حسب الثقافة الأبوية، لم يعد كوضعها بوصفها ابنةً لهنري الثامن. وكانت الصور التي يمكن من خلالها الاحتفاء بالملكة قليلةً جداً، حتى إن الاحتفاء بعد الزواج بفترة طويلة كان لا يزال قائماً، كما فعل الكردينال ريجيلاند بول في الحديث الذي وجهه إلى البرلمان، ذاكراً كيف وصلت إلى العرش وهي عذراء، بلا حماية، وبلا سلاح وبلا أي شيء. وحتى بعد مماتها استمرّ الشاعر جورج كافينديش في الاحتفاء بصعودها إلى العرش وهي عذراء[1].

كانت سلطة الملكة إذن كسلطة الملك، وكان قد تم تحديد تلك السلطة على أساس الهيمنة الذكورية، ولكن الاعتراف بشرعية حقوق ماري تيودر كان تمهيداً للاعتراف بعدَ ذلك بحكم أختها النسائي. استعادت إليزابيث صورة الملكة العذراء أيضاً، لتكون أحد عناصر التأثير والدعاية لشرعية الحكم النسائي، كما أن رفضها الزواج كان سبباً لزيادة هذا التأثير. وفي بداية حكمها، توقّع السفير الأسكتلندي ميلفيل أنها لن تتزوّج قطّ، لأن عدم الزواج سيجعل حكمها كملكة قائماً. وفي استمرارية لما فعلته ماري، تم الاعتراف لإليزابيث بالسلطة الذكورية إلى جانب السلطة النسائية، ولكن نموذج أختها قد كشف كمّ الفخاخ المتربّصة في الاستغناء عن تلك الطبيعة المزدوجة للسلطة عندما ينتقل عنصر السلطة الذكوري إلى شخص آخر فعلي. كان الاعتراف في واقع الأمر بالوضع المثالي للأزواج يهدد بسقوط كل الضوابط الصارمة التي فُرضت على فيليب، وهو الذي ضغط على ماري، بلا توقف منذ عام 1556، حتى تقيم حفلاً لتتويجه. وكان يمكنه أيضاً أن ينجح في ذلك إلا أن الملكة ماتت مبكراً، ولكن هذا التغيير يتضح من الشعار

(1) G. Redworth, «*Matters Impertinent to Women*»: *Male and Female Monarchy under Philip and Mary*, in «The English Historical Review», 112, 1997, 447, pp. 597-613.

الذي تعبّر عنه الصورة الموجودة على النقود والوثائق الرسمية وهي تعكس الدلالات الخاصة بالتفوق بين الملكين: إذ وُضعت صورة فيليب على يمين الملكة، أي في الوضع الأعلى. لم تكن فترة حكم ماري القصيرة، وقد ماتت بعد توليها بعامين، عام 1558، تتيح لنا فهْمَ ما إذا كانت الملكة ستسمح فعلاً بارتقاء الزوج إلى مستواها أم لا. لم يتم تتويج فيليب قطّ، وبقي وضعه حتى النهاية قريناً للملكة[1].

إن تركيز المؤرخين على مُلك ماري، كان قليلاً جداً حتى وقت قريب، وغير كاف من الناحية التأويلية، إمّا لأن تجربة الحكم كانت تُعدّ وجيزة جداً لتقييمها جيداً مقارنة بفترة حكم إليزابيث، أو، وهو الأهم، لأن النوايا الدفاعية أو الهجومية في الحالتين متناقضة، ولذلك فإن التوقف هنا قد لا يكون مناسباً من أجل تأسيس ذلك العبور -أي شرعية الحكم النسائي- الذي تم في إنجلترا في القرن السادس عشر. ولقد كان ثمة نماذج قادت العديد من الباحثين مؤخراً إلى أن يطلقوا عبارة «المَلَكية الجمهورية» على نظام حكم ماري تيودر، بسبب السيطرة التي كانت للبرلمان على قراراتها.

يكشف بحثٌ يعود إلى عام 1989 أن وجهات نظر في حكم الملكة ماري، ظهرت فقط في الأعوام الأخيرة فحسب، تهدم الكثير من القناعات السائدة؛ وعلى سبيل المثال إعادة تقييم تأثير فيليب في قراراتها السياسية[2].

كان العمل الذي يرى ديفيد لودز أنه السبب في شيطنة الملكة تعبيراً عن الكاثوليكية المنتصرة، كان قد نُشر عام 1563م بوساطة جون فوكس. ومن خلال هذا العمل برزت شهرة ماري كشخصية دموية «*Bloody Mary*»[3]،

(1) Samson, *Changing Places* cit., p. 782.

(2) D. Loades, *The Reign of Mary Tudor: Historiography and Research*, in «Albion: a Quarterly Journal concerned with British Studies», 21, 1989, 4, pp. 547-558.

(3) J. Foxe, *Actes and Monuments of these Latter and Perillous Days, Touching Matters of the Church*, John Day, London 1563.

وبعد وفاة الملكة بعام واحد، أعطى توماس برايس للصحافة كتيباً من الأبيات الشعرية التي كانت تحتفل بالقدوم المجيد لإليزابيث، معدداً أنواع العذاب الذي تعرض له الثلاثمائة بروتستانتي ممن حُكم عليهم بالموت، وأغلبهم عن طريق المحرقة، وكان ذلك ما أرادته ماري[1]. كان ثمة أيضاً بطبيعة الحال الدعاية التي تمدحها، والتي تمثّل ماري بطلةً بالنسبة إليها، وكانت فضائلها هي السبب في إنقاذ الأمة من الهراطقة.

في عام 1643م وصفَ هنري كليفورد ماري كمخلوق حزين ورقيق، حكمت بأفضل ما تستطيع، نظراً إلى الظروف المعادية[2]، بينما رأى المؤرخون البروتستانت أن الملكة أقصت رعاياها، ولم تتفهّم تطلعاتهم وسارت ضد إرادة الله. بل عدّوا التعلق بين ماري وفيليب، غير المتبادل على الإطلاق، أحد أسباب فشلها، إذ رسموا صورة للملكة كشخصية غبية مفتونة بزوجها. استمرّ كل من التفسير التقليدي الكاثوليكي، وكذلك البروتستانتي؛ وكلاهما مؤسس على الجدال الديني، حتى القرن العشرين. عادت ماري المرأة الرقيقة التي كتب عنها هنري كليفورد إلى الظهور في السيرة الذاتية –أو بالأحرى السيرة المقدّسة– لجين ستون، وقد حملت فصولها عناوين مثل: **درب الآلام و الملكة المُهملة**[3].

في فترة حديثة، رفض ديفيد لودز مراجعات المؤرخين الذين أعادوا

---

(1) السجل الوجيز الذي يتضمن أسماء أتباع يسوع المسيح وما تعرضوا له من آلام، ممن عذّبوا وحرّقوا بشكلٍ شنيع في إنجلترا، منذ وفاة ملكنا الراحل خالد الذكر الملك إدوارد السادس وحتى بداية حكم صاحبة السلطان ملكتنا العزيزة إليزابيث ملكة إنجلترا وفرنسا وإيرلندا وحامية الإيمان، التي نُسلّمُ لها ونُقِرّ بأنها تملك، بعد الله، مقاليد السلطة والحكم في كنيستي إنجلترا وإيرلندا. عام 1559م

(2) H. Clifford, *The Life of Jane Dormer, Duchess of Feria*, a cura di J. Stevenson, Burns & Oates, London 1887.

(3) J.M. Stone, *Mary the First, Queen of England*, Sand & Co., London 1901.

تقييم شخصية ماري وافترضوا أن الموت المبكر هو ما حال دون حصولها على الإجماع الجماهيري. وتبعاً للودز، لم يكن القدر المعاكس فقط، بل كانت الملكة نفسها -بسبب ترددها المرضي، وسذاجتها المرتبطة بطبعها المتشكك إلى حدّ الاضطراب العصبي، وصلابتها الأخلاقية التي لم تسمح قط بالمساومات- كانت ستؤدي بالبلاد إلى حافة التهلكة. لقد كانت هي بمفردها المسؤولة عن محارق البروتستانت، التي تمت بوحشية بدافع روح الانتقام لا بدافع العدالة[1]. أيّاً كانت الحال، فإنّ أحد آخر الأعمال المنشورة، ذلك الخاص بإيمون دافي، يركز في شخصية الكردينال ريجيلاند بول، الذي أسند إليه مشروع استعادة الكاثوليكية في إنجلترا. وبالنسبة إلى مشكلة المحارق التي تعرض لها البروتستانت، يحاول المؤلف أن يبرّئ منها الملكة وذلك من خلال استدعاء المائتين وسبعين كاثوليكياً الذين حوكموا في هولندا في سبعينيات القرن السادس عشر، والمائتين أيضاً الذين تم إعدامهم ونحرهم بناء على أوامر من إليزابيث، في محاولة منه للتخفيف من وقع الأحكام التي أمرت بها ماري، وتأييداً للرأي القائل بأن تلك الأحداث ينبغي ألاّ تُقيَّم وِفق حساسيتنا نحن. تبقى الخلاصة في تلك الحالة أيضاً افتراضية، فيما لو كان مُقدَّراً للملكة أن تعيش مدة أطول فتنتصر الكاثوليكية[2].

في عام 2010، نشرت آن وايتلوك كتابين بهدف تبرئة ماري. قدّمت في الكتاب الأول صورة سياسية عن الملكة بوصفها رائدة، يدفعها إلى هذا نموذجُ أمها الشجاعة والمحاربة كاترينا الأراغوني. كانت الملكة في تلك الصورة مثالاً للشجاعة والإصرار عندما دافعت عن حقوقها في المُلك ضد مؤيدي جين غراي، وبالنتيجة عندما حثت سكان لندن على الدفاع عنها.

(1) D. Loades, *Mary Tudor: A Life, Basil Blackwell*, Cambridge (Mass.) 1989, p. 236.

(2) E. Duffy, *Fires of Faith: Catholic England Under Mary Tudor*, Yale University Press, New Haven 2009.

وأمام محاولات وايتلوك لأن تُعيد عرض ذكراها، نجد أن المحارق وكذلك خضوعها لفيليب الذي دفعها لحرب مرفوضة من الشعب ضد فرنسا؛ تقف كلها أمام تلك المحاولات[1]. ويتناول الكتاب الثاني لوايتلوك من جديد قصة المرأة التي تجاوزت كل العوائق في صائفة 1553م، فقد كانت الأولى التي تم تتويجها ملكةً لإنجلترا، بعد أن كانت أميرةً ووريثةً، ثم ابنةً غير شرعية محرومة من الميراث. توقفت المؤلفة مرة أخرى عند العلاقة الحميمة بين ماري وأمها الإسبانية، وأمام طفولتها ومراهقتها، ومنافستها لأختها إليزابيث، وكذلك حياتها كشخصية ناضجة. وكانت الأطروحة المقدَّمة هي نفسها؛ أي أن ماري كانت طوال حياتها محاربة، وأنها صارعت لتحافظ على استقامتها، وحقها في أن تشارك في القداس الكاثوليكي. إن ماري التي تظهر في تلك السيرة الذاتية الحديثة ليست امرأة ضعيفة ذات سياسات فاشلة، بل كانت نموذجاً مركباً من شخصية في غاية الشجاعة والإنسانية[2]. وهكذا نجد أن الأحكام الدينية المسبقة لا تزال حاضرة أيضاً إلى حدود القرن الواحد والعشرين.

3. إليزابيث أو انتصار المَلَكية النسائية

في أعقاب موت ماري، قام الأسقف البروتستانتي جون إيلمر، الذي كان منفياً أثناء حكمها، بالردّ على افتراء جون نوكس الشهير: «**النفخة الأولى في البوق ضد وحشية حكم النساء**»، وقد كان يرفض أي شكل من أشكال حكم النساء[3]، وعلى خلاف ذلك قال عام 1559 بشرعية وراثة امرأة أخرى للعرش،

(1) A. Whitelock, *Mary Tudor: Princess, Bastard, Queen*, Random House, New York 2010.

(2) A. Whitelock, *Mary Tudor: England's First Queen*, Bloomsbury, London 2010.

(3) *The First Blast of the Trumpet against the Monstrous Regiment of Women*, 1558. =

إليزابيث، التي كان الجميع يتوقعون منها استعادة الكنيسة الأنغليكانية[1]. على الرغم من أن الأسقف إيلمر نفسه يرى أن دور الملكة «بالوراثة» لا يناسب النساء بصفة عامة، فإنه يعتقد أنه بالإمكان وجود بعض الاستثناءات عندما يكُنَّ مدعوّات إلى شغل هذا المنصب من قِبَل العناية الإلهية. إضافة إلى ذلك، كان هذا ممكناً ولا يعرّض إنجلترا للمخاطر، حيث كانت السلطة الملكية للملك أو للملكة محدودة في ما يتم الاتفاق عليه سواء مع النبلاء الذين كانوا يمثّلون النخبة، أو مع الفرسان والمواطنين الذين يمثّلون الديمقراطية. لم تكن الملكة هي من تصادق على الدساتير والقوانين بل البرلمان. اختتم إيلمر قائلاً إنه إذا كان المُلك يتمّ بشكل مطلق وليس بشكل مختلط، وإذا كانت السيطرة القوية في يد رجل، كان هو أيضاً سيخشى العواقب وسيرفض صعود امرأة إلى العرش.

إن هذا الدفاع القوي الذي قدّمه إيلمر يمثل جيداً توقعات البروتستانت، الذين كانوا أكثر المؤيدين المقتنعين بإليزابيث، وخاصة إذا انتبهنا إلى أن العمل الصحفي الأكثر انتشاراً في بداية ملكها كان «تحذيراً للرعايا المخلصين والأمناء». وكان تحكّمُ البرلمان في التشريع وفي النظام الملكي قد تم تأكيده بالإجماع في بداية حكم إليزابيث، رغم أن الثقافة السياسية كانت تقدّم نفسها على كونها نظاماً تشريعياً مختلطاً للمَلَكية الإنجليزية من أجل حماية حريات الرعايا وكانت هذه الثقافة في الأصل أقدم من ذلك بكثير، ولكن

= لمزيد التوسع حول هذا التشهير يمكن الاطلاع على البحثين التاليين:
R.M. Healey, *Waiting for Deborah: John Knox and Four Ruling Queens*, in «The Sixteenth Century Journal», 25, 1994, 2, pp. 371- 386 e E. Gusberti, *The Star of England. La concezione della regalità in Inghilterra e il mito di Enrico V (secoli XIV-XVII)*, Bononia University Press, Bologna 2009, particolarmente a p. 97
حيث يلاحظ كيف أن توالي امرأتين على العرش الإنجليزي دعّم سلطات البرلمان.

(1) *An Arborovve for Faithfull and Trevve Subiectes agaynst the Late Blowne Blaste concerning the Governement of VVemen...*, 1559.

نظراً لأن وريث آل تيودر كان امرأة مرة أخرى، جرى تبنّي هذه المسألة من جديد. دعم إيلمر بشدة ألاّ تأتي سلطة التاج من شخص الملكة إليزابيث بل تأتي من وحدتها مع البرلمان، وكان تأثير هذا المبدأ هو العمل على زيادة السلطة الجماعية لأولئك الرجال، الذين أصبحوا من خلال الميلاد والمنصب والثقافة ذوي ثقل سياسي وصوت في حكم الدولة[1].

أشار ميشيل فينو إلى الطريقة التي تعاملت بها إليزابيث الأولى مع صعوبة الاعتراف بشرعيتها التي واجهتها بسبب كونها امرأة، وذلك من خلال تقديم صورتها كملكة أكثر مجداً من أيٍّ ممن سبقوها في ملوك عائلة آل تيودر الملكية. ففي قصيدة إدموند سبنسر «**ملكة الجن**» (*The Faerie Queene*)، قُدّمت إليزابيث الأولى مجازاً على أنها غلوريانا[2]. وفي خطبة للبرلمان عام 1559 قُدِّمت الملكة نفسها كمن تفيض محبةً على رعاياها. وفي خطاب آخر، قَدَّمته قبل موتها بعامين، عام 1601م، عرفت أسلوب حكمها كدليل على الرحمة التي ظهرت في ممارسة العدالة بنزاهة.

في عام 1559م أعلنت الملكة الشابة أمام البرلمان أهمية وضعها كعذراء، ولكن كانت الإشارة إلى الحب الأمومي النسائي في لقاءاتها العامة في الأعوام التي تلت عام 1563 واضحة: كانت عذريتها موضوعاً للتبجيل من قبل الرعايا، عنصراً من عناصر الدعاية فقط منذ عام 1584، وذلك في تزامن مع موت الأمير الفرنسي فرانشيسكو إيركولي، الذي كانت تراسله منذ فترة طويلة[3]. وسواء في خطابها لعام 1559، أو ذلك الذي ألقته عام 1601

(1) A. McLaren, *The Quest for a King: Gender, Marriage, and Succession in Elizabethan England*, in «Journal of British Studies», 41, 2002, 3, pp. 259-290.

(2) J.m. Walker, *Spenser's Elizabeth Portrait and the Fiction of Dynastic Epic*, in «Modern Philology», 90, 1992, 2, pp. 172-199.

(3) M.B. Rose, *The Gendering of Authority in the Public Speeches of Elizabeth*, in «PMLA», 115, 2000, 5, pp. 1077-1082.

فإن كلماتها كانت تكشف أيضاً عن ضعف التوازنات التي كانت تؤسس عليها سلطتها؛ ولكي تتخطى ذلك الضعف، أثبتت إليزابيث قدرتها الخطابية التامة، بأن قدّمت في البداية الشكر لأعضاء البرلمان على إخلاصهم لها، ثم أحبطت رغبتهم في التمرد وذلك بأن دفعتهم إلى أن يثبتوا أنهم مستحقون للثقة التي يمنحهم إياها الملك[1]. ومثلما فعلت أختها، غير الشقيقة ماري، أظهرت إليزابيث الأولى حبها لرعاياها بطرائق أخرى أيضاً، على الرغم من أنها طرائقُ أقرب إلى الممارسات الكاثوليكية، مثل تقليد غسل أرجل الفقراء في الخميس المقدس[2]. عرض لويس مونتروز أساليب المخيال السياسي تلك لحقبة إليزابيث، وقد كان ذلك المخيال يتكون من تراث الأشكال الرمزية الأسطورية التي اجتاحت الإنتاج الأدبي والمجازي، والتي تم بوساطتها تدعيم الحقوق الوراثية لوريثة عائلة تيودر[3].

من الصعب جمع خلاصات الأدب الدعائي الغالب الذي رافق السنوات الأربع والأربعين من مُلك إليزابيث الأولى (1558–1603م)، كما هو الشأن من جهة أخرى أيضاً في ذلك الأدب الموازي من إنتاج المؤرخين والأدباء ومؤرخي الفنون. وبلا أي ادعاء للكمال سأكتفي بعرض بعض الأمثلة حول الاهتمام الذي لم يركّز في حالة إليزابيث وخاصة في الأعوام الأخيرة؛ في طرائق ممارسة الملكة السلطة في المجالين الوطني والدولي، بل ركز في الدعاية والتعبيرات الرمزية المختلفة، التي شكّلت نوعاً من الدروع الحامية، وصرفت

(1) M. Vignaux, *Gloriana: Elisabeth I^re d'Angleterre ou la gloire incarnée*, in «Histoire, économie et société», 20, 2, 2001, pp. 151-161.

(2) C. Levin, *«Would I Could Give You Help and Succour»: Elizabeth I and the Politics of Touch*, in «Albion: A Quarterly Journal Concerned with British studies», 21, 2, 1989, pp. 191-205.

(3) L.A. Montrose, *Spenser and the Elizabethan Political Imaginary*, in «ELH», 69, 2002, 4, pp. 907-946.

انتباه المعاصرين عن إشكاليات الشرعية المشكوك فيها، وعن الجنس، وعن موقف الملكة العزباء، في اتجاه جانب آخر هو التجلي في الخطابة. ما زال المؤرخون حتى اليوم، متأثرين تأثراً كبيراً بالمخيال السياسي لعصر إليزابيث، باستثناء كريستوفر هيج، الذي، وعلى العكس، ركز في علاقات الملكة بالمحاور المختلفة لسلطتها، من الكنيسة إلى البرلمان، ومن المجلس الخاص إلى الأغلبية من النبلاء، من قادة الجيش إلى قادة البحرية[1].

وبأخذ بعض الأعمال الحديثة في الحسبان، يمكن تمييز أثرين أساسين تناولا العلاقة بين الملكة وتجلياتها الرمزية، كلاهما على ارتباط بمسألتي فاعلية أسطورة العذرية وسيلةً للدعاية السياسية، ومنح الشرعية للملكية النسائية. ثمة كتابان، أحدهما لإيلونا بيل، والآخر لآنا رايل، صدرا في العام نفسه وعن السلسلة نفسها «حكم الملكات والسلطة»، التي نشرتها دار نشر بال- غراف ماكميلان[2]، وقد بُنيت السلسلة على نظرة أعمق إلى تلك المواضيع، وتطورت بدءاً من تسعينيات القرن العشرين، ويمكن عدّها من الملخصات التأويلية الأكثر إقناعاً في بانوراما النشر التي أصبحت أكثر ثراءً بمناسبة المئوية الرابعة لموت الملكة[3]. تؤكد إيلونا بيل أن النصف الأول من حقبة مُلك إليزابيث الأولى كان تسوده محاولاتها بأن تقرر بنفسها ما إذا كانت ستتزوج

(1) C. Haigh, *Elizabeth I. Profiles in Power*, Longman, London 1988.

(2) I. Bell, *The Voice of a Monarch*, Palgrave Macmillan, New York 2010; A. Riehl, *The Face of Queenship: Early Modern Representations of Elizabeth I*, Pal-grave Macmillan, New York 2010.

(3) من بين مجموعة المقالات المنشورة عن تلك المناسبة أذكر:
Elizabeth I: Always Her Own Free Woman, a cura di C. Levin, J. Eldridge Carney, D. Barrett- Graves, Ashgate, Aldershot (GB)-Burlington (USA) 2003 e *Queen Elizabeth I: Past and Present*, a cura di C. Jansohn, Ilt Verlag, Münster 2004.

وبمن ستتزوج، وذلك في تناقض واضح مع الفكرة التي كانت تربط مصير كل امرأة بالزواج وتجبر الملكة على زواج تمليه عليها الأوضاع السياسية. كان لإصرارها على أن تؤكد استقلالها في اختيار زوجها أثرٌ في الرأي العام، ما أدى إلى تغيير في السلوكات المعادية للمرأة في البلاط ولدى عامة الشعب. لقد تأسس هذا التغيير على المقالات التي كانت قد بدأت منذ نهاية القرن السادس عشر في التعبير عن مواقف مؤيدة للطبيعة والقدرات النسائية[1]، أو على خطب وأبيات شعرية استطاعت من خلالها إليزابيث الأولى أن تجعل صوتها كملكة وامرأة مسموعاً، وخاصة في أشعار الحب، التي حطّمت فيها قواعد الكتابة الغنائية على نمط بتراركا وقد كانت هذه القواعد تجعل الوسيلة الوحيدة للتعبير قاصرة فقط على الرجل.

تعكس آنا رايل هذا المنظور، وبدلاً من أن تحاول جمع التعبيرات المباشرة لشخصية الملكة فإنها تعيد قراءة المجلد المنشور بالفعل عام 2006 للويس مونتروز على أساس مقالات سابقة مهمة[2]، تلك الخاصة بمؤرخين آخرين عادوا في العقود الأخيرة للقرن العشرين -في أعقاب روي سترونغ وفرانسيس

(1) يمكن على سبيل المثال الاطلاع على:

Penelopes vveb VVhere, in a Christall mirror offeminine perfection represents to the view of every one those vertues and graces, which more curiously beautifies the mind of women, then eyther sumptuous apparell, or iewels of inestimable value: the one buying fame with honour, the other breeding a kinde of delight, but with repentance. In three seuerall discourses also are three speciall vertues, necessary to be incident in euery vertuous woman, pithely discussed: namely obedience, chastity, and sylence: interlaced with three seuerall and comicall histories. By Robert Greene Master of Artes in Cambridge, 1601.

(2) L.A. Montrose, *The Subject of Elizabeth: Authority, Gender, and Represen tation*, University of Chicago Press, Chicago 2006; Id., *Idols of the Queen: Policy, Gender, and the Picturing of Elizabeth I*, in «representations», 68, 1999, pp. 108- 161; Id., Spenser and the Elizabethan Political Imaginary cit.

ياتس[1]– إلى دراسة النزعة الرمزية تلك المرتبطة بشخصية الملكة[2]. إن الجديد في كتاب آن رايل يتمثل في التركيز في وجه الملكة وتمثيلها في الشعر، في اللوحات والتقارير الرسمية والعلاقات مع المراقبين الغرباء للبلاط، وذلك لإظهار التناقض بين الصورة الحقيقية للوجه الذي تغير مع مرور الأعوام، والثبات في تمثيل جلالتها بالعودة في السنوات الأخيرة من الحكم إلى الصور الشابة للسنوات الأولى. إن تلك النضارة المعجزة، التي نقابلها في لوحات تسعينيات القرن السادس عشر، ليست من دون استثناءات، فلوحة قوس قزح الشهيرة، المنسوبة إلى ماركوس جيرارتس (Marcus Gheeraerts) الشاب، والمرسومة عام 1592م للمرأة المصورة، تجمع قبل كل شيء بين الحكمة والكرامة اللتين اكتسبتهما عبر سنوات عمرها.

في عام 1995م نشرت سوزان دوران مقالاً مهماً حول مشروعات الزواج لإليزابيث الأولى، والتأكيد المتأخر لرمزية الملكة العذراء[3]. وعلى الرغم من

---

(1) R. Strong, The Cult of Elizabeth: Elizabethan Portraiture and Pageantry, Thames & Hudson, London 1977; F.A. Yates, Astrea. L'idea di impero nel Cinquecento, Einaudi, Torino 1978 (ed. orig. 1975).

كتاب سترونغ هو أول منشور مُصَّور يتناول سيرة إليزابيث، إذ يمكن من خلال ما يتضمنه من صور اكتشاف المعنى الرمزي والمجازي في ضوء الوثائق التي تشهد إجراءات تنفيذ تلك الصور.

(2) أذكر هنا سترونغ:

R. Strong, *The Cult of Elizabeth* cit. e Id., *Gloriana: The Portraits of Queen Elizabeth*, Random House, London 2003.

(3) S. Doran, *Juno versus Diana: The Treatment of Elizabeth I's Marriage in Plays and Entertainments, 1561-1581*, in «The Historical Journal», 38, 1995, 2, pp. 257-274.

حول ضرورة أن نأخذ في الحسبان تلك المفاوضات الخاصة بالزواج في بداية الثمانينيات، وقد كانت بمثابة نقطة تحول، إذ انتصرت بعدها صورة الملكة العذراء.

H. Hackett, *Virgin Mother*, Maiden Queen: Elizabeth I and the Cult of the Virgin Mary, Macmillan Press, Basingstoke-London 1995.

تُعَدّ المقالات التي جمعها دوران من الصنف الذي يكرّس بشكل واضح تلك الصورة =

أن الملكة كانت قد أظهرت في وقت مبكر رغبتها في الحكم بمفردها، فإنها كانت على استعداد مدة عشرين عاماً لتقييم فرص زواجها؛ كما أعلنت بوضوح للبرلمان في فبراير من عام 1559. وفي عام 1560م، أصبح روبرت دودلي (Robert Dudley) كونت ليسستر، وكان معروفاً بأنه المفضَّل لدى الملكة، حراً ليتزوج بعد موت زوجته، وقد حاول حتى قبل أن تمر المدة المتعارف عليها للحداد أن يطلب يد إليزابيث الأولى. هذا المشروع الذي كانت متحمسة له، قد أعاقه تقريباً كل آل هابسبورغ من نبلاء البلاط. ولهذا السبب حاول دودلي الحصول على الدعم السياسي من فيليب الثاني في مقابل أن يساعده في أن يصبح ممثلاً لإنجلترا في الدورات الأخيرة لمجلس الثلاثين، وأن يتم استقبال أحد مبعوثي البابا في إنجلترا. وكيفما كان الأمر، قررت الملكة ربيع عام 1561 أنه لا يمكنها الزواج بدودلي بتلك الشروط. ولكن العريس المُفضل لم يقع فريسة لليأس ولم يفقد الأمل في إمكانية تغيير هذا القرار، لأنه كان يرى أن كل العروض البديلة لعرضه قد تم رفضها أيضاً.

بدأ ظهور نوع من القلق بخصوص من سيرث الملكة، التي كانت لا تزال عزباء في سن الثلاثين، وفي يناير من العام 1563م، قدّم إليها مجلس النواب التماساً حتى تختار واحداً من النبلاء المحترمين، يمكن أن يحظى بإعجابها كزوج. شكرت النواب على الطلب وحاولت أن تنظر بجدية إلى إمكانية الزواج. وفي العام التالي كان واضحاً أن الملكة لن تتزوج بدودلي،

= الرمزية لإليزابيث الأولى، ولكنها أكثر تجديداً من سائر المقالات الأخرى نظراً إلى كونها تطرح مشكلة كيف أن الملكة كانت تنقاد برأي الآخرين في قبولها لتلك الصورة:

S. Doran e T.S. Freeman, *The Myth of Elizabeth*, Palgrave Macmillan, New York 2003.

حول مشاريع الزواج التي شغلت أكثر من عشرين سنة من حكم إليزابيث الأولى يمكن الاطلاع على ماكلارن:

McLaren, *The Quest for a King* cit.

وأنها ما زالت تفكر في الزواج بأمير أجنبي. اتجهت في البداية إلى عائلة هابسبورغ، وعلى الرغم من أنها رفضت عرض الزواج عام 1559م بفيليب الثاني، الذي كان أرمل ماري، فكرت إليزابيث الأولى لسنوات في ابن عم فيليب، الأرشيدوق كارلوس النمساوي. فشل المشروع لأسباب دينية، ولكن بالأخص بسبب والد الأرشيدوق، الإمبراطور فرديناندو الأول، الذي كان يُطالب أن يُضمَّن في عقد الزواج بند وهو: أنه إذا أصبح كارلوس أرمل، سيخلف هو زوجته على عرش إنجلترا، في حالة إذا لم تنجب أبناء.

وفي نهاية عام 1567م، بعد فشل المفاوضات مع عائلة هابسبورغ، تم حسم مسألة زواج الملكة بقوة بوساطة المشهد السياسي الدولي. لفترة وجيزة، عام 1571، دعم مستشارو إليزابيث عرض الزواج بأحد أبناء كاترينا دي ميديتشي، هنري، دوق آنجو، ولكن عندما فشل هذا المقترح، بقيت قلّة منهم فقط تعتقد في إمكان العثور على شخص يحظى بقبول الملكة والبلاط والبروتستانت. كان ثمة حديث يدور حول الزواج بفرانشيسكو إيركولي، دوق آلينسون، الأخ الأصغر لهنري، الذي يصغر إليزابيث باثنين وعشرين عاماً، ولكن حتى وإن بدا أن الملكة تُرحب بـ«الوحش الصغير» الذي كانت تطلق عليه توددّاً لقب «الضفدع»[1]، وأيضاً إذا ما لم يكن فرانشيسكو قد

(1) حول العلاقة العاطفية بين إليزابيث وفرانشيسكو إيركولي، دوق آلينسون، وحول الشهادات المؤكدة لها في خطابات الملكة يمكن الاطلاع على بحث مولر:
J. Mueller, *«To My Very Good Brother the King of Scots»: Elizabeth I's Correspondence with James VI and the Question of the Succession*, in «PMLA», 115, 2000, 5, pp. 1063-1071.
فيما يتعلق باسم التودد يمكن الاطلاع على الخطاب الذي كتبته بين عامي 1579 و1580م، والذي تُعبر فيه إليزابيث، كما في الخطابات التالية الأخرى، عن مشاعرها وعن اهتمامها بإتمام الزواج، بمجرد أن تتمكن من تجاوز رفض رعاياها لزواج ملكتهم بكاثوليكي. وتختم خطابها قائلة إنها تصلي إلى الربّ «ليمنحك حياة مديدة ورغدة، مع خالص تحياتي إلى ضفدعي العزيز»:
Elisabetta I d'Inghilterra. Lettere ai fidi e agli infidi, a cura di N. Gruppi, Archinto, Milano 1988, p. 57.

انضم إلى المواقف الراديكالية للحزب الكاثوليكي، فإن مذبحة الهوغونيين في ليلة سان بارتولوميو في منتصف السبعينيات جعلت المشروع مستحيلاً في إنجلترا من الناحية السياسية. إضافة إلى ذلك، فإن الملكة عندما تخطّت عتبة الأربعين واقتربت من سنَ اليأس، قلّ الاهتمام بزواجها كثيراً لأن آمال الحصول على وريث لم يعُدْ لها أي أساس. في الفترة نفسها كانت العروض المقدَّمة في البلاط تنتقد بشكل ضمني مشاريع الزواج (الوحدة) مع أي من أمراء فرنسا، وكانت تدفعها إلى البقاء في حالة عزوبة، معلّقين أهمية كبيرة على الاحتفاء بوضع الملكة العذراء وكأنه احتفال بأمر معجز وخارق للطبيعة، ويشيرون إليها وكأنها «الشابة العفيفة»، و«العذراء الطاهرة»، و«الملكة المقدسة».

وعلى الرغم من أن صورة إلهة العدالة المقدسة آستريا في نهاية السبعينيات لم تكن منتشرة بعد -إذ تأكدت في اللوحات والأعمال الأدبية في العقد التالي-، فقد تم خلع كل مناقب القداسة لآلهة الإغريق على إليزابيث: فكانت لها حكمة أثينا، وجمال فينوس، وفصاحة ميركوري ومناقب أخرى. وفي المسرحيات والعروض التي كانت تُقدّم أمام الملكة منذ عام 1561 إلى عام 1578م، لم تكن عذرية إليزابيث أمراً مثالياً أو مصدراً لاستحسان الرعايا، بل على العكس، كان المديح يتجه إلى الزواج كوضع مفضَّل على العفة. لقد تولى روبرت دودلي، خاصة، تمويل أعمالٍ مسرحيةٍ من هذا النوع ليجعل تودده إلى الملكة أكثر تأثيراً، ولكن كونت ساسكس وآخرين كانوا يستخدمون عروضاً مجازيةً وأسطوريةً ليدعموا الاتفاقيات مع الأرشيدوق كارلوس النمساوي. أُستُخدمت صورة أيقونة العفة للمرة الأولى عام 1578، عندما بدأت إليزابيث في استعادة المفاوضات مع دوق أنجو فرانشيسكو إيركولي، الذي كان قد حصل على اللقب في أعقاب تتويج أخيه هنري. وأثناء زيارته

إلى نورويتش في صيف ذلك العام قدّموا إليها الأعمال الفنية التي كانت تنتقد مشروع الزواج ذاك احتفاءً بالعفة. وفي الأعوام الثلاثة التالية كان من يعترض على المفاوضات مع «الضفدع» يتبع ذلك المثال، ويعمل على وصول صورة الملكة العذراء إلى الكمال، لإفشال تلك المحاولة. استفادت إليزابيث نفسها، بعد ذلك، من الرمز ذاته لأهدافها السياسية الخاصة[1]. وبحسب سوزان دوران، كانت إليزابيث قد عُرضت في المرة الأولى على نورويتش كنتيجة مباشرة لميل الملكة ناحية دوق آنجو الكاثوليكي، وهو الأمر الذي كان يلقى معارضة الكثيرين في إنجلترا.

في الأعوام الثلاثة التالية كان يتمّ التعبير عن هذه المعارضة من خلال المنشورات والعظات، والأشعار والحفلات والأغاني والأبيات الشعرية اللاتينية، وكذلك عبر اللوحات التي تمثل الملكة نفسها، وقد اضطرت إلى اتخاذ خطوة بشأن هذه الزيجة التي كانت ستضعها موضع خلاف مع الغالبية العظمى من مستشاريها، ومع رعاياها من البروتستانت. في يناير من العام 1580 بدأت إليزابيث في المماطلة أمام طلبات محدثيها الفرنسيين بشأن توقيع التعاقد، وبعد ذلك أخذت تجسّ نبض السفراء حول إمكانية أن يوافق هنري الثالث وكاترينا دي ميديتشي على تحالف دفاعي ضد إسبانيا؛ وهو ما لا يضمنه الزواج[2].

---

(1) تناول بيري موضوع الصورة الدعائية:

P. Berry, *On Chastity and Power. Elizabethan Literature and the Unmarried Queen*, Routledge, London-New York 1989.

(2) Doran, *Juno versus Diana* cit. si veda anche J. N. King, *Queen Elizabeth I: Representations of the Virgin Queen*, in «Renaissance Quarterly», 43, 1990, 1, pp. 30-74

تبعاً للمؤلف، تم اقتراح صورة عذرية الملكة من قبل إليزابيث نفسها، فهي إذن «مبنية» مقدماً على الحصول على فرص سياسية. وبهذه الطريقة استطاعت الملكة استخدام ضعفها الظاهري كامرأة وحيدة ليغدوَ مصدر قوتها.

كان العرض الذي تم تقديمه أمام المبعوثين الفرنسيين في يوم الاحتفال بعيد الصعود، والمعروف بعنوان «**قلعة الجمال الكامل أو أطفال الرغبة الأربعة بالتبني**»، وهو يُنسب إلى السير فيليب سيدني[1]، انتصاراً رمزياً مُفصلاً، وكان ينقل قرار الملكة إلى الفرنسيين، وإلى البلاط الإنجليزي كله. تم فيه تقديم إليزابيث كموضوع رغبة لا يمكن للأمير الفرنسي الوصول إليه، سواء من خلال استمرارية تراث الفروسية لنهاية الحب، أو كنوع من التجسيد المعجز لصورة المرأة المُبجلة، التي نشرتها التيارات الأفلاطونية الجديدة في بلاطات القرن السادس عشر، والبعيدة جداً عن متناول يديه. اشترك سيدني نفسه في العرض متقمصاً شخصية أحد أطفال الرغبة الأربعة بالتبني، وكان يصحبه أربعة من الخدم وثلاثون من السادة والمُلاك، وأربعة من عازفي الأبواق. كان كلٌ منهم يرتدي سترة موشاة بالفضة تحمل شعار «نحن لسنا لأنفسنا»، أحد عناصر القصة الرمزية. كان لدى الأبناء الثلاثة الآخرين للرغبة العديد من الأتباع أيضاً. وكان يحضر العرض دوق آنجو، ويصحبه إضافة إلى مندوبي الاتفاقيات، خمسمائة من السادة. وهكذا تمَ بناء أسطورة الملكة التي تُظهر نفسها وكأنها إحدى الآلهة، التي تسعى إلى ما فيه مصلحة رعاياها جميعهم بدلاً من اتباع ميولها ورغباتها الشخصية[2].

ولكن قيل –وقد دعمت إيلونا بيل هذا الرأي– إن مسألة زواج الملكة قد أثارت الخيال الشعبي حول مجتمع البلاط والحب من جهة، وتسببت من جهة أخرى أيضاً في انتشار الخوف من احتمال جلوس ملك آخر غريب

---

(1) A.C. Hamilton, *Problems in Reconstructing an Elizabethan Text: The Example of Sir Philip Sidney's «Triumph»*, in «English Literary Renaissance», 26, 1996, 3, pp. 451-481. G. Wickham, *«Love's Labor's Lost» and «The Four Foster Children of Desire», 1581, in «Shakespeare Quarterly»*, 36, 1985, 1, pp. 49-55.

(2) N. Council, *«O Dea Certe». The Allegory of «The Fortress of Perfect Beauty»*, in «Huntington Library Quarterly», 39, 1976, 4, pp. 329-342.

بجوار الملكة الإنجليزية. ولكن هذا الخوف قد أثارته رغبة إليزابيث الأولى نفسها، وقد عبرت عنها في أكثر من مناسبة، بأن تحتفظ بحقوقها في أن تحكم بمفردها، سواء تزوّجت أم لا[1]. ظهرت قمّة انفعال الرعايا بسبب قرار الملكة بالزواج عام 1579، عندما وصل دوق فرنسا إيركولي إلى إنجلترا للتودد إليها أثناء الفترة الأخيرة، لمّا كان لا يزال بإمكانها أن تحلم بوريث.

وتبعاً لكتاب سوزان دوران وأعمال أخرى حديثة[2]، فإن الأبحاث الرائدة لروي سترونغ وتحليل ياتس حول طقس آستريا لا بد من إعادة النظر فيها، وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى قراءات ماري أكستون التي تؤكد صورة الملكة آستريا، إلهة الحكمة، وكأنه نجاح شخصي كانت تبحث عنه إليزابيث الأولى بإصرار، واستطاعت بكل رضا الوصول إليه[3]–، وأيضاً كريستوفر هيج– الذي يحيل تلك العروض إلى رغبة الملكة نفسها في أن تناور في الاتفاقيات الخاصة بالزواج[4]. وعلى العكس، فإن الأمر بحسب سوزان دوران إنما يتعلق برمزية فرضَها على إليزابيث الأولى الكُتاب والرسامون

---

(1) I. Bell, *Elizabeth and the Politics of Elizabethan Courtship, in Elizabeth I: Always Her Own Free Woman* cit., pp. 179-191.

(2) إضافة إلى المذكور يمكن الاطلاع على الأعمال التالية:

S. Frye, *Elizabeth I. The Competition for Representation*, Oxford University Press, New York 1993; C. Levin, *The Heart and Stomach of a King: Elizabeth I and the Politics of Sex and Power*, University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1994; M. Axton, *The Queen's Two Bodies: Drama and the Elizabethan Succession*, Humanities Press, London 1977.

يمكن العودة إلى بيري لمراجعة مواقف ياتس وسترونغ ومانستروس، الذين درسوا الملكة كحالة استثنائية بالنسبة إلى نساء أخريات، دون اعتبار تركيب العلاقات السياسية التي تنحدر من نقص الورثة من الذكور في سلالة تيودر:

P. Berry, *Of Chastity and Power: Elizabethan Literature and the Unmarried Queen*, Routledge, Chapman & Hall, New York 1989.

(3) Axton, *The Queen's Two Bodies* cit.

(4) Haigh, *Elizabeth I* cit.

والمؤيدون أثناء اتفاقية الزواج مع فرانشيسكو إيركولي. كان يمكن لإليزابيث أن تقرر بنفسها، إلا أنها أدركت أن الزواج بأمير كاثوليكي –على الرغم من أنه ليس معادياً للبروتستانت– لن يتمّ قبوله قطّ من رعاياها، وأنها نظراً إلى سنّها كانت ستظل عزباء بقية حياتها. في الوقت نفسه أدركت أنه في إمكانها الحصول على مميزات سياسية من خلال تحويل وضعها كامرأة وحيدة إلى وضع مثالي. وفي هذا الأمر، كما في قرارات سياسية أخرى، لم تحظَ إليزابيث باستقلال كبير، كما افترض الجميع ذلك، ولكنها كانت بارعة حصيفة تعرف كيف تحوِّل إلى مصلحتها حتى المواقف التي تخرج عن سيطرتها[1].

إذا كان هذا حقيقياً، فلا بد إذن من أن نضع في اعتبارنا الاحتفاء الشكسبيري بالعصر الذهبي لمُلك إليزابيث، والمتصل بالجزء الثاني من حياتها، كتكريس نهائي لأسطورة الملكة التي بدأت الدراسات الحديثة فقط في فك شفرتها، والتي فرضت طوال قرون على الكتابات المحتفية والأبحاث التاريخية كميةً من الرموز التي تقتفي أثر الصورة الأيقونة المنتشرة من قِبَل الفنانين الذين كانوا منجذبين نحو البلاط. من المؤكد أن هذا يوضح مهارة أوّل ملكة شرعية لإنجلترا في ممارسة السلطة في غياب رجل بجوارها، وكيف استطاعت أن تخفي هويتها الحقيقية من تحت الصور المخملية التي كانت تفيد على نحو مؤكد في تحرير الرعايا والمؤيدين والأعداء من المواضيع الأدبية المعادية للمرأة، والتي كان يتمّ فيها التعبير عن الرفض التقليدي لربط المرأة بالسلطة.

تجرّ الكتابة عن العصر الإليزابيثي إلى قصص تحكي عن عصور قديمة[2]، فقد اقترح شكسبير طريقة لتقديم حقيقة عرَفها رولاند موشات فراي «بالمعرفة

(1) Doran, *Juno versus Diana* cit.

(2) N.S. Levine, *Women's Matters. Politics, Gender and Nation in Shakespeares Early History Plays*, University of Delaware Press, Newark 1998.

الجمالية»، وقد شاركه فيها أيضاً فنانون أقل أهمية وظهرت كذلك في أعمال الرسم أيضاً لهذه الفترة[1]. تمّ أيضاً تأكيد أن مسرحيات شكسبير التاريخية تحقّق تمام التحقيق كلّ القدرات التعبيرية التي يمكن للوسيط المسرحي أن يكون قد استخدمها ليفرض شفرةً ذكوريةً على الرغم من دمج حوارات وشخصيات نسائية بوضوح في المشهد[2]. فقد كانت الإشارة إلى دور الثقافة المركزي في بناء المخيال الجماعي حول الملكة تتمّ بصورة متكررة، في أعمال حديثة نوعاً ما. وفي الفترة الأخيرة ظهر بوضوح اشتراك النصوص الأدبية التي كتبتها إليزابيث الأولى بنفسها في بناء أسطورتها، وقدمت على هذا النحو أدواراً متعددة –امرأة وملكة، «أم» لرعاياها، كاتبة وملهمة للعديد من الأعمال المهمة جداً في عصرها[3]– والتي كانت تكتمل بالتصرفات والصور، والأدوات والطقوس، في حقل دلاليّ كانت فيه العروض الخاصة بمَلَكية إليزابيث تتواءم مع الثقافة الذكورية، ومع طقوس البلاط، ومع إدراك الأبعاد الأخلاقية والجمالية الموجودة في كل جوانب الحياة[4]. إن حقيقة أنه لا يمكن التعرض للملكة بعيداً عن البعد الثقافي– الذي جرى بوساطته

(1) R. M. Frye, *Ways of Seeing in Shakespearean Drama and Elizabethan Painting*, in «Shakespeare Quarterly», 31, 1980, 3, pp. 323-342.

(2) K. Eggert, *Showing Like a Queen: Female Authority and Literary Experiment* in Spenser, Shakespeare, and Milton, University of Pennsylvania Press, Philadelphia 2000, p. 101.

يمكن أيضاً الاطلاع على كابلان:

M. L. Kaplan, K. Eggert, *«Good Queen, My Lord, Good Queen»: Sexual Slander and the Trials of Female Authority in «The Winter's Tale»*, in «Renaissance Drama», 25, 1994, pp. 89-118.

(3) A. Petrina, L. Tosi, *Representations of Elizabeth I in Early, Modern Culture*, Palgrave Macmillan, New York 2011; McLaren, *Political Culture in the Reign of Elizabeth I: Queen and Commonwealth 1558-1585*, Cambridge University Press, Cambridge 1999.

(4) M. E. Hazard, *Elizabethan Silent Language*, University of Nebraska Press, Lincoln-London 2000, p. 17.

عرض شخصيتها إلى المجتمع الخارجي، أمر أثبته أيضاً بحثٌ دراسيٌّ يدعم استحالة فهم إليزابيث دون شكسبير واستحالة فهم شكسبير بالانفصال عن إليزابيث[1].

4. تضحية ماري

في التاسع من أغسطس سنة 1588م وفي معسكر تيلبيري حيث كانت تتمركز قوات إليزابيث لصدّ هجوم الجيش الذي لا يُهزم لملك إسبانيا فيليب الثاني، ألقت الملكة خطبةً على القوات، تناقلتها فيما بعد مصادر متنوعة، حتى وإن لم يكن هذا الأمر مؤكداً تمام التأكيد، إذ لا وجود للنسخة الرسمية المتعلقة بكلمات الملكة التي تفوهت بها بالتحديد. تدْعَم جانيت غرين -معتمدة على تجميع دقيق للمخطوطات الموجودة- القول إن الملكة لا بد أن تكون قد كتبت هذه الخطبة. وعلى أية حال، من الممكن بلا شك تصديق أن نوع المجاز المُستخدم في تلك الخطبة يشبه إلى حدّ ما ذلك الذي استخدمته في مناسبات أخرى: «أعلم أنني ليس لديّ سوى جسد امرأة ضعيف، ولكنني أعرف أيضاً أن لي قلب ملك وشجاعة ملك، بل شجاعة ملك إنجلترا [...]. سأضع على المحك أيضاً دمي الملكي، وسأكون أنا بنفسي قائدكم وقاضيكم، وضمان الاعتراف بقيمتكم في ميدان الحرب»[2]. كرّس الانتصار على ملك إسبانيا، وبشكل قاطع، أسطورة إليزابيث الأولى. كان

(1) H. Hackett, *Shakespeare and Elizabeth: The Meeting of Two Myths*, Princeton University Press, Princeton (NJ) 2009.

(2) J.M. Green, *«I My Self». Queen Elizabeth I's Oration at Tilbury Camp*, in «The Sixteenth Century Journal», 28, 1997, 2, pp. 421-445: «I know I have ye body butt of a weak and feble woman, butt I have ye harte and stomack of a kinge [...] I myself will ventir my royall blood, I myself will bee your generall, judge, and rewarder of your vertue in ye field» (p. 443).

باعث محاولة غزو إنجلترا، التي حكمها فيليب الثاني مع ماري تيودر، قد قُدم إليه عند إعدام ماري ستيوارت، الذي حدث في العام السابق، بعد أن عاشت سنتين من عمرها ملكةً لفرنسا كزوجةٍ لفرانسوا الثاني، الابن الأكبر لكاترينا دي ميديتشي. عادت الملكة إلى أسكتلندا، بعد أن ترملت في الخامس من ديسمبر 1560، وذلك لتتولى على الفور بعدها -بوفاة الأم في التاسع من أغسطس 1561- دور الملكة الذي كان ينتظرها، فقد كانت الابنة الوحيدة من جيمس ستيوارت الخامس.

كانت أمها ماري دي جويزا قد تولت تسيير الحكم في مكانها أثناء إقامتها في فرنسا، كملكةٍ بالوصاية، والتي كانت تنتمي للشق الهام للمعسكر الكاثوليكي الذي كان يحارب في فرنسا ضد الهوغونيين. حلت ماري دي جويزا محل ابنتها، منذ مولدها، إذ ورثت المملكة من أبيها، حتى موت فرانسوا الثاني. تم تكريس ماري ستيوارت ملكة، كحق مقدس لها منذ أن كان عمرها تسعة أشهر، وكانت الوريث الشرعي الوحيد لعائلة ستيوارت. إضافة إلى ذلك، فإن ماري ذهبت في سنّ الخامسة إلى فرنسا، عندما عُقِدت اتفاقية الزواج بين هنري الثاني وماري دي جويزا، لتتعلّم في البلاط الفرنسي. وهناك تعلمت لغات عدّة، كلاسيكية وحديثة، وتعلمت الموسيقى والرقص، وركوب الخيل وفنّ المحادثة. كانت الملكة الشابة قد جذبتها الثقافة الرفيعة والفروسية و«الأخلاق» الإيطالية والتي كان بالداسار كاستيليوني والمونسنيور جوفان باتيستا ديللا كازا قد جلباها معهما إلى فرنسا. إنّ فرانسوا الأول، مع أمه لويزا دي سافويا وأخته مارغريتا دي نافارا، ثم هنري الثاني، ومعه ديانا دي بواتييه عشيقته، وبالاشتراك مع الملكة كاترينا دي ميديتشي، جميعهم مهّدوا الطريق أمام ذلك الانفتاح المفضي إلى تجديد الذوق والاحتفالات في البلاط لإضافة «التمدّن» للنبلاء وتهذيب

سلوكاتهم[1]، وقد أدت خبرة ماري تلك في سنوات تكوينها الأول إلى تخليها عن الأسلوب الأسكتلندي في نطق اسمها -ستيوارت- لتحوله إلى نظيره في الثقافة الفرنسية «ستيوار».

أظهرت ماري فيما بعدُ أن التعليم الذي تلقته لم يكن كافياً لإعدادها لمواجهة الموقف السياسي الخطير والمعقد في أسكتلندا، فقد انتشرت في تلك الفترة النزعة الكالفينية. ونظراً إلى طبيعتها المتسامحة، فإن عدم مطاردتها للكالفينيين قد تسبب في خلق أعداء من النبلاء الكاثوليك دون أن تكسب أي تعاطف من البروتستانت. كتب ألكسندر دوما الأب في تمهيد العمل الذي أهداه إليها عام 1840، في سلسلة «أشهر الجرائم»: كما أن ثمة أسماء مَلَكية ذات طالع سيئ، على سبيل المثال اسم هنري في فرنسا -أربعة ملوك ممن حملوا ذلك الاسم ماتوا ميتة شنيعة؛ الأول بالسمّ، والثاني بسبب حادث في بطولة، والثالث والرابع ماتا غيلة- هكذا أيضاً تثير السلالة الملكية الأسكتلندية لستيوارت الدهشة بسبب تعاقب الأمراض والقتل والموت المبكر. من هذه السلالة التعيسة، كانت أتعسها على الإطلاق، بحسب رأي دوما، هي ماري ستيوارت[2].

إن الجزء الأكبر من الروايات حول تاريخ الملكة ترجع أصوله إلى الأعمال المنشورة أثناء فترة وجودها في السجن أو بعد موت لورد دارنلي، زوجها الثاني، بسبب انفجار المنزل الذي كان يوجد فيه. عام 1569، نشَرَ جون لزلي

(1) بالنسبة إلى المراجع العديدة التي استعنت بها والتفسيرات المُقترحة، أشير إلى الأبحاث التالية:
C. Allard, *La galanterie italienne, la galanterie française: le franchissement des Alpes au XVIe siècle*, Sous la direction de F. Gauthier, Master 2 d'Histoire et Civilisations Comparées, spécialité Identités-Altérités, parcours franco-italien, et de C. Casanova, Laurea magistrale di Scienze Storiche, Universités Paris VII e Università di Bologna, aa. 2010-2011.

(2) من أجل دراسة نسخة إيطالية أحدث يمكن الاطلاع على دوما:
A. Dumas, *Maria Stuarda*, sellerio, Palermo 2009.

دفاعاً عن الملكة التي كانت متّهمة بقتل دارنلي، مؤكداً أن أدلة الشهود المستخدَمَة كانت واهية[1]، وأن هذا الحدث لم يكن ليسيء إلى سمعتها أو يمسّ من حقوقها في التاج الإنجليزي، إذ كانت هي الوريثة الشرعية لعائلة تيودر كابنة عم مباشرة لمارغريت، أخت هنري الثامن. وفي الرابع والعشرين من فبراير كتبت إليزابيث إلى ماري:

إن أذنيَّ لا تصدقان ما سمعتاه، وقلبي قد فزع بسبب خبر ذلك القتل الشنيع والبشع لمن كان زوجك، وابن عمي، حتى إنني أكاد لا أجد القوة لأكتب إليك. على الرغم من ذلك، لا يسعني سوى أن أقول لك إنني حزينة عليك أكثر من حزني عليه. لن أكون قريبة لك أو صديقة صالحة إذا لم أحثّك على صون شرفك، بدلاً من أن تنتقمي بالكلام فقط ممن أسدوا تلك الخدمة من أجلك، كما يقول أغلب الناس[2].

انتشرت إشاعة أن جيمس هيبرون، كونت بوثويل، كان على رأس قتلة لورد دارنلي، ولكن تمّت تبرئته في أبريل 1567م، وفي الشهر التالي تزوج بماري وفق الطقس البروتستانتي. اعتبر الكاثوليك هذا الزواج باطلاً، إذ أنهم لم يعترفوا بطلاق بوثويل من زوجته الأولى، ولا بشرعية طقس الزواج. إضافة إلى ذلك، شعر الكاثوليك والبروتستانت، كلاهما على السواء، بالإهانة لزواج الملكة بالشخص المتهم بقتل زوجها. تطورت الأحداث سريعاً بالنسبة إلى ماري وقرينها الجديد، فقد ثار ضدهما عشرون نبيلاً أسكتلندياً ورفعوا

---

(1) *A defence of the honour of the right highe, mightye and noble Princesse Marie Quene of Scotlande and dowager of France with a declaration aswell of her right, title & intereste to the succession of the crowne of Englande, as that the regimente of women ys conformable to the lawe of God and nature, Imprinted at London in Flete strete, at the signe of Iustice Royall against the Blacke bell, by Eusebius Dicaeolphile*, Anno Dom. 1569.

(2) *Elisabetta I d'Inghilterra*. Lettere cit., p. 43.

السلاح، وواجهوهما على أرض المعركة في 13 مايو، وهناك تخلى عن الملكة مؤيدوها. حصل بوثويل على ممرّ آمن سمح له بأن يُقل زوجته إلى (إدنبرا)، حيث ثارت الجموع ضد ماري واتهمتها بالخيانة والقتل. وفي الليلة نفسها أودعت الملكة السجن، وفي 24 يوليو أُجبرت على التنازل عن الحكم لابنها جيمس، وقد كانت سنّه سنتين اثنتين، وكان في رعاية جيمس ستيوارت، لورد مورلي، الأخ غير الشرعي لماري، ولكنه أحد أبناء جيمس الخامس. تمّ نفيُ بوثويل إلى الدنمارك حيث سُجن ومات بعد أن أصيب بالجنون عام 1578.

في مايو 1568م، جرت مساعدة ماري على الفرار من السجن ونجحت في حشد ستة آلاف رجلٍ، ولكن هزمتهم القوات التي عينها لورد مورلي لحماية العاهل الصغير، رغم قلة عددها. أنهت اللجنة التي كان عليها أن تحاكم الملكة أعمالها في 22 يناير 1569. وكان اللورد مورلي نفسه هو من قدّم الأدلة على خيانة لورد دارنلي وقتله: كان الأمر يتعلق بخطابات يمكن من خلالها إثبات أن ماري متورطة في مقتل زوجها، وكذلك بعض أغاني الحب، وهي أدلة كانت موضع جدل لمدة طويلة من قبل المؤرخين[1]. يميل كلٌّ من أنطونيا فريزر وأليسون وير إلى أنها مزورة، بل ويمكن أن تكون مُلفَقةً بالكامل[2]. بينما قررت لجنة التحقيق بالأغلبية أن تلك الأدلة أصلية، على أساس المحتوى وعلى أساس مقارنة الخط بكتابات ماري الأخرى. كيفما كان الأمر، كان ثمة أسباب سياسية تدفع إليزابيث، التي لم تكن لديها النية

(1) I. Bell, «*The Queen's Desire*»: *George Buchanan reading Mary Queen of Scots*, in *The Rituals and Rhetoric of Queenship: Medieval to Early Modern*, a cura di L. Oakley-Brown e E.J. Wilkinson, Four Courts Press, Dublin 2009, pp. 192-210.

(2) A. Fraser, *Maria Stuarda regina di Scozia*, Sansoni, Firenze 1974 (ed. orig. 1969), pp. 415-440; A. Weir, *Mary, Queen of Scots and the Murder of Lord Darnley*, Random House, London 2008 (prima ed. 2003), pp. 465-474.

في أن تُخضع ابنة عمها للمحاكمة، إلى أن تختم التحقيق على أساس وجود شكوكٍ في الأدلة. إلا أن مصير الملكة ظل غير محدد، وبينما عاد مورلي إلى الوطن حاكماً بالوصاية، بقيت ماري في إنجلترا، تحت الحراسة، ونجحت إليزابيث في أن تُقيم حكومة بروتستانتية في أسكتلندا، وتركت مصير ابنة عمها معلقاً لمدة عشرين عاماً أخرى. في يناير عام 1570 قُتل مورلي الحاكم بالوصاية، وذلك في تزامن مع تمردٍ للنبلاء الكاثوليك في إنجلترا الشمالية؛ وبدأت إليزابيث تعتقد أن ماري مصدر تهديد لسلطاتها، ولكنها كانت بالفعل منذ 1569 قد وضعت ابنة العم تحت حراسة مشددة لأن مطالب ماري في حقها في التاج الإنجليزي بدأت تجد لها بعض المؤيدين[1].

في الأعوام التالية تم اكتشاف مؤامرات متنوعة وإحباطها، وفي الحادي عشر من أغسطس 1589م، وبعد مؤامرة أخيرة لاغتيال إليزابيث[2]، جرى اتهام ماري ومحاكمتها، وقد رفضت أن تمثل للمحاكمة بصفتها الملكة[3].

عادت الوثائق، التي اعتُبرت في عام 1569 غير كافيةٍ لإدانتها للظهور من جديد وللانتشار. ولم يكن في إمكان ماري الدفاع عن نفسها، وفي أكتوبر تم تجريمها. ظلت إليزابيث رافضةً الحكم عليها بالموت، بينما كانت تدفعها إلى ذلك الأغلبية العظمى من أعضاء البرلمان، لأنها ستثير بذلك عداوة الملوك الكاثوليك في أوروبا، وخاصة ملك إسبانيا فيليب الثاني. ولكن إليزابيث، وبعد أن تم إحباط محاولة لتهريب ماري قام بها ابنها، أمير أسكتلندا الشاب

(1) Leslie, *A defence of the honour of the right highe, mightye and noble Princesse Marie Quene of Scotlande* cit.

(2) J.H. Pollen S.J., *Mary Queen of Scots and the Babington Plot*, Scottish History Society, Edinburgh 1922; *Trial of Mary Queen of Scots*, a cura di A.F. Stewart, Hodge, Edinburgh 1923.

(3) عن المحاكمة يمكن الاطلاع على نيل:
J. E. Neal, *Proceedings in Parliament Relative to the Sentence on Mary Queen of Scots*, in «The English Historical Review», 35, 1920, 137, pp. 103-113.

جيمس السادس، وقَّعت حكم الإعدام في الأول من فبراير 1587.

وفي أكتوبر 1586 كانت إليزابيث قد كتبت إليها رسالة موجزة ولاذعة للغاية، إلا أنها كانت بلا تأثير، فلم تمثُل ماري أمام القضاء:

لقد حاولتِ أكثر من مرة اغتيالي وإغراق مملكتي في الفتن والدماء. لم أتصرف قط بالطريقة نفسها ضدك، بل على العكس، منحتك الحماية ودافعت عنك كما أدافع عن نفسي. إن تلك الخيانات سوف يتم إثباتها، وسينكشف كل شيء. إلا أنني أرغب في أن تردّي على النبلاء وعائلاتهم في هذه المملكة كما لو كنت أنا موجودة. فأنا أسألك إذن وأطالبك بل وأفرض عليك أن تمثلي أمام المحكمة، فقد تناهى إلى مسمعي غرورك الشديد. فتصرفي على الملأ بلا تحفظات وسيكون من السهل أن تحصلي على إحسان مني[1].

قُطع رأس ملكة أسكتلندا في الثامن من فبراير 1587م، وظلت قصتها متداولةً لفترة طويلة كوسيلة للدعاية: كان الأنغليكان يدعمون من جانبهم الاتهامات الأكثر تشهيراً فيما يتعلق بخيانتها السياسية لإليزابيث، والتي كانت مُجبرةً بالتالي على محاكمتها والحكم عليها بالموت؛ بينما قدّم الكاثوليك من جانبهم النسخة الاحتفائية الخاصة بتضحية الأم إلى الابن ووريث عرش إنجلترا جيمس، الذي عينته إليزابيث بنفسها ليخلفها باسم جيمس الأول ستيوارت. يمكن اعتبار كتاب «**تاريخ حياة ماري ستيوارت وموتها**» لوليم كامدن هو محاولة صعبة للتوافق، إذ مدح أمّ الملك ولكن دون أن يتجاهل الجهد الذي بذلته الملكة الأخيرة في عائلة تيودر لتسقط عنها تهمة القتل، وذلك لحفظ الاستمرارية المُتخيلة بين العائلتين المالكتين تيودر وستيوارت، والتي بنتها ألعاب المرايا الهشة في مسرحيات شكسبير

(1) *Elisabetta I d'Inghilterra. Lettere* cit., p. 84.

الأخيرة[1]. يستحضر وليم كامدن خطاباً كتبته إليزابيث في الحادي عشر من أكتوبر 1586، «بتماسك ملكي ونفس مرحة». تؤكد فيه أنها حزنت للغاية لأن الملكة (أختها العزيزة) كانت لديها صورة خاطئة عنها، وأنه على الرغم من المخاطر الجمّة التي أنقذتها منها لأعوام عديدة، كانت لا تثق فيها وكانت تخاطبها في مراسلاتها بتعالٍ شديد، وكأن ملكة إنجلترا هي إحدى رعاياها، رافضةً أن تطيع الأمر بأن تمْثُل أمام المحكمة. أعلنت إليزابيث أنها غير مسؤولة عن نتيجة المحاكمة، التي كانت قد عهدت بها إلى مجلس من النبلاء والأسر النبيلة في المملكة. في كتاب «ملكة الجن» لسبنسر، وقد نُشر غير مكتمل عام 1590 نظراً إلى موت الشاعر مبكراً، لم يكن يوجد ما يشير إلى أي معارضة لتصرفات إليزابيث لأن حياة سبنسر وأعماله الأدبية تركزت في الأعوام الأكثر مجداً للملكة الأخيرة من سلالة تيودر. تظهر ماري ستيوارت في القصائد، وهي المُمثلة رمزياً من خلال الملكة دويسا، امرأة بهية الطلعة (كما كانت بالفعل ملكة أسكتلندا) ولكن انتهى الأمر بأن ظهرت على حقيقتها كمخلوق مقيت، مقارنة بإليزابيث المُمجَّدة. بعد موت سبنسر، الذي استطاع أن ينتهي من ستة كتب فقط من الاثني عشر كتاباً المخطط لها للاحتفال بملكته كملكة للجن، أوحت القصة المأساوية لماري ستيوارت

(1) F. A. Yates, *Gli ultimi drammi di Shakespeare. Un nuovo tentativo di approccio*, Einaudi, Torino 1979 (ed. orig. 1975).

إن معضلة الملك الذي يؤنبه ضميره بسبب مسؤوليته عن استبعاد أمه نهائياً عن عرش أسكتلندا وهو الذي يمزقه الشك أيضاً في كونها المسؤولة عن موت أبيه، قد ازدادت تعقيداً بما أن إخلاصه لإليزابيث كان لا بد أن يكون واضحاً باستمرار. من خلال بناء معلم جنائزي يجمع المقبرتين المنفصلتين، ولكي تكون الرفات في كلتيهما قريبة بعضها من بعض، سعى الملك، في رأي بيتر شيرلوك، إلى القيام بالمحاولة الوحيدة الناجحة للتصالح مع تاريخ عائلته المُعقد.

(*The Monuments of Elizabeth Tudor and Mary Stuart: King James and the Manipulation of Memory*, in «Journal of British Studies», 46, 2007, 2, pp. 263-289).

بإنتاج أدبي غزير كانت فيه السير الذاتية هي السائدة[1].

ومن بين الأعمال المفقودة لتومازو كامبانيللا، يشير لويس فيربو إلى الدراما المستوحاة من قصة ملكة أسكتلندا، التي قدمها فيلسوف كالابريا وكأنها شهيدة ضحّت بها إنجلترا المنقسمة. فقد أشار إليها كامبانيللا أثناء محاكمته الخامسة في الفترة بين 1599 و1600م، وأكد أنه كتبها لأهداف سياسية، بل ونسب إلى العمل –الذي فُقد أثناء القبض عليه في كالابريا، بين 1598 و1599– معنىً مناهضاً للإنجليز بصورة واضحة لم تظهر من قبل[2]. ألّف هذا العمل بين سبتمبر 1598 والأشهر الأولى لعام 1599م، وكان الأمر يتعلق بالنموذج الأول لتراث الكاثوليك الطويل في تحويل شخصية ماري إلى شهيدة بسبب الدفاع عن الايمان، ولكنها كانت احتفالية متأخرة؛ وكان لها بعد ذلك العديد من النسخ في أعمال نُشرت في أنحاء أوروبا، وقد ظهرت غالبيتها في القرن السابع عشر.

إن أغلب الأمثلة الدفاعية الأنغليكانية ظهرت في وقت متأخر: «ماري

(1) N. Kerby, *The Faerie Queene and the Mary Stuart Controversy*, in «ELH», 2, 1935, 2. pp. 192-214.

عن التفسيرات «السياسية» –من منطلق كاره للنساء– لتاريخ ماري ستيوارت حتى القرن التاسع عشر، سواء من الناحية الكاثوليكية أو البروتستانتية، يمكن الاطلاع على كادان:

N. Cadène, *L'histoire au féminin: la «vie» de Marie Stuart par Agnès Strickland*, in «Romantisme», 115, 2002, pp. 41-52.

(2) انظر عن العمل المفقود للفيلسوف الكالابري:

L.. Firpo, *Bibliografia degli scritti di Tommaso Campanella*. Pubblicazione promossa dalla R. Accademia delle scienze di Torino, nel III centenario della morte di T. Campanella, Bona, Torino 1940, p. 141.

انظر فيما يتعلق بعمليات الاختطاف التي أدت إلى سجن كامبانيللا لمدة سبعة وعشرين عاماً:

Luigi Firpo, *I processi di Tommaso Campanella*, Salerno, Roma 1998.

في محاولة للهروب من العقوبة بسبب التورط في تنظيم مؤامرة، وَقّع كامبانيللا اعترافاً، قبل الحكم ببضعة أشهر، كتب فيه أسماء المتآمرين الرئيسيين، وأنكر أي اشتراك له في المؤامرة، ولكن شهادات شركائه اتفقت جميعاً على أنه كان رئيسهم.

ملكة الأسكتلنديين» ‎–Mary Queen of Scots–‎ (1789) لجون سان جون؛ المسرحية التراجيدية التي تحمل الاسم نفسه لماري ديفيريل (1792)، «ماري ستيوارت ملكة الأسكتلنديين» ‎–Mary Stewart Queen of Scots–‎ (1807) لجيمس غراهام. العمل الأول عن ماري ستيوارت، الخالي بالفعل من أغراض المديح أو تشويه السمعة، هو المسرحية التراجيدية «ماري ستيوارت» (1801) لفريدريك شيلير، وفيها يتخيل الملكة ضحية لجمالها وشهواتها التي دفعتها إلى الهلاك. على كل حال تحررت ماري في لحظة موتها التي واجهتها بكل شجاعة، لتعيد قيمتها أمام إليزابيث، التي ظهرت وكأنها امرأة مسكينة، غيور ومنتقمة.

وسواء بالنسبة إلى إليزابيث أو ماري، وعلى الرغم من السيل الجارف للأعمال المكرسة لكلتيهما على مدى القرون، فإن إحداهما ما زالت حتى اليوم تتوارى خلف رموزها الظافرة كملكة، والتي لا تزال حركة التاريخ الحديثة تعيد فحصها باستمرار، وما زالت الأخرى سجينة للنماذج النمطية للقديسة الكاثوليكية أو للمرأة المستهترة[1]. كان ثمة مقياس مختلف لكل منهما، ثم بعد موتهما، ساهمت قصص المعاصرين في التأثير لقرون في الحكم على خبرتهما السياسية. كان لإليزابيث من كان يغني لها ويرسمها،

---

(1) يمكن الاطلاع على سبيل المثال على بلاودن:

A. Plowden, *Elizabeth Tudor and Mary Stewart: Two Queens in One Isle*, Barnes & Noble, Totowa (NJ) 1984

الذي تناول فيه الأحداث في كتاب منتشر، وفيه يلجأ باستمرار إلى تكرار القوالب الأدبية الجاهزة، والذوق الشعبي في التناقض بين شخصيتي الملكتين. وحول «حكاية حب ماري ستيوارت» وضرورة تأطير ما حدث للملكة في أسكتلندا من المنظور السياسي، يمكن الاطلاع على:

P.-A. alt, *Der Tod der Königin. Frauenopfer und politische Souveränität im Trauerspiel des XVII Jahrhunderts*, W. De Gruyter, Berlin 2004,

الذي يضع عنواناً لإحدى فقرات كتابه:

Maria Stuarts Passionsgeschichte (pp. 188-195).

إضافة إلى تاريخ يتكون بشكل حصري حتى يومنا هذا من أعمال رفيعة المستوى جداً من الناحية الفيلولوجية، ومن فك شفرات دقيق للرموز وللمجاز المخفي في لوحاتها، والتي من خلالها اختارت أو وُجّهت لتختار ما يُعرض للخارج من تفسير عن الملكية النسائية. وبالنسبة إلى ماري كان الجانب «النسائي» مفهوماً كضعفٍ وعدم قدرة على ممارسة السلطة «بالطبيعة»[1]، وكان هذا هو العنصر الذي ساد، لأغراض متناقضة، في المخيلتين الكاثوليكية والبروتستانتية معاً، ولم يتخطّ التاريخ ذلك الوضع سوى في القرن العشرين[2]، وذلك من خلال المساهمة بأعمال لم تكن مقصورة على الدوائر الأكاديمية، مثل السِّير الذاتية لأنطونيا فريزر وجون غاي[3] وأليسون وير. يمكن اعتبار العمل الأول، على الأخص، أحد أكثر الأعمال دقة في إعادة البناء المعاصرة لحياة ماري ستيوارت، سواء بسبب

(1) G. Pomata – in *La storia delle donne. Una questione di confine*, in *Il mondo contemporaneo, Gli strumenti della ricerca, vol. 2, Questioni di metodo*, La Nuova Italia, Firenze 1983, pp. 1433-1460.

وفيه كتبت أن النساء في التاريخ قد قُيدن في «حصار البدائية، لما ليس له علاقة بالتاريخ، داخل العالم التاريخي» (ص: 1435)، وبذلك وحتى نهاية القرن العشرين جرى تناقل ثقافة تستبعدهن من المجال العقلي والسياسي، لتحصر وجودهن في المجال الثابت لما يتناسب مع طباعهن.

(2) يوجد حكم قاس عن المسؤوليات السياسية لملكة أسكتلندا، إضافة إلى التناقض بين صورة الشهيدة البريئة وبين تلك القاتلة المجرمة، وقد تم التعبير عنه في الذكرى المئوية الرابعة لإعدامها في كتاب جاني:

Jenny Wormald, *Mary Queen of Scots: A Study in Failure, George Philip*, London 1988

وفي العام نفسه، وبمبادرة من المؤسسة التاريخية الكاثوليكة الأسكتلندية، تمّ نشر تسعة أعمال في إنجلترا مكرّسة للملكة، كما يوجد ملخص لها لدى شاورر:

L.G. Schwoerer, *Mary* Stewart: Queen in Three Kingdoms, in «Renaissance Quarterly», 43, 1990, 3, pp. 625-627.

(3) J. Guy, *Queen of Scots: The True Life of Mary Stuart*, Houghton Mifflin, Boston 2004.

الصرامة النقدية لفريزر أو القدرة على ترجمة ذلك في شكل روائي قادر على تجنب التفاهات العاطفية أو الإشاعات[1].

وحسب تعبير موفَق لبيتر أندريه ألت، الذي يتبنى تعريف كانتوروفيتش المشهور للمَلَكية[2]، في كتابه «الملكات»، يقول إن موت الملكة قطع التأبيد الرمزي الذي لا ينتمي للنساء. وفي الواقع، ليست الملكة نصف ملك، أو «ملكاً بلا جسده الثاني»، أي ذلك الذي يمثل بصورة مثالية من خلال إمكانية أن يولد ذكر لذكر، مقدماً بذلك فرصة البقاء الأبدي للسلالة الخاصة[3]. لم يتبق من إليزابيث سوى جسدٍ محنط ومقبرة، ومع حالة عدم الاعتراف بالسلطة وعدم قدرتها على إنجاب وريث لها، فإن الملكة الأخيرة من سلالة تيودر كانت قد عرفت، أو كان عليها أن تعمل، أثناء وجودها على قيد الحياة، على أن تخفي ذلك الضعف الخاص بالطبيعة النسائية، وذلك بأن جعلت الجميع يقدمونها على أنها إعادة تجسيد لآلهة أوليمب، لتضمن الاستقرار لإنجلترا. إن كتّاب الدراما والشعراء، والكتّاب المعروفين نوعاً ما، وكذلك اللوحات التي تمثلها، الجميع ساهموا في خلق أسطورة قوتها المستمرة. لقد كتب شكسبير بين عامي 1612 و1613م مسرحية «هنري

(1) إلى تلك السير الذاتية يمكن أيضاً إضافة سيرة وارنيك:

R.M. Warnicke, *Mary Queen of Scots*, Routledge, New York 2006

وهي التي على الرغم من كونها حديثة، فإنها لم تستطع أن تنجو من إغواء «إعادة تقديم شخصية» ماري، مقترحة مواضيع تم التأكد منها بالفعل، ومن بينها تزييف الوثائق التي أُدينت على أساسها، وكذلك عدم تفهم أنها كانت مصابة بمرض فقر الدم الحاد. وعلى المقياس نفسه، وإن لم تكن سيرة ذاتية دراسة فيندلاي:

A. Findlay, *«Highe excellente Queene», the Rhetoric of Majesty in Diplomatic Letters Relating to Mary Queen of Scots*, in *The Rituals and Rhetoric of Queenship* cit.

(2) E.H. Kantorowicz, *I due corpi del re*, Einaudi, Torino 1989 (ed. orig. 1957).

(3) *Die Königin: ein König ohne zweiten Körper*, in alt, Der Tod der Königin cit., pp. 18-28.

الثامن» التي عرض فيها رؤية تعلن موت إليزابيث وقيامتها، مثل طائر العنقاء الأسطوري الذي ينهض من تحت الرماد من جديد، من خلال جسد جيمس الأول[1].

(1) Alt, *Der Tod der Königin* cit., in particolare pp. 170 sgg.

الفصل السادس

مُلك النساء في القرن العظيم

1- من جيمس إلى آن ستيوارت انهيار الملَكية الإنجليزية وقيامها

في عام 1579م، عندما كانت سنّ ملك أسكتلندا ثلاثة عشر عاماً، أصبح اسميه ستيوارت (Esmé Stewart) كونت لينوكس وابن عم لورد دارنلي، والد جيمس ستيوارت، الأول والأقوى بين مؤيديه. وفي الخامس من أغسطس 1581، أصبح جيمس ملك أسكتلندا، ويرجع الفضل في ذلك إلى كونت لينوكس الذي تأثّر به الملك الشاب على الأقل لمدة عام آخر. وعلى الرغم من أن الدوق كان قد تحوّل إلى البروتستانتية، لم يكن أتباع كالفن في أسكتلندا يثقون به، وكانوا يرفضون الارتباط النفسي بينه وبين الملك، لقناعتهم بأن لينوكس يعمل على إفساده[1]. وفي أغسطس عام 1582 تمّ القبض على الدوق وإجباره على الابتعاد عن أسكتلندا في شهر يونيو التالي.

---

(1) كتب كروفت حول الميل الجنسي لجيمس الأول:

P. Croft. *King James*, Palgrave Macmillan, New York 2003, citazione a p. 15;

وتوجد أيضاً إشارات عن ميوله المثلية لدى بوكولز:

R.O. Bucholz, N. Key, *Early Modern England, 1485-1714. A Narrative History*, Blackwell, Oxford 2004, pp. 208 sgg.

نجح جيمس السادس في تهدئة أعيان الدولة، بعد أن تخلّص من تأثيره. وفي عام 1587 أدان جيمس علناً قطع رأس أمه، معتبراً ما حدث عملاً مروّعاً ومنافياً للطبيعة؛ ولكن موت ماري جعل احتمال خلافته للتاج الإنجليزي أكبر، نظراً لأنه كان القريب الأقرب للملكة إليزابيث الأولى. وعلى الرغم من الحداد، أثناء الأزمة السياسية عام 1588، التي تسببت فيها حملة الجيش الإسباني انتقاماً لإعدام ماري ستيوارت، انضم جيمس لإليزابيث الأولى كوريث غير مُعلن بعد: وبذلك عبّر عن ولائه للملكة «وكأنه ابنها الفعلي»، وعن حبّه لإنجلترا «وكأنها وطنه». كانت إليزابيث، من جهتها، قد كتبت إليه بعد إعدام ماري، معلنةً براءتها التامة وعدم مسؤوليتها عن موت أمه[1].

كان من المناسب لجيمس أن يصدّق تأكيدات إليزابيث تلك، وأن يعثر أيضاً على الزوجة المناسبة لمقامه، على الرغم من أنه لم يكن لديه ميل للنساء ولا للزواج. اختار عام 1589 عندما أصبح عمره ثلاثةً وعشرين عاماً أن يتزوج آنا، ابنة البروتستانتي فريدريك الثاني من الدنمارك، على الرغم من أنه لم ينته قطّ عن الارتباط بفتيان مقرّبين منه[2]. استطاعت الزوجة، التي كان عمرها أربعة عشر عاماً، أن تثبت أنها مناسبة للملك القاسي والواسع الثقافة، الذي أنجبت له ثلاثة أبناء قبل أن تموت عام 1619 [3]. ظلّ على قيد الحياة منهم كل من إليزابيث ملكة بوهيميا، ومن سيصير الملك شارل الأول في المستقبل، الذي سيكون مصيره أن يقطع الثوار البروتستانت رقبته عام 1649م. وبهذا الحدث التاريخي سيُفتح الباب أمام استمرارية الخلافة والملكية الإنجليزية لعائلة ستيوارت، بعد توقّفٍ دام أحد عشر عاماً. سيعود شارل

(1) El*isabetta I d'Inghilterra*. *Lettere ai fidi e agli infidi*, a cura di N. Gruppi, Archinto, Milano 1988, p. 89, lettera del 14 febbraio 1587.

(2) D.H. Willson, *King James VI & I*, Jonathan Cape, London 1956.

(3) J.L. Barroll, *Anna of Denmark, Queen of England: A Cultural Biography*, University of Pennsylvania, Philadelphia 2001.

الثاني، ابن الملك المقتول، إلى إنجلترا في 25 مايو 1660، بعد أن وَعَد بالعفو عن المتواطئين في الحرب الأهلية –فيما عدا العائلات الأكثر تورطاً–، وبعد أن قطع عهداً على نفسه بالاحتفاظ بالبرلمان الحر، الذي يُمثل الشعب ويضمن التسامح الديني.

كان شارل الأول قد تزوّج بهنريت ماري، أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا وابنة هنري الرابع وماريا دي ميديتشي. كانت الملكة كاثوليكيةً غيوراً، وكانت مُحاطةً بالفرنسيين والكاثوليك. تسبّب ذلك على الفور في بُغض البلاط لها، ولم يتم تكريسها كملكة من خلال الطقس الأنغليكاني. تعرفت هنريت ماري على شارل الأول في باريس عام 1623م. وكان عمره وقتها ثلاثة وعشرين عاماً وكانت هي تبلغ أربعة عشر ربيعاً، تماماً ذلك الفارق في العمر بين الملك جيمس الأول وأنّا ملكة الدنمارك عندما تزوّجا. كان شارل الأول متيَّماً بزوجته، على الرغم من تضارب الآراء حول جمالها. وأكثر تلك الآراء قسوةً كان ما عبرت عنه ابنة أخت الملك، صوفيا ملكة هانوفر –ابنة مستشار البلاط فريدريك الخامس، ملك بوهيميا، وإليزابيث ستيوارت– والتي كتبت لأخيها الملك روبرت أنها رأت اللوحات رائعة الجمال التي رسمها فان دايك للملكة، وقد أقنعتها بأنها من أكثر نساء إنجلترا إغراءً، ولكن عندما رأتها عياناً، بدت أمامها طاعنة في السن «بذراعين طويلتين، نحيفة جداً، كتفاها منحنيتان، وأسنانها ناتئة من فمها كالأنياب». ولكنها اعترفت بأن عينيها جميلتان وبشرتها لامعة[1].

(1) C. Spencer, *Prince Rupert: The Last Cavalier*, Phoenix, London 2007, p. 33.
عرضت أنطونيا فريزر الكتاب على أعمدة صحيفة «الغارديان» في العدد 23 لشهر يوليو 2007، وفيه تروي القصة المدهشة عن ابن إليزابيث، ملكة بوهيميا، وابنة جيمس الأول: في عمر الثانية والعشرين، عام 1541، وكيف وضع روبرت خبرته البحرية في خدمة عمه شارلز ستيوارت الأول، في بداية الحرب الأهلية التي أدت إلى مقتل الملك.

أولت الدراسات التاريخية في السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً للدور السياسي الذي كان لهنريت ماري قبل الحرب الأهلية الإنجليزية وبعدها[1]. كانت الملكة ذات إيمان قوي، ولا تكتفي بأن تمارسه في مساحتها الخاصة، إلى حد أن جزءاً كبيراً من الرعايا كان يطلق عليها اسم «الملكة ماري»، وهو لم يكن لقباً إطرائياً بالتأكيد، إذ كان يستدعي للذاكرة تلك الذكريات القريبة المتعلقة بماري تيودر الأولى. لم يبدأ زواج شارل الأول وهنريت ماري بداية حسنة، لأن العلاقة الحميمة بين الملك ودوق باكنغهام كانت تتسبب في فجوة بينهما. وفي أغسطس عام 1628م، عندما أُغتيل الدوق، تغيرت الأمور وتولت الملكة ذلك الدور الذي كان لدوق باكنغهام، كأكثر شخص يثق به الملك ويستشيره، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح للمحيطين بالملكة في البلاط من فرنسيين وكاثوليك ثقلٌ مبالغٌ فيه. كانت القراءة السائدة حتى سبعينيات القرن العشرين تقدّم الأميرة كامرأة ذات شخصية قوية، مسيطرة، ومسؤولة عن تدمير زوجها. كانت سيسيلي فيرونيكا ودغود، على سبيل المثال، متأكدة من تأثير الملكة المتزايد في شارل الأول، وأنه كان يتّبع بخنوع تعليمات زوجته في كل مناسبة[2]. في أبحاث تالية، أُعيد تقييم ذلك الدور المسيطر، وتمّ الاعتراف بأن الملك كانت له هو أيضاً قدرة أكبر على تقييم الأمور.

(1) أعمال حديثة أكثر عن هنريت ماري هي:

D. Purkiss, *The English Civil War: A People's History*, Harper, London 2007; M.A. White, *Enrichetta Maria and the English Civil Wars*, Ashgate, Aldershot (GB)-Burlington (USA) 2006; *Henrietta Maria: Piety, Politics and Patronage*, a cura di E. Griffey, Ashgate, Aldershot (GB)-Burlington (USA) 2008; G. Raatschen, *Merely Ornamental? Van Dyck Por traits of Henrietta Mar*ia e M. Smuts, *Religion, European Politics and Henrietta Maria's Circle, 1625-41*, entrambi in Henrietta *Maria: Piety, Politics and Patronage* cit., rispettivamente pp. 139-164 e 13-38.

(2) C..V. Wedgwood, *The King's Peace: 1637-1641*, Collins, London 1966; Id., *The King's War: 1641-1647*, Collins, London 1968.

يؤكد كوينتين بون، على سبيل المثال، أن شارل، على الرغم من أن العلاقة مع هنريت ماري كانت حميمة جداً، كان نادراً ما يصغي إليها بشأن القرارات المتعلقة بإدارة أمور الدولة[1]. ثمة تأويل أحدث ينسب للملكة دوراً سياسياً أثناء الحرب الأهلية، لأن تصرفاتها كانت لها نتائج ضارة على شارل الأول. وفي واقع الأمر تصرّفت هنريت ماري لمصلحة الكاثوليك وحاولت أن تقاوم الثوار، بأن زودت الكاثوليك بالرجال والمال، دون أي نجاح؛ ولكن الدعاية البروتستانتية رسمتها كأيقونة لسلطة النساء الوحشية. كانت قرينة الملك مثالاً لكراهية الرأي العام لأي نشاط سياسي لزوجات الملوك عندما لا يقتصر دورهن على الوساطة السياسية والرعاية[2]. وأياً كان الأمر، تولت هنريت ماري دوراً سياسياً مثل العديد من النساء الأخريات اللاتي عقدن في القرن السابع عشر تحالفاتٍ عائلية قوية، ووجدن أنفسهن في مأزق أمام المسائل الدينية. إلا أنه لا يمكن إنكار أن الملكة، في تلك الحالة، لم تضع في اعتبارها حساسيات الإنجليز -فذكرى ماري تيودر لا تزال حية-، وتسببت لذلك في طرد العديد من الكهنة الكاثوليك من بلاطها ومن البلد[3].

في أعقاب الأزمة السياسية، ومع عودة ابن هنريت ماري، شارل الثاني، عادت سلالة ستيوارت للجلوس مرة أخرى على عرش إنجلترا وأسكتلندا وإيرلندا. على كل حال، ونظراً لأن الملكة كاترينا دي براغانزا، لم تستطع إنجاب ولدٍ لشارل، كان الوريث الأقرب هو أخوه، جيمس الكاثوليكي،

(1) Q. Bone, *Henrietta Maria: Queen of the Cavaliers*, University of Illinois Press, Chicago 1972.

(2) C. Levin, R. Bucholz, *Introduction: It's Good to be Queen, in Queens and Power in Medieval and Early Modern England*, a cura di C. Levin e R. Bucholz, University of Nebraska, Lincoln 2009, pp. XIII-XXXIII.

(3) «*High and Mighty Queens*» *of Early Modern England: Realities and Representations*, a cura di C. Levin, J. Eldridge Carney, D. Barrett-Graves, Palgrave Macmillan, New York 2003.

دوق يورك، أحد أعضاء العائلة الملكية الأقل شعبية. وحتى يطمئن البرلمان والشعب، قام شارل الثاني على الرغم من اعتراض أخيه، بتعليم ماري وآن، بنتي جيمس، كأميرتين بروتستانتيتين، وفي عام 1672 عَقَد اتفاقية زواج بين الابنة الكبرى ماري، والأمير وليم دورانج، ممثل حاكم هولندا، بحيث لا يصبح حفيد جيمس كاثوليكياً. حتى وإن كان لجيمس ابن ذكر -إذ وُلد وريث لشارل الثاني عام 1688- فقد كان سيرغب في تنشئته على الإيمان الكاثوليكي فكان من المتوقع إذن أن يتمّ حرمانه من العرش. وأياً كان الأمر، ولضمان استمرارية السلالة الملكية لعائلة ستيوارت، تجاهَلَ شارل الثاني الأمر الخاص بتفضيل الوريث الذَكَر، حتى في حالة وجود مُرشّح ذَكَر، وكان الدفاع عن البروتستانتية هو الأهم من بين المعتقدات الراسخة الخاصة بعدم الثقة في النساء.

من ناحية أخرى، لم يكن العديد من أعضاء البرلمان على استعداد لقبول جيمس ملكاً على إنجلترا، فصوّتوا على قانون الاستبعاد «Exclusion Bill»، الذي كان ينصّ على منع شقيق شارل من الانضمام إلى قائمة الورثة، مفضلين عليه دوق ماموث البروتستانتي، الابن البكر من أبناء شارل الثاني غير الشرعيين. من لم يؤيدوا هذا القانون بات اسمهم منذ تلك الفترة «المحافظون/Tories»، بينما صار اسم من أيدوه «الأحرار/Whigs». كان لشارل الثاني، من جهته، سلوكٌ مضطربٌ؛ ففي صيف عام 1679 حلّ الملك البرلمان، لعدم موافقته على قانون الاستبعاد، ولم ينجح في أن تكون له أية سيطرة على مجلس النواب ولا حتى بعد ذلك، وحَكَم شارل الثاني حتى نهاية فترة مُلكِه بالنظام الملكي المُطلق. كانت المعارضة الشديدة لقانون الاستبعاد قد دفعت مجموعة من البروتستانت عام 1683 إلى محاولة اغتياله أو اغتيال جيمس ولكن المحاولتين باءتا بالفشل.

لقد كان سلوك شارل الثاني يُفسر في ضوء تحوّله إلى الكاثوليكية وهو على فراش الموت، عام 1685م، وعلى أساس أنه حاول بكل الطرق أن يقنع أخاه أن يعلن أنه كان من قبلُ بروتستانتياً. من المؤكد أن هنريت ماري، الكاثوليكية والتابعة المخلصة لكنيسة روما، كان لها تأثير عميق في حياة أبنائها الذين، دون أن يقدّروا التبعات السياسية لاختياراتهم الايمانية، فَتحُوا بطريقة مختلفة الطريق أمام ثورة جديدة، بلا دماء هذه المرة. ففي سبتمبر عام 1688، استعدّ وليم دورانج، الذي كان متزوجاً بماري ستيوارت منذ أحد عشر عاماً، لغزو إنجلترا. وفي خلال الأعوام الثلاثة التي مرت على اعتلائه عرش إنجلترا وإيرلندا باسم جيمس الثاني، وفي أسكتلندا باسم جيمس السابع، خلع خليفة شارل الثاني أسقف لندن، وطرد الطلبة البروتستانت من الجامعات، وتخلص من القضاة الأنغليكان، وتلاعب بالبرلمان.

في شهر نوفمبر، ولتجنب الصدام بين الجبهتين، أدار الضباط الكبار ظهورهم للملك، الذي لم يعد أمامه من حلّ سوى التنازل عن الحكم والذهاب إلى المنفى. في 13 فبراير التالي، وافق البرلمان على وثيقة إعلان الحقوق «Bill of rights». لم يُمنح التاج للمولود الجديد جيمس فرانسيس إدوارد ابن جيمس، ولكن إلى وليم دورانج وماري معاً. كان قانون الحقوق يضع نظاماً للخلافة على العرش: سيأتي الدور بعد وليم وماري –إذا لم يكن لديهما ورثة– على آن وورثتها، وفي حالة عدم وجود أبناء لها، ينتقل الحكم إلى أبناء وليم ممن يمكن إنجابهم إذا تزوج مرة أخرى.

كان على ماري ستيوارت الثانية أن تقرر ما إذا كانت ستخضع لوليم أم ستُطالب بحقوقها كملكة حاكمة، فاختارت دور الزوجة في انسجام مع المُثل العليا للنساء التي كانت متداوَلة بين كثير من النساء الأرستقراطيات. إلا أنها كانت تثير الدهشة، كحاكمة محلّ زوجها في حالة غيابه، بسبب

قدرتها على اتخاذ القرارات السياسية. كان تأثير ماري الثانية هو ما أدى إلى استقرار الأسرة الحاكمة الجديدة واكتساب إخلاص الرعايا للحكم الملكي. وفي أعقاب وفاتها، انتشرت أعمالٌ متنوعة تناقش وضع المرأة، من بينها كتاب ماري أستيل «**اقتراحات جادة للسيدات**» (1697)، الذي كان الجزء الثاني منه مخصّصاً للملكة آن. لقد كرّست شاعرات كثيرات أثناء حكمها، أعمالهن لإضفاء الشرعية على حكم النساء[1]. تعتقد لوا شويرر، أن قانون الحكم الملكي لعام 1690، حتى ولو كانت ماري الثانية ملكة بالاسم فقط، وذات سلطات محدودة جداً، كان ضرورياً لمنحها سلطة الحكم في حالات غياب الملك وليم، الذي حكم إنجلترا باسم وليم الثالث. إلا أنها كحاكمة، لم تكن لها السلطة الفعلية لاتخاذ قرارات فردية، لأن قانون الحكم الملكي يحدد أيضاً وجوب أن تعلو أوامرُ الملك على أوامرها حتى في حالة غيابه، ثم بعودته تعود إليه السلطة الفعلية. على الرغم من أن دور ماري كان أكبر من مجرد قرينة الملك، فإنه كان أقل من دور الحاكمة: وتُعرّف الكاتبة ما تم تأسيسه في إنجلترا بأنه كان «مَلَكية مزدوجة»[2].

ماتت ماري الثانية عام 1694 دون أن تنجب، وحزن عليها وليم الثالث كثيراً ثم مات بعدها عام 1702م، دون أن يتزوج مرة أخرى. كانت قواعد الخلافة بحسب وثيقة إعلان الحقوق، قد حددت أن يؤول المُلك في تلك الحالة إلى أخت زوجته آن، التي لم يُكتب عنها الكثير. تساءل روبرت بوشولز عن سبب عدم تقديرها التقدير الكافي، وعدم الاعتراف التقليدي بقدرات الملكة على الحكم، وهي قد رُسمت لعدة قرون كربة منزل بدينة، على الرغم

(1) *Queenshipin Britain. 1660-1837. Royal Patronage, Court Cultureand Dynastic Politics*, a cura di C Campbell Orr. Manchester University Press. Manchester 2002.

(2) L. G. Schwoerer, *Images of Queen Mary II, 1689-95*, in «Renaissance Quarterly», 42, 1989, 4, pp. 717-748.

من أن فترة حكمها كانت قد جلبت الاستقرار الداخلي ورفعت إنجلترا إلى مصاف القوى العظمى العالمية. يحيل الكاتب عدم التقدير لا إلى الأحكام المسبقة على دور النساء عامّه وخاصه، بل وبالأخص إلى واقع أنه لم يكن في الإمكان وصف آن بأي فضيلة «ذكورية». لقد تزوجت بجورج الدنماركي عام 1683، وأنجبت خمسة عشر ابناً، ماتوا جميعاً قبل وفاتها. وكانت نزاهتها وإخلاصها كزوجة مضرباً للأمثال. يوضح بوشولز نشاطها سواء كراعية للفنون، وللموسيقى بخاصة، أو براعتها السياسية وقدرتها على اتخاذ القرارات بمفردها: لم تكن آن تقاد من وزراء أي حزب[1]، ولم تكن تسمح لموظفي البلاط بالتحكم في نشاطها الخاص برعاية الفنون[2]. وعرفت الملكة على الفور كيف تكتسب الشعبية. في حديث لها في البرلمان حاولت التمييز بينها وبين زوج أختها، قائلة، إنها، خلافاً عن وليم الثالث، إنجليزية المولد ولذلك لن تفعل أبداً أي شيء يمكن أن يضر بلدها؛ وإنها لن تترك، وبصفة خاصة، مشاعرها تجاه زوجها لتحوّلها من ملكة كاملة الحقوق إلى قرينة الملك، وستكتفي بأن تعهد لزوجها المتيمة به، قيادة القوات البحرية[3]. ظهر إدراكها لدورها أيضاً من خلال رغبتها في أن تعيد طقس لمس الملك مرضى السلَ بخاتمه، لمنحهم الشفاء، وهي إحدى مميزات الملوك سواء في إنجلترا أو في فرنسا، وقد كان وليم الثالث قد ألغاها لأنها ممارسة بابوية تثير التشاؤم[4].

عند موت آن عام 1714 صعد جورج على العرش، ملكاً أول لإنجلترا من

(1) G. Curtis, *The Life and Times of Queen Anne*, Weidenfeld & Nicolson, London 1972, p. 107; E. Gregg, *Queen Anne*, Yale University Press, New Haven- London 2001, pp. 162-163.

(2) R.O. Bucholz, *Queen Anne. Victim of her Virtues?*, in *Queenship in Britain* cit., pp. 94-129.

(3) D. Green, *Queen Anne*, Collins, London 1970, p. 91; M. Waller, *Sovereign Ladies. The Six Reigning Queens of England*, John Murray, London 2006, p. 313.

(4) Green, *Queen Anne* cit., p. 105; Waller, *Sovereign Ladies* cit., pp. 316-317.

عائلة هانوفر. كانت أمه صوفيا بروتستانتية، معينة كوريثة شرعية للسلالة الملكية في مرسوم التولية لعام 1701م، فهي ابنة إليزابيث، ملكة بوهيميا، وهذه الأخرى كانت ابنة جيمس الأول ستيوارت.

وفي القرن السابع عشر، انقطعت سلسلة خلافة عائلة ستيوارت مرتين بسبب عدم وجود ورثة من الذكور. سواء في حالة شارل الأول أو في حالة جيمس الثاني، فقد رفض الثوار أن يحكمهم ملك كاثوليكي، وأعيدت المَلَكية من خلال تعيين رموز العائلة الملكية من النساء. في إنجلترا منذ منتصف القرن السادس عشر، سمح حُكْم النساء –سواء بالاشتراك مع أزواجهن أم لا– بتخطّي أصعب اللحظات في الدولة. إن الإشكاليات المتعلقة بالخلافة النسائية، والتي كانت موضوع نقاش في القرن السادس عشر أثناء حكم ماري وإليزابيث تيودر كأمر وحشي وظاهرة منافية للطبيعة، تمّ تجاوزها في النصف الثاني من القرن السابع عشر وباتت غير واقعية بسبب ضرورة محاولة وَصْل الاستمرارية في الحكم الملكي، لم يكن هذا التبادل للأدوار يجلب دائماً النتائج نفسها: فقد ساهمت امرأة، وهي هنريت ماري، في تفاقم حدة الصراعات الدينية بنزعتها التبشيرية؛ وخاصة من خلال زرع الإيمان الكاثوليكي في أبنائها. وإذا كان شارل الثاني قد حاول تهدئتها بذريعة واجباته الملكية حتى لحظة موته، فإن جيمس الثاني ظل مرتبطاً بقناعاتها بلا أية مرونة. بصيرة شارل الثاني وحدها، وقد كان أقل تأثراً بتعصّب أمه، هي ما أبعد بنات أخيه عنه، وهي أيضاً ما سمح لهذه العائلة المَلَكية بأن تستمرّ، من خلال الخط النسائي. لقد هدد عقم ماري الثانية وعدم قدرة آن على أن تُكمل حملها أو أن تلد أطفالاً أصحاء، هذه المرة، إمكانية استمرار الملكية، وحلت عائلة هانوفر مكان عائلة ستيوارت. ولكن إذا كانت إمكانية استمرار الاسم قد انتفت، فقد ظلت استمرارية الدم، وذلك من خلال بنات

إليزابيث، ملكة بوهيميا.

2. جسد كريستينا

لم يمنح التاريخ أهمية كبيرة للأسباب السياسية التي أدت إلى اختيار كريستينا، الابنة الوحيدة لملك السويد غوستافو أدولفو الثاني، وهي التي رباها أبوها كما لو كانت ولداً. وفي الواقع، فإن الأبحاث المكتوبة عنها، وخاصة في إيطاليا، ركّزت في ثقافة كريستينا ورعايتها للفنون، أو في علاقاتها الجنسية وبالنتيجة فقد ركزت في جسدها. عندما وُلدت عام 1626م، اعتقد الجميع أنها ذكر؛ وذلك لأنها، وفق إحدى الروايات، كانت مغطاة بالشعر وذات صوت قوي[1]. ولكن الأب، عندما أُزيل سوء الفهم، كان سعيداً لأن المولودة الجديدة عرفت كيف تخدع الجميع. كانت كريستينا ابنة غوستافو أدولفو الوحيدة التي ظلت على قيد الحياة، في لحظة أبعَدَت فيها الحرب أباها عنها، وكانت إمكانية أن يُولد له وريث ذكر ضعيفة جداً. بعد ذلك بستة أعوام، مات غوستافو أدولفو في معركة في لوتسن. أمر الملك، لإدراكه أن احتمالات موته قريبة، بأن يتمّ تنشئة الصغيرة كما لو كانت أميراً، واستطاع أن يحصل من الأمراء على إلغاء ضرورة نقل الملكية إلى الأبناء الذكور فقط منذ عام 1627.

وهكذا أصبحت كريستينا، عام 1632، ملكةً. وانطلاقاً من عام 1650 كانت مشكلة الخلافة قد أجبرتها على مواجهة ضرورة الزواج. كان الاختيار الأوضح هو ابن عمتها شارل غوستافو فازا، ابن أخت غوستافو أدولفو.

(1) L.H. Zirpolo, *Christina of Sweden's Patronage of Bernini. The Mirror of True Revealed by Time*, in «Women's art Journal», 26, 2005, 1, pp. 38-43, citazione a p. 38.

ولكن الملكة كانت تفضل الكونت ماغنوس غابريلي دي لاغاردبي، ونظراً لأنها كانت تمقت فكرة الزواج -كما كتبت بنفسها في مذكراتها- فقد جعلته يتزوج بماريا أوفروزينا أخت كارلوس غوستافو. عام 1651 أظهرت كريستينا النية في أن تتخلى عن العرش واستطاعت أن تصل إلى تعيين ابن عمتها خليفةً لها وأميراً ووريثاً. تنازلت كريستينا عن العرش بعد ذلك بثلاثة أعوام، فقد كانت قد أكملت أثناء ذلك مسيرتها في الاقتراب من الكنيسة الكاثوليكية. تناقش الكثيرون في أسباب هذا التحول، ومن حين إلى آخر تم تفسير ذلك كنوع من الاعتراض على تربيتها البروتستانتية القاسية، ونتيجة لإعجابها الشديد بثقافة الباروك أو كنوع من الثورة الفردية.

في الثالث من فبراير 1660م، توفي الملك كارلوس غوستافو فجأة تاركاً طفلاً يبلغ من العمر خمسة أعوام كوريث لعرش النمسا. وفي الثاني من يوليو غادرت كريستينا روما، حيث كانت تعيش، لتعود إلى ستوكهولم، ووصلت في 12 أكتوبر، وطلبت أن تعود إليها حقوقها في التاج مرة أخرى في حال موت الملك الصغير، ولكنها واجهت معارضة النبلاء والقساوسة اللوثريين، واضطرت إلى العودة مرة أخرى إلى إيطاليا. حاولت كريستينا ذلك ثانية عام 1666، ولكن مجلس الحكام منع كاهن كنيستها الكاثوليكي من الدخول إلى السويد، ولم تستطع الاستئناف. عام 1668 وفي أعقاب تخلي ملك بولندا جوفاني كازيميرو عن العرش، تصورت كريستينا أن في ذلك فرصتها لأن ترشح نفسها مكانه، ولكنها وُوجهت بفشل آخر وعادت هذه المرة إلى روما، لتبقى هناك حتى موتها في التاسع عشر من أبريل عام 1689م.

اِعتبر التاريخُ الحديث كريستينا إحدى أهم النساء في عصرها. كانت اختياراتها الشخصية موضوع نقاش، سواء على صفحات الجرائد أو في

الأبحاث الأكاديمية. وأثناء وجودها على قيد الحياة أيضاً تمّ نشر أعمال أكثر اهتماماً بنميمة البلاط: كوّنَت الحكايات الخاصة بكريستينا مجموعة من النصوص غير متناسقة فيما بينها، كانت تُوزَّع على نطاق واسع في أوروبا في النصف الثاني من القرن السابع عشر[1]. اعتمد الجزء الأكبر منها على مصادر قليلة لم تُترجَم، نُشِرت وأعيدت كتابتها أكثر من مرة، وهذا يؤدي إلى انتشار تراث من النصوص المتناقضة جداً. إن الحكايات العديدة المتعلّقة بالملكة كريستينا تؤكدها استمرارية ملحوظة، وقد حوّلتها إلى أيقونة، تقدِّم فقط ما أراد المؤلفون رؤيته فيها[2]. احتقار الزواج والأحاديث النسائية، ارتداؤها ملابس مثل أزياء الرجال، سلوكها غير التقليدي، وبعض الإيحاءات الخفية عن غموضها الجنسي -وقد سببه تضخّم في البظر عند ولادتها؛ وهو السبب الحقيقي الذي جعلهم يعتقدون أنها ذكر في البداية- كانت تلك الإيحاءات مواضيع لإنتاج وفير من الروايات والسير الذاتية، والأعمال الغنائية والأفلام، وأكدتها أيضاً فكرة عدم استقرارها النفسي، وقد تكون قد ورثته عن أمها.

في عام 1965م، وعلى أساس تلك الأدلة، وصل الأمر إلى حدّ إخراج رفاتها للتشريح مما أعطانا بعض النتائج غير المؤكدة، فقد بيّن الطبيب الشرعي الأنثروبولوجي كارل-هرمان يورتشيه (Carl–Herman Hjortsjö)، الذي

---

(1) يمكن الاطلاع على سبيل المثال على ماير:

C. Meyer, *Kristina, the Girl King*, Sweden, 1638.

تشكل تلك النصوص قاعدة المعلومات الوثائقية للدراسات الحديثة أيضاً، والتي من بينها:

C. Meyer, *Kristina, the Girl King* [Sweden 1638], Scholastic, New York 2001, e Cristina di Svezia, *La vita scritta da lei stessa e dedicata a Dio*, traduzione di Maria Conforti, Antonella Moscati, Marina Santucci, Cronopio, Napoli 1998,

وهي أيضاً تعتمد على مصادر من السِّيَر الذاتية.

(2) N.E. Wåghäll, *Writing Life, Writing News: Representations of Queen Christina of Sweden in Early Modern Literature*, in «Renaissance Studies», 23, 2009, 22, pp. 221-239.

تولى هذا البحث، إن «معرفتنا محدودة بشأن تأثيرات الخنوثة في تشكيل الهيكل العظمي، وهو ما يجعل من المستحيل التأكّد مما يجب علينا فحصه على أساس بقايا العظام للوصول إلى التعرف إلى الخنوثة». على الرغم من ذلك، يفترض يورتشيه أن كريستينا كانت تتمتع بأعضاء نسائية متطوّرة تمكنها من الحيض، وهو الشيء الذي وثّقته أيضاً المصادر المختلفة[1]. مهما كان من أمر، فإن ذوق القراء الذي يبحث فيما بعد أيضاً عن تلك التفاصيل الملتهبة، قد وَجَد ما يبحث عنه في أعمال تُقدِّم له وجبةً من جسد الملكة وتصرفاتها الشاذة، سواء أكانت حقيقية أم مزعومة. ويبدو أن ازدواج الجنس لا يمكن قبوله لامرأة، بينما كان ذلك مقبولاً بالنسبة إلى كثير من الملوك، حتى في عدم وجود فرضية العيب الخلقي. ودون النزول إلى مستويات التحقيق التشريحي المقيت لعام 1965، فإن الانتباه الممنوح لملكة السويد، حتى في السنوات الأقرب، كان يتركز على الأخص في الجوانب الأكثر إثارة للخجل في حياتها. واستمرت الأقوال في عرض تلك الجوانب دون أي تحليل جاد حول حقيقة تلك المصادر الأولية، وإنما على أساس الإنتاج الأدبي المتراكم بمرور الزمن فحسب. وإذا أخذنا في الحسبان المراكز الثقافية الأوروبية

---

(1) C. H Hjortsjö, Queen *Christina of Sweden: A Medical/Anthropological Investigation of Her Remains in Rome (Acta Universitatis Lundensis)*, C.W.K. Gleerup, Lund 1966, pp. 1-24;

يمكن أيضاً الاطلاع على يورتشيه:

C.-H Hjortsjö, *The Opening of Queen Christina's Sarcophagus in Rome*, Norstedts Hjortsjö, Stockholm 1966.

إضافة إلى ذلك فإن هذا مؤكد أيضاً في الوثائق التي تم الاستشهاد بها في أعمال أحدث، مثل البحث التالي:

Verena Von Der Heyden-Rynsch, *Christina von Schweden. Die Rätselhafte Monarchin*, Piper, München 2002,

وهو ما يقدّم نتيجة التشريحين اللذين أجريا بعد الوفاة على جثة الملكة، فقد أكّدا عدم وجود أي شيء غير طبيعي في جسد الملكة.

الأساسية، فإن البانوراما لن تتغير كثيراً. بينما الإنتاج التاريخي عن الحيوية الثقافية لكريستينا غني، وخاصة في إيطاليا، فإنه لا يوجد تقريباً أي انتباه إلى تأثير نتائج اختياراتها في المجال السياسي. قدّم التاريخ الفرنسي من زمن قريب عملين اثنين عن أثر التراث في السير الذاتية المنتشرة، وأظهر التاريخ الأنغلوسكسوني قمة الاهتمام بمناسبة استخراج رفاتها. التاريخ الألماني وحده قد خصّص لهذه الحالة الاهتمام الذي تستحقه[1].

قدمت باربارا بريجانتي على صفحات جريدة «لاريبوبليكا» الإيطالية بتاريخ 24 أغسطس عام 2006، عرضاً لكتاب فيرونيكا بكلي. جذب المقال الانتباه من خلال عنوان أثار الفضول لدى القراء: «كانت ساحرة وتسبب ذلك في علاقات مدمرة. لكن حياتها كانت تتراوح بين الفضائح والقتل». فكما هو الحال في بلاط فرنسا، وبدلاً من تناول الطريقة التي عالجت بها الملكة الأمور السياسية، حيث كانت تحاول، بلا هوادة، مناورة ماتزارينو للحصول على مملكة نابولي، تم تحويل الاهتمام إلى أن «التفاصيل العديدة

(1) الأعمال الأخيرة التي نُشرت في إيطاليا عن حياة كريستينا هي:

Cristina di Svezia. La vita scritta da lei stessa, Cronopio, Napoli 1998; D. Pizzagalli, La regina di Roma, Rizzoli, Milano 20A. M. Trivellini, *Cristina di Svezia*, Maria Pacini Fazzi Editore, Lucca 2004; الترجمة من الإنجليزية V. Buckley, *Cristina regina di Svezia. La vita tempestosa di un'europea eccentrica*, Mondadori, Milano 2006.

بالنسبة إلى فرنسا يمكن الاطلاع على:

D. des Brosses, *Christine de Suède: La fascinante et scandaleuse reine du Nord*, AKR La Courneuve 2006 B. Quillet, *Christine de Suède, un roi exceptionnel*, Fayard, Paris 2007.

ولقرّاء اللغة الألمانية:

J.P. Findeisen, *Christina von Schweden. Legende durch Jahrhunderte, Societäts-Verlag, Frankfurt a.M. 1992; S. Grabner, Die Rebellin. Königin Christine von Schweden; historischer Roman*, Ullstein, Frankfurt a.M. 1995; Kaiser, *Die Amazone von Rom. Das abenteuerliche Leben der Christina von Schweden*, Verlag seifert, Wien 2005; N. Blazon, *Der G. Spiegel der Königin*, Ravensburger Buchverlag, Ravensburg 2006.

التي أوردتها باكلي في الكتاب مثيرة ومسلية جداً. كيف كانت آنا النمساوية المتغطرسة والمتدينة تتصرف عندما تسمع أحدهم يقول: لماذا تولد البنات الجميلات إذن إن لم تكن الغاية هي أن نطارحهن الغرام؟ وماذا حدث في إحدى المرات عندما ارتدت الملكة رداءً شبه نسويّ، وبينما هي مندمجة ومسحورة من العرض، تدع نفسها مسترخية على الأريكة رافعةً قدميها فوق مسند الأريكة، لتُظهر ما لا تجرؤ أي امرأة جريئة على كشفه؟».

في مقال لكورادو أوجاس ظهر أيضاً على صفحات «لاريبوبليكا» في 26 فبراير 2012، تحت عنوان «كريستينا السويدية: سر الملكة التي تخلّت عن العرش»، تمّ في النهاية توضيح أهمية التنازل عن العرش كعمل سياسي، مع التعليق على بعض الوثائق من أرشيف الفاتيكان السري، والمعروضة في معرض «*Lux in acrana*»، الذي تم افتتاحه يوم 29 أكتوبر من العام نفسه. في الواقع كتب أوجاس:

إن حدث التنازل عن العرش، الذي تعيده إلينا مرةً أخرى تلك الصفحات، يقول كل ما يمكن أن تذكره وثيقة رسمية، وهو بالفعل كثير. ولكن هذا ليس كل شيء، نظراً إلى أن لقصة كريستينا أبعاداً تفوق بكثير تلك الخصائص التي أُلصقت بها على أساس الاعتقاد بأن «المميزات والحقوق التي للملوك معطاة لهم من الربّ ومن الطبيعة»، ونتيجة ذلك أنها لا يمكن انتزاعها منهم ولا حتى بعد أن تنتهي وظائفهم، فـ«**الملك ملك إلى الأبد**» (*Rex in aeternum*)، وهذه العبارة تلخّص وضعهم المقدس. إضافة إلى ذلك فإن الفقرة المدهشة هي التي تجعل الملكة السابقة مسؤولة عن تصرفاتها الخاصة، فقط أمام الله، فتُمنَح بهذه الطريقة صلاحية أن «تلجأ إلى حقها في الحرية والاستقلال وكلتاهما من طبيعتنا الثانية»، وهي صلاحية استفادت منها كريستينا المضطربة في كثير من الأحيان.

يبرِزُ كاتب المقال بعد ذلك على الفور كيف أنه، بعيداً عن السلوك الرسمي، لا يزال ثمة جوانب غامضة في شخصية كريستينا والأسباب التي قادتها إلى التنازل عن العرش. ينقل أوجاس أيضاً بعض الأقوال التي يعرف، من خبرته كمُروّج قديم للإشاعات، تأثيرها القوي في الجمهور.

ما الذي دفع إذن بكريستينا إلى التنازل عن العرش؟ وما الذي جعلها تتحول إلى الكاثوليكية وتستقر في مدينة الباباوات؟ كانت قد صحبت ولادتها في 18 ديسمبر 1626 دلائل غامضة، فقد لوحظ على الفور أن صوتها قوي، حيويتها شديدة، وربما هذا التضخم الشديد في البظر الذي لأجله توهمت القابلات، مرتبكات، أنها ذكر. ففي اليوم التالي فحسب، اكتُشِف جنسها الحقيقي، بفحصٍ دقيق لأعضائها التناسلية. يبدو أن أباها الملك، غوستافو الثاني أدولفو الكبير، اِستاء كثيراً لأن ابناً ذكراً كان سيضمن بصورة أفضل استمرارية السلالة الملكية. إلا أنه تماسك وهو يُعلق مبتسماً: «ستكون ماهرة، فقد استطاعت خداعنا جميعاً...». إن الحدث الذي أبعدَ كريستينا عن العرش إلى الأبد، هو الطلب المتكرر من قِبَل القائمين على الدولة بأن تجد لنفسها زوجاً لتقدّم وريثاً للعرش. «لا يمكنني الزواج، صاحت. لا أرغب في أن أشرح أسباب ذلك، ولكن لتعلموا جميعاً أن فكرة الزواج تصيبني بغثيان شديد». وفي مناسبة أخرى أعلنت: «لا أتحمّلُ فكرة أن يستخدمني رجل بالطريقة التي يستخدم بها الفلاح حقله».

يبدو أن المؤلّفَ لم يكن لديه أدنى شك أن ميولها السحاقية قد تمَّ إعلانها. فإحدى أطول علاقاتها العاطفية كانت مع الكونتيسة السويدية، رائعة الجمال، إيبا سبارا، التي قدمتها يوماً ما إلى السفير الإنجليزي وهي تصفها بلا أي حياء بأنها «الحبيبة رفيقة فراشها». وبعد أعوام عديدة قضتها في روما كانت مستمرة في مراسلاتها بخطابات تحمل تلك النبرة: «إنني مِلْكُكِ، لن

يمكنك قطّ أن تفقديني، سأتوقف عن حبك فقط بموتي».

إذا كانت ثقافاتنا قد قبلت عدم الإكراه في الاختيارات الجنسية، فإن التناقض في تقديم كريستينا، حتى اليوم، كشخص عانى تشوهاً، وكذلك المصادر نفسها التي كان يتم تناولها بحرص في يوم من الأيام، لإخفاء «خطأ ما»، أصبحت الآن دلائل على «سحاق» لا شك فيه. وسواء أكانت خنثى -كما في حالة إليزابيث الأولى- أم سحاقية، فإن هذا لم يكن يوجب منعها من البقاء في العرش. إن الذي دفع كريستينا ملكة السويد إلى التنازل عن العرش يبقى أمراً مفتقراً إلى الوضوح. المؤكد أنها، من الواضح مثل إليزابيث، لم تقبل الزواج لأنها لم تكن ترغب في الاعتماد على رجل، حتى وإن كان من الممكن في حالتها أن تتزوج ببساطة بابن عمتها العزيز، مدعّمة بذلك السلالة الملكية لعائلة فازا؛ إضافة إلى ذلك لم تكن ثمة أي حروب دينية دائرة في السويد، حيث كانت النزعة اللوثرية قد دعمت وجودها، وهي التي لأجلها انضم أبو كريستينا إلى حرب الثلاثين عاماً. لقد اعتُبِر تحول كريستينا إلى الكاثوليكية إجابةً مفهومة بسبب التأثير السحري الذي كانت تسببه لها الثقافة المناهضة للثقافة التقليدية. ولكن كيف يمكن لهذا الافتراض أن يتوافق مع واقع أن كريستينا، وبمرور الوقت، قد حاولت لمرتين أن تعود إلى الوطن كملكة، مع أتباعها من الأدباء والقساوسة، دون أن تنجح؟ يمكن أن يكون ذلك بسبب أن أتباعها قد نالوا منها ما يكفي، فهي امرأة، وهي مسرفة جداً، وكان البديل الذي وفرته هي بنفسها أفضل منها بكثير. ولعلّ السبب الأقوى أن النزعة الكاثوليكية كانت شيئاً غريباً بالنسبة إلى الجميع، وكذلك كانت الملكة.

إن السلطة، التي تخلّت عنها، استمرت تدغدغها وتقودها إلى نسج اتفاقيات واهية للحصول على عرش بولندا (حيث كان الملك منتخباً ولم

يكن هناك بالنتيجة أي شيء يضمن استمرار السلالة المَلَكية)، أو عرش نابولي. كان مزاجها متقلباً وسلوكاتها مجنونة مثل أمها ماريا إيليونورا من براندبورغو، وقد أُستُبعدت من البلاط عندما كانت الملكة في سن يافعة، حتى لا يكون لها تأثير سيئ في ابنتها.

ليس الأشخاص جميعهم عقلاء بالطبع، ومن يحاول أن يقدّمهم بهذه الطريقة إنما هم المؤرخون. وحتى لا ننتهك كريستينا أيضاً من الناحية النفسية، سنكتفي بهذا القدر[1].

3. مارغريتا دي فالوا وماريا دي ميديتشي: شرعية لويس الثالث عشر

عقب وفاة هنري الثالث، عام 1589م، استمرت مارغريتا دي فالوا، التي كانت ملكة فرنسا بالاسم، ولكنها كانت منذ زمن بعيدة عن زوجها، الملك الجديد هنري الرابع، واستمرت في عزلتها في قلعة دوسون، حيث نجحت في أن تستنهض دائرة ثقافية نشطة. وإلى ذلك، ستصبح مارغريتا دي فالوا بعد بضعة أعوام حلقة مهمة في انتقال السلالة الملكية، حين توافق على الطلاق من هنري البوربوني، الذي لم تنجب منه أبناء، وعندما سنحت للملك فرصة الزواج بماريا دي ميديتشي. بعد انفصال مارغريتا عن زوجها، تسبب وضعها غير المعتاد في باريس في ردود فعل متضاربة: فثمة من مدَحَ فضائلها، كما وُجِد من جعلها موضوعاً للإشاعات المُغرضة.

كتبت بنيديتا كرافيري أن مارغريتا، وهي ضحية القانون السالي الذي

(1) M. L. Goldsmith, *Christina of Sweden: a Psychological Biography*, A. Barker, London 1935.

حرمها من العرش -وآخر وريثة لعائلة فالوا- قد تصرفت بحكمة سياسية، في مراعاة معنى الدولة، وبحكمة ملكة أصيلة ومُروءتها [...]. ولكنها لم تكن تتخيّل أن الزمن يحتفظ لها في مكان ما بعرش آخر. مع بداية السنّ الرومانسية [...] أصبحت مارغريتا ملكة لبلد بلا حدود وبلا زمن، يقع على ضفاف التاريخ، مملكة الرواية والمغامرة، التي لن تَعدِم فيها أبداً الرعايا المخلصين، المستعدين لأن يقدموا لها الولاء المتحمّس من التعاطف والإعجاب[1].

كانت الملكات بالوصاية بطلات للرواية أيضاً، وبخاصة في روايات ألكسندر دوما الأب -آنا النمساوية على وجه الخصوص- وقد عاشت بلا قيود سنوات عمر ابنيها القاصرين، لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر، والحال أنّ دورهيما السياسيين كانا ذوَي أهمية هامشية ولا يزالان. أمّا في حالة ماريا دي ميديتشي، ومنذ القرن الثامن عشر، فإنّ دورها كحاكمة بالوصاية كان قد مُحِي من الذاكرة القومية، وحتى الآن كل ما نعرفه عنها عماده المصادر المعادية لها. لقد صُدمت ماريا دي ميديتشي بعد وصولها إلى باريس، حين اكتشفت أن لزوجها عشيقة؛ هي هنريت دونتراج، ماركيزة فارنوي، وقد كانت حبلى فضلاً عن ذلك. كانت هنريت تتمسّك بكونها الزوجة الفعلية للملك، نظراً لأنها أسدت إليه خدماتها في مقابل وعْدٍ مكتوب بالزواج فحسب، كان كتبه قبل زواجه بماريا. في 27 سبتمبر 1601م أنجبت الملكة وليّ العهد، وبعد ذلك بقليل وُلد ابن هنريت غاستون هنري. ومنذ تلك اللحظة طفقت الماركيزة تؤكد أن العرش سيكون من حق ابنها، وأن الأبناء غير الشرعيين هم أبناء «الثرية السمينة». كان الأمر صحيحاً فعلاً إذ تزوج الملك بماريا بسبب ثراء عائلة دي ميديتشي. أما فيما يتعلق بميلها إلى السمنة، فإن ماريا اختارت بيتر بول روبنز بعد ذلك بفترة، ليرسمها كما لو

(1) B. Craveri, *Amanti e regine. Il potere delle donne*, Adelphi, Milano 2005, p. 85.

كانت إلهة الإغراء[1].

في أعقاب ذلك كانت التوترات والمُضايقات التي تتعرض لها حاشيتها من الإيطاليين قد تراجعت جزئياً، واعتادت الملكة على أجواء البلاط، بل واتخذت أيضاً موقفاً أكثر مرونة تجاه ماركيزة فارنوي[2]. عام 1610، وقبل اغتيال الزوج، نجحت ماريا في الحصول على الاعتراف المهيب بدورها، وذلك من خلال احتفال تكريسها في سان دنيس، في الثالث عشر من مايو، وفي اليوم التالي تمّ طعن هنري الرابع. استطاعت ماريا، كملكة قرينة للملك، ومُكرسة، أن تنال دور الملكة بالوصاية على لويس الصغير، وكانت سنّه وقتها تسعة أعوام، ولكنها لم تكن محبوبة قط، وخاصة بسبب ميولها الممالئة لعائلة هابسبورغ -كانت أمها هي جوفانا النمساوية، الابنة الأخيرة للإمبراطور وحفيدة كارلوس الخامس-. إذ دعمتها أيضاً، عام 1615، زيجتان متزامنتان من زوجين من الإخوة: إذ تزوجت ابنته إليزابيث بفيليب ابن فيليب الثالث ملك إسبانيا ووريثه، وتزوج لويس ملك فرنسا آنا أميرة إسبانيا. كان الحكم بالوصاية لماريا متداخلاً سياسياً، وبعد سنتين اضطر لويس الثالث عشر، البالغ من العمر ستة عشر عاماً، إلى أن يتخذ قراراً صارماً.

كانت ماريا محاطة بمستشارين إيطاليين، مثل صديقة الطفولة إيليونورا جاليجاي وزوجها كونتشينو كونتشيني، المكروهين من جلّ نبلاء فرنسا، الذين يقودهم هنري، أمير كوندي، وهو من كان قد نظم الثورة ضد الملكة بالوصاية. وعندما انتشر الاستياء من حكمها ومن طمعها، بسبب تأثير

(1) Ivi, pp. 106-107.

(2) A. Castelot, *Maria de' Medici. Un'italiana alla corte di Francia*, Rizzoli, Milano 1996, pp. 33-36.

عن ماريا يمكن الاطلاع أيضاً على بحث تاباكي:

S. Tabacchi, *Maria de' Medici. Regina e ribelle. Gli intrighi e la caduta dell'ultima italiana sul trono della Francia di Enrico IV e Richelieu*, Salerno Editrice, Roma 2012.

الحاشية وسياستها الفاسدة، أبعدها الملك عن السلطة وأجبرها بالقوة على الاعتزال في قلعة بلوا، بعد أن عمل على قتل كونتشينو كونتشيني في 24 أبريل 1617م.

بعد ذلك بعامين هربت الملكة من قلعة بلوا مستخدمةً في ذلك سلماً من الحبال على جدار طوله أربعون متراً (تبدو إحدى اختلاقات روايات ألكسندر دوما!)، ومن هنا لجأت إلى قصر أنغوليم، حيث كان يوجد تحالف من النبلاء يمكن أن يساندها في محاولتها لنزع السلطة من ابنها الملك. وعند هزيمتها تمت إعادتها إلى البلاط مستشارة خاصة للملك، وذلك بتدخّل من الكردينال دي ريشيليو؛ عندئذ تولّت ماريا دي ميديتشي دور رعاية الفنانين مثل غويدو ريني، وخاصة روبن. بين الأعوام (1622–1625)، نفّذ الرسام الفلامنغي دائرة من أربع عشرة لوحة على القماش لمعرض قصر لوكسمبورغ، وذلك احتفالاً بملَكية ممولته. كانت قمة المجد بالنسبة إلى ماريا ممثَّلَة في الأيقونات الخاصة بتكريسها، ولكن الأغراض المتعلقة بالاحتفاء الذاتي كانت أكثر وضوحاً في مشهد هروبها من بلوا، وقد صُوّر بطرق كلاسيكية مبهرة، بعيدة تماماً عن أية إشارة إلى مغامرتها العجيبة.

وبعودة الملكة الأم إلى البلاط، لم تتوقف مؤامراتها، وخاصة ضد ريشيليو، الذي كان مؤيِّداً لها في البداية أثناء تمرد أمير كوندي ومعظم النبلاء الفرنسيين، وقد قدمته هي بنفسها ليكون أحد المقرَّبين إلى لويس الثالث عشر. ولكن الكردينال كان معارضاً للسياسة المؤيدة لآل هابسبورغ الذين تتبعهم ماريا، هي التي أرغمت في عام 1630، وبعد فشل آخر محاولاتها للتحكم في سياسة المملكة، على العودة من جديد إلى المنفى. هربت إلى بروكسل عام 1631 ودعمها في ذلك أعداء الملكية الفرنسية، وحُرمت من وضعها كملكة وفقدت إقطاعيتها الثرية. ولقد تنقلت في أعوامها الأخيرة عبر قصور أوروبا

في زيارات إلى بناتها وكناتها، ولكن دون أن تتمكن قط من العودة إلى فرنسا حيث كان مصير مؤيديها السجن، أو المنع من الأماكن العامة، أو الحكم عليهم بالموت. كان ملجؤها الأخير هو منزل روبنز في كولونيا، حيث ماتت في الثالث من يوليو 1642م، قبل ريشيليو بقليل[1].

تأثّر حكمُ معاصريها تأثراً شديداً بدعاية الكردينال دي ريشيليو السلبية. وحتى بعد ذلك، فإن الأربعة عشر عاماً تقريباً التي حكمت فيها الملكة حكماً مطلقاً —من عام 1610 إلى 1630م مع استبعاد فترة النفي إلى بلوا— قد تم حذفها من التاريخ الرسمي الفرنسي. لم يكن حكم ماريا دي ميديتشي قد اقتصر في الواقع على الأعوام السبعة التي كانت تحكم فيها بالوصاية (1610—1617م). كان ابتعادها عن الحكم منذ 1617 قد استمر مدة خمسة أعوام فحسب: إذ دخلت منذ عام 1623 لتصبح جزءاً من المجلس الاستشاري الخاص للملك، وعادت ثانية لتحكم رسمياً بالاشتراك مع ابنها لويس الثالث عشر إلى حدود العام 1630، حتى غدت مرة أخرى في وضع مرفوض، ولكن بصورة نهائية. لقد قضت ماريا دي ميديتشي إذن أربعة عشر عاماً إجمالاً في الحكم: فكانت في البداية تحكم بمفردها، ثم بالاشتراك مع الملك بعد ذلك.

4. أسلوبان للحكم بالوصاية

كتب مارك فومارولي[2] أنَ في ملخص عن تاريخ فرنسا مجهول المؤلف،

(1) J.F. Dubost, *Marie de Médicis. La reine dévoilée*, Payot, Paris 2009; P. Pacht-Bassani et al., *Marie de Médicis, un gouvernement par les arts*, Somogy, Paris 2004.

(2) M. Fumaroli, *La regina italiana ripudiata dai francesi*, in «La Repubblica», 27 marzo 2003; *Le siècle de Marie de Médicis. Actes du séminaire de la chaire Rhétorique et Société en Europe (XVIe-XVIIe siècles)*, a cura di F. Graziani e F. Solinas, Edizioni dell'Orso, Torino 2002.

يعود إلى العام 1774، تم إعداده لأخت لويس السادس عشر، لم يُذكر اسمُ ماريا دي ميديتشي ولا مرة واحدة، ولا تمَ التعرض لحكمها بالوصاية ولا للانقلاب على الحكم الذي قام به الملك البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، الذي أمَرَ بقتل الماريشال دانكر عام 1617م لأنه كان المفضل لدى أمه، ولا كل الأحداث التالية لذلك حتى مأساة ماريا في النفي. لقد محت «**ذاكرةُ الإدانة**» ذلك الذي أطلق عليه فومارولي، بنوع من التحريض، اسم «عصر ماريا»: طريقة لوصف عصرٍ ما سواء بالخير أو بالشر.

إن الإهانة الإيديولوجية الحقيقية ضد الملكة كانت تلك التي قام بها الهوغوني المسنّ ماكسيمليان دو بيثون، دوق سولي، وقد كان في ذلك الوقت مُشرفاً على المالية لدى هنري الرابع، وهو من كتب في مذكراته أن ماريا كانت «مُسرفةً ومشاغبةً»، متهماً إياها بأنها صاحبة العديد من فصول الغيرة الرهيبة في فترة علاقة الملك بماركيزة فارنوي، وأنها حاولت ضرب الملك أثناء إحدى المشاجرات. دوق سولي، الذي لم تكن لديه الرغبة في خدمة الملكة عندما تولت الحكم بالوصاية، كتب عنها أنها كانت ذات «هدف وحيد» هو أن «ترفع» قامة الزوجين كونتشيني إلى أعلى منصب في الدولة»، واصفاً إياها أثناء حكمها بأنها كانت «كسولاً» يتحكم فيها الزوجان كونتشيني. نجحت حملة التشويه التي قادها سولي، لأنه في زمن صياغة «**المذكّرات**»، كانت ماريا قد باتت منبوذة، والزوجان كونتشيني قد رحلا منذ فترة.

كان لتلك الكتابات المغرضة انتشارٌ واسع، وكانت الأساس الذي بُنِيت عليه صورة ماريا، على الرغم من الشهادات القوية لهنري الرابع وريشيليو نفسه، وقد كانت تكذب الأقوال المشوهة للسمعة، تلك التي تنقل عنها صورة امرأة تترك نفسها فريسة «لنوبات الغضب والعنف والانفعالات»، كما كانت أيضاً كسلة وعابثة، تقلق بشدة لتصفيفة شعرها، وتهتم فقط

«بكلابها الصغيرة، وقرودها وببغاواتها» فحسب[1]. ولكن صادف أن رُويت حياة ماريا دي ميديتشي، في قصة روائية في القرن التاسع عشر، تتبع فيها من جديد وبصورة جوهرية «تاريخ فرنسا» لجيل ميشيليه. ومن الجدير بالذكر أيضاً انتشارُ الثقافة الرفيعة لبلاط توسكانا، ولحياة الكنيسة الرومانية ما بعد المجمع التريدنتيني في باريس، في القرن السابع عشر مع ماريا وأتباعها من الإيطاليين، فقد تبنت الملكة بالوصاية أسلوب رعاية الفنانين الذي كان لعائلتها الأصلية. وفي عام 2009 لاحظ جون فرانسواز ديبو كيف جرى إنكار أي تأثير سياسي للملكة. وتم الاعتراف لها فقط بموهبتها كراعية للفن، بينما كانوا يأخذون على ماريا اختيارها المُوالي لإسبانيا وخياراتها السلمية بخاصة، وأنها كادت تهدد دعوة التوسع والحرب للمملكة الفرنسية التي عبر عنها على الملأ حفيدها لويس الرابع عشر.

تؤكد ديبو، استناداً إلى مصادر غير مشهورة، لم تنشر، أو تم استخدامها فقط بشكل جزئي فحسب، أو وفق آراء شخصية تحمل أيضاً تجاه «الثرية السمينة» نزعة عنصرية كارهة للأجانب، أن الفضل، في إطار سياسي ما زال يحكمه انفلات العائلات الملكية الكبيرة في فرنسا، إنما يرجع إلى ماريا في إصرارها على الاعتراف بالشرعية الملكية، رغم أنها فشلت بلا شك في دورها كرئيس لحزب كاثوليكي متشدد ومُوالٍ لإسبانيا. عندما اقتُرح عليها أن تظل أمينة لمثال هنري الرابع، الذي كان داعية للسلام إبان الحروب الدينية، اعتنقت ماريا، على العكس، القضية الخاسرة بالانضمام التام إلى سياسة عائلة هابسبورغ ونزعتها الدينية المتشددة، وداخل فرنسا ظلت ضحيةً لمعارضة النزعة الملكية المطلقة، ممهدة الطريق بذلك أمام لويس الرابع عشر[2].

(1) M. L. Mariotti Masi, *Maria de' Medici*, Mursia, Milano 1994.

(2) Dubost, *Marie de Médicis. La reine dévoilée* cit.

كتبت بنيديتا كرافيري أن الحُكمين بالوصاية اللذين تتابعا في فرنسا في النصف الأول من القرن السابع عشر يُمثّلان أسلوبين متقابلين لِفهْم الدّورِ المزدوج للملكات والأمهات [...]. كانت ماريا تحبُّ السلطة أكثر من أي شيء، وترغب في الاحتفاظ بها بأي ثمن لأطول مدة ممكنة؛ بينما كانت آنا تحترم ابنها، وفعلت كل ما تستطيع لتنقل إليه السلطة الملكية دون أن تُمس[1].

انعكس هذا الاختلاف بلا شك في طباع ابنيهما. بالنسبة إلى لويس الثالث عشر، وفي اليوم التالي لاغتيال أبيه هنري الرابع، وقع في شرك «عالم أمه البارد، فاقد الثقة»[2]. رفضت الملكة العنيدة والجامدة، أي محاولة للحلول الوسطى عام 1631، عندما حاول ابنها الوصول إلى اتفاقية لإنهاء صراعها مع ريشيليو، «وأثبتت بذلك عدم مسؤوليتها السياسية» ودفعت بنفسها إلى أن تحرّض ابنها الثاني على الملك، وحكمت بذلك على نفسها بالنفي وحياة الترحّل[3]. وعلى الرغم من اعترافها بأن الرقابة قد استمرت تتحكم في حياة الملكة، انتهى الأمر ببنيديتا كرافيري إلى أن تدخل في التقليد نفسه، وذلك من خلال مناقشة هذا الاختيار بتقييم «مشاعر» الأمومة الخاصة بماريا والتي لا تصمد أمام فحص التاريخ الحديث للنساء وللجنس:

كيف لا يمكن الاعتراف بأن استحقاقها كملكة بالوصاية قد تعرض للانتهاك بشكل حاسم منذ أن رفضت تسليم مقاليد الحكم للويس الثالث عشر، في اللحظة الواجبة. إن أنانيتها، بل أنانيتها المفرطة جعلتها غير قادرة على العمل لخير ابنها، وبالنتيجة فإن عدم تفاهمهما المتبادل كان مصدراً لسلسلة من الجرائم وأعمال العنف والفضائح للبلد بأكمله[4].

(1) Craveri, *Amanti e regine* cit., p. 115.

(2) Ivi, p. 117.

(3) Ivi, p. 125.

(4) Ivi, p. 126.

ولكن المؤلفة تعترف بمزايا ماريا في رعاية الفنون، وأيضاً بالقيمة التي لا تُقدر للعمل الفني الخاص بروبنز وقد صنعه خصيصاً للتعبير عن طموحاتها، وذلك في (الصفحات 126–128).

أكّد أندريه كورفيزيه أن النساء الحاكمات بالوصاية، وعلى الرغم من ضعفهن في معارضة منطق العائلة والانتماء، قد شكلن شبكات من العلاقات كانت الأنسب لحماية مصالح السلالة الملكية، بينما استطاعت صلات الدم هزيمة معارضي سلالتهن الحاكمة والوصول إلى النزعة المطلقة للحكم الملكي. كان الحكم بالوصاية لأم الملك، في فرنسا، قد فُرض بفضل نموذج الإدارة الرشيدة للحكم من قِبَل بيانكا القشتالية بينما أثبتَ الحكم المشين للويس دانجو كيف يحسُن أن يتمّ استبعاد أقرب أمير رحِماً في ترتيب الخلافة بعد الابن البكر[1]. إن الفروق الكبيرة التي يمكن مقابلتها بين مختلف الحاكمات بالوصاية، يمكن أن تشرح واقع أن للعائلات الملكية الأوروبية أصولاً متباينة، وأساليب مختلفة تبعاً للأبعاد التي بها ترتدّ أصولها إلى الثقافة السياسية الجرمانية أو الرومانية أو اليهودية-المسيحية.

إحدى أهم النقاط القليلة المشتركة بين الحاكمات بالوصاية هي أن فترات حكمهن، وفي أي مكان، فترات ضعف وفوضى، لأن سلطة من يحكم تتضاءل. ولكن نتائج ذلك الوضع ليست واحدة: يكون الحكم بالوصاية، أحياناً، فترةً من الاسترخاء أو التحول أو التجريب السياسي. وفي عام 1643، عندما توفِّي لويس الثالث عشر، ترك المملكة لابنه لويس الرابع عشر، الذي وُلد حين كانت أمه آنا النمساوية في الأربعين من العمر تقريباً، قبل ذلك بخمس سنوات فقط، وترك الحكم بالوصاية لزوجته الإسبانية ولوزيره، الكردينال الإيطالي جوليو ماتزارينو. في يناير عام 1648، كان الصدام بين

(1) A. Corvisier, *Les régences in Europe. Essai sur les délégations de pouvoirs souverains*, Presses Universitaires de France, Paris 2002.

بالنسبة إلى الحكم بالوصاية لبيانكا القشتالية فقد تمت الإشارة إليه في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وفيما يتعلق بلويس دانجو. فقد كان الحاكم بالوصاية لحفيده شارل السادس من عام 1380 إلى عام 1381م. ولكنه بعد ذلك ترك فرنسا ليحكم نابولي وأصبح ملكاً بعد موت الملكة جوفانا الأولى التي كانت قد عينته وريثاً لها.

السلطة الملكية وسلطة البرلمان السبب الأصلي لاشتعال حرب أهلية استمرت منذ عام 1649 وإلى غاية 1653. من خلال قيامهم بأدوار مختلفة، كونت عناصر القضاة والنبلاء والشعب والعاصمة والأقاليم التي اتفقت على معارضة حكومة الملكة بالوصاية. ومن خلال إدانة الوزير المكروه ماتزارينو، كان مضاربو المالية، والقضاة الذين يشغلون مناصب في محاكم العدالة العليا -المجالس الشعبية- والأمراء يدافعون عن امتيازاتهم التي كانت تضمنها لهم التقاليد القديمة للملكية الفرنسية.

لقد كانوا يطالبون بالتوازن التقليدي بين سلطة الملك وممثّلي الشعب، الذين يُعدُّون أساس العدالة الملَكِية إذ أنهم يحدون من طغيان الملك، بأن ينشروا بين الجمهور العريض شعارات وإعلانات يعرضون فيها الأسباب التي أدّت لمعارضتهم. كان كتّاب المنشورات يستفيدون من تقليص الرقابة ليطالبوا بحق انتقاد سادتهم دون أن يطالهم عقاب، وهو ما حظي به العبيد الرومان أثناء فترات أعياد الساتورن [الحصاد]. فقد كانوا يُغرِقون باريس بمئات المنشورات التي اشتهرت على الفور باسم مازاريناد (*Mazarinades*).

وكان بعضٌ منهم يتّبع النماذج الساخرة والكاريكاتورية لمعارضة حكومة النساء، وفي حالة آنا النمساوية كانوا يصفونها بكونها كانت ملكةً بالوصاية قادرة وجديرة بالحكم، بشكل استثنائي، مثل رجل بل وأفضل من الرجال. كانوا يرسمونها على هيئة إحدى ملكات الأمازونيا، وكبطلة من بطلات الكتاب المقدس، وكأنها الصورة الحية لكريستين دو بيزان، مقارنين إياها بشخصيات أخرى كانت استثناءً للضعف النسائي المعتاد. وكانت نشرات أخرى، على الرغم من ذلك، تصف الملكة الأرملة وكأنها امرأة

عاجية، محدودة في إمكانياتها وغير متحكمة في شهواتها: لم يكن فارامون، المؤسس الأسطوري للمَلَكية الفرنسية الذي عاش في الفترة المتراوحة بين 370 و427م[1]، قد أعلن القانون السالي ليبعِدَ جنس النساء عن السلطة بلا مبرر. حين تنكّر برلمان باريس لتوصيات لويس الثالث عشر قبل مماته، وقد عبر فيها عن رغبته في تقييد سلطات زوجته، تفجرت رغماً عنه سلسلة من ردود الأفعال غير المتوقعة.

وقعت الملكة الساذجة وعديمة الكفاءة فريسةً، إذا لم يكن حرفياً فعلى الأقل مجازاً، لماتزارينو الطموح الذي كانت تطيعه في كل شيء، بلا أي تردد، حتى إن بعض المعاصرين اعتقد أنه كانت تسكنها روح شريرة.

كان الأدب الإباحي المنتشر لدى المعاصرين لماري أنطوانيت، وهو ما تمت دراسته كثيراً في الأعوام الأخيرة، قد أعاد استخدام الاتهامات نفسها -بعد تكييفها- كعدم القدرة والسذاجة والاعتماد الجنسي، وهي التي كانت متداوَلةً لنزع الثقة من آنا النمساوية والكردينال ماتزارينو؛ يتعلق الأمر بإحدى تلك الأطروحات العديدة من وجهة النظر السياسية لإشكالية كراهية المرأة التي بلغت أقصى درجات الحدة أثناء أزمة الملكية في فرنسا. كانت ماري أنطوانيت مثل كاترينا دي ميديتشي، وماريا دي ميديتشي، وآنا النمساوية، أجنبيةً على خلاف الأخريات، اللاتي كنّ حاكمات بالوصاية، لذلك كان مفروضاً عليهن أن يشاركن في الحكم وفي السياسة الخارجية، على الرغم من قدراتهن المتفاوتة، لم يكن على ماري أنطوانيت أن تثبت أياً من مواهب سيدات الأمازونيا، وكنتيجة لذلك، لم يكن لديها

---

(1) كتب عنه حديثاً ماكتريك:

R. McKitterick, *History and Memory in the Carolingian World*, Cambridge University Press, Cambridge 2004.

أي مبرر للتدخل في السياسة، ولكن مع ذلك تدخّلت، وكانت أعمالها في الغالب غير مناسبة لوضعها كأميرة ولانتمائها إلى العائلة الملكية، فكان تأثيرها السياسي في الدولة وفي البلاط، رغماً عنها[1].

(1) J. Merrick, *The Cardinal and the Queen: Sexual and Political Disorders in the Mazarinades*, in «French Historical Studies», 18, 1994, 3, pp. 667-699.

الفصل السابع

عصر الإمبراطورات

1- إليزابيث وكاثرين

كانت كل دول وسط أوروبا وغربها متورطة طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر، في حروب موضوعها الأساسي هو احتواء شرعية الخلافة على العرش، في ظروف غابت فيها إمكانات الوراثة المباشرة للذكور. كانت أكبر الأزمات تلك التي هزّت عائلة هابسبورغ في النمسا عندما اعترضت القوى العظمى الأوروبية على الاعتراف بحقوق ماريا تيريزا الوراثية؛ واشتعلت الحرب التي أوقفت قوات الأرشيدوقة لمدة ثمانية أعوام. في الفترة نفسها توالت أربع إمبراطورات على حكم روسيا: كاثرين، الزوجة الثانية لقيصر روسيا بطرس الأول الأكبر، التي كانت تُشارك زوجها في الحكم بصفتها زوجة القيصر في عام 1724. في العام التالي مات القيصر بعد أن دعا قوات الحرس الإمبراطوري بإعلانها إمبراطورة. كانت لكاثرين من زوجها القيصر بطرس أحد عشر ابناً وبنتاً، لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ابنتين. إحداهما كانت إليزابيث، المولودة عام 1709م، عندما لم يكن أبواها قد تزوجا بعد –كانت الأم عشيقة للإمبراطور بطرس الأول لمدة عشر سنوات قبل

الزواج، الذي تم الاحتفال به عام 1712– ولذلك سيتم توظيف عدم شرعيتها من قبل معارضيها في محاولة لاستبعادها من خلافة العرش.

كان بطرس الثاني، حفيد بطرس الأكبر، لمدة وجيزة (1727– 1730م) هو الوريث الوحيد من الخط الذكوري لعائلة رومانوف بعد وفاة والده أليكسي، الذي وُلد من الزواج الأول للقيصر. وفي عام 1718 حُكم على أليكسي بالإعدام، حيث دفع حياته ثمناً للتآمر بسبب الكراهية تجاه أبيه وقد نقلتها إليه أمه أوديسيا، ولم يُشف من ذلك، لأن القيصر تركها ليتزوج بكاثرين. كان أليكسي هو الابن الأكبر للقيصر؛ وقد وُلد ابنه بطرس في سان بطرسبرغ في 23 أكتوبر 1715. عانى الصغير اليتيم إهمالاً من جده في طفولته، وتُرك ليعتني به الخدم، حتى وإن كان بطرس الأكبر يُقدر كثيراً زوجة ابنه كارلوتا كريستينا دي برونسويك– ولفنبيوتل، أخت زوجة الإمبراطور كارلوس السادس هابسبورغ، التي ماتت أثناء ولادتها لبطرس[1].

أثناء حكم كاثرين الأولى، تم أيضاً تجاهل الوريث الوحيد للقيصر بطرس الأول بشكل مُنظم، ولكن قبل موت الملكة بقليل، أصبح من الواضح أن الطفل لا يمكن أن يظل سجيناً كما هو لفترة أطول. كانت أغلبية رجال الدولة وثلاثة أرباع النبلاء في صفّ الوريث الصغير لعائلة رومانوف، بينما رفع الإمبراطور كارلوس السادس، دعاوى مستمرة للمطالبة بحقه أمام المحاكم الروسية، بسبب الطريقة التي تم بها تخطّي حقوقه. كان لتلك الضغوط تأثيرها في الفترة الأخيرة من حياة الملكة: فبطرس وهو البالغ من العمر اثني عشر عاماً، وغير المتعلم وغير المؤهّل ليتولّى دوره، وبناءً على رغبة كاثرين الأولى، تم إعلانه قيصراً في 18 مايو عام 1727، وتلقّب بطرس الثاني. تمت

(1) W. Marshall, *Pietro il Grande e la Russia del suo tempo*, Il Mulino, Bologna 1999 (ed. orig. 1996), pp. 122-127.

خطبته بعد ذلك بعامين لابنة معلّمه، الأميرة كاثرين فاسيليفنا دولغوروكوفا، وتم تحديد موعد الزواج ليكون في 30 يناير 1730، ولكن بطرس مات في اليوم السابق للزواج بمرض الحصبة. وقبلها وهو على فراش المرض، فعلت البطانة كل ما في وسعها عسى أن تحبل الأميرة ويكون هناك وريثٌ لروسيا، ولكن أياً من تلك المحاولات لم تنجح: وبذلك انتهت السلالة الملكية المباشرة لعائلة رومانوف[1]. عند الموت المبكر لبطرس الثاني، في 1730، أصبحت آن ملكة، ابنة إيفان الخامس، الأخ غير الشرعي لبطرس الأكبر الذي كان يعاني اضطرابات عقلية وصحية. حكم إيفان الخامس، لفترة، تحت رعاية بطرس وذلك قبل أن يصبح بطرس قيصراً له كل الصلاحيات عام 1696م. وعلى الرغم من صحته المتردية تزوج إيفان الخامس وأنجب أبناء. اختار المجلس الخاص آن إيفانوفنا إمبراطورة: إذ اعتقد أعضاء المجلس، وجميعهم ينتمون إلى الأرستقراطية الإقطاعية، أنهم إذا نصّبوا على العرش امرأة سيسهل التأثير فيها، وأنها ستوافق على توقيع قرارات تحدّ من السلطة الخاصة بالإمبراطور. أفسدت عليهم آن تلك الخطط، واستفادت من التعاطف الذي كانت تحظى به لدى الحرس الإمبراطوري والنبلاء الصغار، وفرضت بالفعل حكماً مستبداً حتى موتها عام 1740[2]. أثناء حكم ابنة العم آن إيفانوفنا، كان وجود إليزابيث -التي تم استبعادها بناءً على شكوك في شرعيتها- يتخذ وضعاً ثانوياً عند موت الملكة والذي تبعه الحكم بالوصاية لأنّا ليوبولدوفنا، ابنة كاثرين إيفانوفنا، أخت الملكة آن، وأم إيفان الصغير الذي أنجبته من

---

(1) عن سلالة رومانوف وحياة القيصر بطرس الثاني القصيرة، انظر:

E. M. Almedingen, *Die Romanows. Die Geschichte einer Dynastie. Russland 1613- 1917*, Verlag Ullstein, Frankfurt a.M. 1992 e *Die russischen Zaren 1547-1917*, a cura di H.-J. Torke, Beck, München 1995.

(2) G. Fussenegger, *Herrscherinnen. Frauen, die Geschichte machten*, Verlag Albatros, Düsseldorf 2003.

الدوق برونسويك–ولفنبيوتل، بعد أن تزوجت به عام 1739. عام 1740، تبنت المولود الجديد خالته، الملكة آن، وذلك في لحظة موتها. تسبب الحكم بالوصاية لأنّا ليوبولدوفنا لمصلحة القيصر الصغير إيفان السادس في استنفار المعارضة، بسبب الضغوط الضريبية المجحفة التي فرضتها، ولأن سياستها الاقتصادية لم تكن مناسبة لمواجهة المشكلات الجسيمة في البلاد.

في ذلك الوضع طالبت إليزابيث بحقوقها في الخلافة كابنة لبطرس الأكبر، ومع حصولها على دعم كبير من الشعب الروسي نجحت في الانقلاب على الحكم الذي أطاح بإيفان السادس وأمه. دفع الرعب بإليزابيث، من أن يقبضَ عليها معارضوها، وأن يتمّ الحكم عليها إلى أن تعيش في أحد الأديرة مدى الحياة (وهو ما حدث لزوجة بطرس الأكبر الأولى، أوديسيا)، إلى أن تتصرّفَ بانعدام ضمير، إذ ألقت القبض على كل الوزراء المخلصين لذكرى الملكة آن: وبضربة يد شجاعة ومحظوظة أيضاً، فاجأت أنّا ليوبولدفنا ومعها ابنها في فراشيهما وأرسلت بهما إلى السجن ثم إلى المنفى. ثم استدعت بعد ذلك على الفور كل النبلاء العلمانيين والدينيين ليمثلوا إلى حضرتها.

لم تتزوج إليزابيث، مثل إليزابيث الإنجليزية، ولكن العديد من العشاق نُسبوا إليها إضافة إلى زواج سري، وقد أُتلِفت الوثائق الخاصة به بناء على أوامر من كاثرين الثانية. ولكن إليزابيث لم يكن لها أي وريث –أو على الأقل أي وريث معترف به– (كانت سيرة أبنائها المجهولين مثاراً للحديث في روسيا لفترة طويلة)[1]. في 5 يناير 1762 ماتت الملكة مخلفة وراءها فراغاً كبيراً: كان أبوها قد نقَلَ إليها مواهب الحاكم المستنير، وكانت إليزابيث قد أطلقت سياسات الإصلاحات الاقتصادية التي كان قد بدأها قبلها بطرس

(1) ما زالت الأعمال الدقيقة حول إليزابيث نادرة. لم يترجم إلى الإيطالية سوى عمل واحد، وهو ليس جيداً بالقدر الكافي:
D. Olivier, *Elisabetta di Russia*, *Dall'Olio*, Milano 1964 (ed. orig. 1963).

الأكبر أثناء حرب الأعوام السبعة (1756–1763م)، وهو صراع غَلبت عليه الدوافع التوسعية للقوى العظمى سواء للتمكن من الهيمنة في أوروبا، أو من أجل التحكم في التجارة من خلال التحكم في الطرق البحرية. وفي الفريقين المتنازعين كانت النمسا وروسيا وبولندا والسويد تحارب ضد تحالف بريطانيا وبروسيا، هذه القوة الأوروبية الجديدة التي كانت تتمتع بآلة حرب مدهشة في خدمة طموح فريدريك الثاني، الملك الصاعد في أوروبا الوسطى. ساهمت إليزابيث في أن تؤكد قدرة بلدها بأن واجهت بروسيا بجدارة، سواء من ناحية العمليات العسكرية أو في حالة المفاوضات الدبلوماسية، حتى يناير 1762 عندما توفيت الملكة. كانت شعبيتها عظيمة، سواء في قمّة المجتمع أو لدى الطبقات الشعبية. كان يمكن لعدم وجود وريث مباشر أن يتسبب في محو فوائد الإصلاحات التي أنجزتها أثناء حكمها وأن تقع البلاد في أزمة شديدة، ولكن هذا المأزق تم تخطّيه سريعاً. وفي 26 يونيو من العام نفسه، نالت امرأة تقارب الثلاثين من عمرها استحسان الضباط والعساكر والعائلات الكبيرة في أكرانيا، أقسم جميعهم لها بالولاء بمباركة قس أرثوذكسي.

كانت صوفيا فيدريكا أوغوستا قد وُلدت في 21 أبريل من العام 1729م في ستيتينو بِبوميرانيا، من كريستيانو أوغوستو دي أنهالت–زربست، الجنرال البروسي، ومن جوفانا دي هولستين–غوتورب، الأميرة الألمانية. وقد أشرفت على تعليمها مُدرّسة فرنسية هوغونية، فاستفادت صوفيا من الناحية الثقافية ولكنها تأقلمت مع نماذج السلوك التي كانت تُعدّ مناسبة لطفلة، واستمتعت دائماً بالمواهب العقلانية للعادات التي يتمّ تقديرها لجنسها. كانت صوفيا جذابة، ممشوقة القوام، حتى وإن لم تكن جميلة بالمعايير الكلاسيكية: كانت صراحة نظرتها مدهشة، وابتسامتها عذبة. عام 1744، اختارت الملكة إليزابيث صوفيا، التي كانت تبلغ من العمر وقتها خمسة عشر عاماً، زوجة

لحفيدها كارل بيتر، الذي كانت ترغب في تعيينه وريثاً لها. كان كارل هو ابن كارل فيدريك دي هولستين–غوتورب، حفيد كارل الثاني عشر ملك السويد، وآن بتروفنا رومانوفا (1708– 1728م)، أخت إليزابيث والابنة الثانية التي ظلت على قيد الحياة؛ من بطرس الأكبر وكارثرين الأولى من روسيا.

بدأت مفاوضات الزواج في الأشهر الأولى من عام 1744، عندما كان عمرُ صوفيا أربعة عشر عاماً، وعمرُ كارل بيتر ستة عشر عاماً. كانت صوفيا تصحب أمها جوفانا التي عهد إليها الكونت كريستيانو أوغوستو دي أنهالت–زيربست، بمذكرات سلّمها إلى ابنته، تحوي من بين النصائح والوصايا التي تركها لها وصيته بأن تبقى مخلصة للنزعة اللوثرية. وعلى كل حال، غيرت صوفيا على الفور سواء اسمها الذي أصبح كاثرين، أو إيمانها، عندما تحولت في احتفال مهيب إلى الإيمان الروسي الأرثوذكسي في 18 يونيو 1744م. على نحو مماثل، ولأسباب ذات طابع سياسي، فقد أُجبر مُعلَم كارل بيتر أيضاً، على الرغم من مقاومته، على التخلّي عن الإيمان اللوثري. وفي سن المراهقة، وفي السنوات الأولى لخطبتهما، كانت العلاقة بين كاثرين وكارل بيتر علاقة صداقة وتضامن، كما أنهما تلقّيا التعليم نفسه. وفي أعقاب مرض خطير أثّر بشكل حاد في صحة كارل بيتر –ما أدى إلى أن تنفر منه خطيبته– تم الاحتفال بالزواج في 21 أغسطس 1745م.

ظهرت على الفور تعاسة الزوجين: كان كارل بيتر رجلاً ذا طابع عنيف، وكان يبالغ في تناول الكحوليات، ويبدي عنفاً تجاه زوجته، متفادياً العلاقات الجسدية معها وكان يسيء معاملتها جهاراً، بعد ثمانية أعوام من زواج لم يتم، وحملٍ –كان ثمرة خيانة من كاثرين– أجهضته هي عن عمدٍ. كانت المربّية ماريجا شوغلوكوفا، امرأة نبيلة وكان واجبها الإشراف على تصرفات الدوقة الكبيرة الشابة، وكانت على دراية بالدوافع المختلفة التي بسببها لم يؤت

الزواج ثماره بعد: ما إن تأكدت شوغلوكوفا من أن كاثرين لم تكن عاقراً، حتى بحثت عن امرأة خبيرة لتعلّم الشاب كارل بيتر المتع الجنسية، ولكنها من جهة أخرى، حثّت الدوقة الكبيرة على أن تستمر في علاقتها خارج إطار الزواج. ومهما كان الأمر، وسواء أكان من عشيقها أم لا، فإن المرغوب كان أن يوجَد وريث شرعي، وأن يعترِف بشرعيته كارل بيتر نفسه. وبعد إجهاض لحملٍ آخر –إجهاض غير مُتعمد هذه المرة– في 20 سبتمبر 1754م، أنجبت الدوقة الكبيرة بافيل بيتروفيتش.

النسب الأبوي الرسمي الذي مُنح إلى الطفل لم يُبعد الشكوك، تلك التي لم توفق كاثرين نفسها في تفنيدها، فهي لم تذكر في مذكراتها ما إذا كان الزواج قد تم بالفعل بعد طول انتظار. من جهة أخرى فإن السيرة الذاتية للقيصرة المستقبلية توضّح كيف أن الدوق الكبير كان عقيماً، إذ لم تنسب له أي من عشيقاته الكثيرات أي طفل[1]. وبمجرد أن منحت كاثرين وريثاً رسمياً لسلالة رومانوف، ارتقت إلى مرتبة تالية للقيصرة إليزابيث، التي أبعدتها عن الطفل ليتمّ تعليمه كما ينبغي لإعداده للدور الذي سيتولاه. لا بد أن الأب الفعلي المزعوم للطفل قد تم استبعاده، وشرعت كاثرين، بعد ذلك بقليل، في علاقة جديدة مع شاب دبلوماسي، الكونت ستانيسلاس أوغستوس بونياتوفسكي الذي وصف كاثرين، وكانت وقتها تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، بأنها امرأة ذات شعر فاحم وعينين زرقاوين واسعتين، وفم جذاب، وقوام ممشوق، ولكن كانت أيضاً مثقفة على نحو متميز؛ وتُعدّ هذه هي إحدى الشهادات المباشرة القليلة عن جاذبيتها[2].

لم تُثر تلك العلاقة العاطفية أي استياء في البلاط ولم تقلل من التأييد الذي

(1) I. de Madariaga, *Caterina di Russia*, Einaudi, Torino 1988, p. 16 (ed. orig. 1981).

(2) Ivi, p. 17.

كانت كاثرين تحظى به، لأنها لم تكن تعارض الاتجاه الموالي لبريطانيا السائد في تلك الفترة: كان بونياتوفسكي، في واقع الأمر، يمثل الحكومة الإنجليزية، وفي موقف سياسي أوروبي، يوشك على الانفجار، كان ميل للدوقة الكبيرة الشخصي والسياسي يثير توقعات خطيرة حول اعتلائها العرش –فقد كانت صحة الملكة إليزابيث عام 1756 تثير قلق السفارات الأوروبية– أو على الأقل حكم بالوصاية مشترك بينها وبين كارل بيتر الموالي لبروسيا والوريث الشرعي، لمصلحة ابنهما بافيل. بقي وضع كاثرين مهدداً لعدة أعوام بسبب المؤامرات التي كانت تُحاك لاستبعاد كارل بيتر من العرش، وتم استدعاؤها للاستجواب عن الدور الذي لعبته في حشد مناهض للدوق الكبير. ولكن الملكة العجوز إليزابيث لم تكن تقدّر كثيراً الوريث المُعين، فهو لا يزال يعيش حياة منحلة، بل إنّ الأهم من ذلك، أنه كان يتخذ مواقف سياسية غير مسؤولة. في 25 ديسمبر 1761، ماتت الملكة وبدأ بطرس الثالث (كارل بيتر) مُلكه القصير. كان معروفاً بتصرفاته الغريبة، وبتقلباته، وهزله الثقيل الذي يتسلى به في إحراج البلاط، كان القيصر، على كل حال، يقدم دلائل على تسامحه بأن يمنح العفو، على الفور، وخاصة عن الجرائم السياسية. وفي أول تصريحاته وَضَع أسس السياسات المستقبلية التي ستتبعها كاثرين الثانية. والأهم، أن بطرس الثالث نشر إعلان 18 فبراير 1762، الذي به ألغى خدمة النبلاء الإجبارية للدولة، شريطة أن يتقدّموا كمتطوعين في زمن الحرب[1]، وكان القرار الأهم أيضاً ذلك الخاص بتحويل أراضي الكنيسة إلى أراضٍ علمانية في 21 مارس 1762م.

أما في السياسة الخارجية فقد تحقق ما كان يخشاه الجنرالات في الأعوام السابقة. بين أبريل ومايو 1762، أبرمَ بطرس الثالث اتفاقية سلام مع بروسيا،

(1) Ivi, pp. 28 e 30.

وهو الذي أعدَّ روسيا للدخول في الحرب مع الدنمارك. على الرغم من نصيحة فريدريك الثاني ملك بروسيا، الذي كان يوصيه بأن ينتظر احتفال التولية المهيب كقيصر قبل أن يضع نفسه على رأس الجيش الروسي –خوفاً من أن يتم خلعه أثناء غيابه بسهولة– ومع ذلك استمرّ بطرس الثالث في طريقه. كما استطاع أيضاً أن يثير عداوة ضباط الجيش: فقد أمر أن يتمّ إعادة تنظيم الجيش تبعاً لنموذج جيش بروسيا، حتى فيما يتعلق بالزي، وهو ما جرح الشعور بالانتماء لدى الجنود. وتحسباً لما سيخلفه غيابه أثناء الحملة في الدنمارك، عيّن بطرس الثالث، في 18 مايو 1762م، مجلساً غير رسمي، تتكون أغلبيته من الألمان، من بين هؤلاء خاله جورجو لودوفيكوو دي هولستين– غوتروب، وقلل صلاحيات مجلس الشيوخ، وزاد من سلطات الشرطة. على كل حال، كان أكبر خطأ ارتكبه أن قام بتهديد كاثرين، الوحيدة القادرة على معارضته. كان يمكن ترشيح الإمبراطور المخلوع إيفان السادس بدلاً منها، وهو السجين منذ ستة عشر عاماً، الذي كان قد وُلِد للتوّ عندما تولت إليزابيث الحكم، وكان غير قادر مطلقاً على الحكم، حيث لم يتلقّ أي تعليم وربما بسبب مرض وراثي.

كان المُرشح الآخر، بطبيعة الحال، بيفل بيتروفيتش، وكان يبلغ من العمر سبعة أعوام، ولكن بطرس الثالث لم يرغب في تعيينه وريثاً له، كما لم يعبّر عن ذلك أيضاً بوضوح فيما يخصّ كاثرين، محتفظاً لنفسه بشكل عام بالحق في تعيين من يريد، تبعاً لقانون الخلافة لبطرس الأكبر[1]. أيما كان، وبينما فعل القيصر كل شيء ليضمَّ إليه كبار رجال الدولة، كانت كاثرين تتصرف في كل مناسبة عامة بحكمة وبعظمة، ولكنها لم يكن في وسعها أن تُرشّح نفسها مباشرة للتربّع على العرش فقد كانت حبلى من جديد. وفي العاشر من أبريل

(1) Ivi, p. 34.

1762م أنجبت في السرّ طفلاً من حبيبها الجديد، غريغوري أورلوف، ولم تكن تتوقع أن يعترف القيصر بالطفل هذه المرة أيضاً، وقد كانت منفصلة عنه في واقع الأمر، وكان يحاول أن يجد الفرصة المناسبة ليطلّقها ويتزوج بمحظيته المفضلة. وَصَل غضب القيصر على زوجته إلى أن أمر بالقبض عليها، وعلى الرغم من أنه لم ينفذ ذلك، فإن التهديد كان في حد ذاته كافياً لأن يكوّن جبهة عريضة مؤيدة لها. كان أولُ من بادر بالتآمر لتولي كاثرين الحكم أحد الأرستقراطيين، نيكيتا إيفانوفيتش بانين، معلّم الدوق الكبير بافيل، وقد أقام مدة طويلة في النمسا، وكان يتّخذ نموذج الملكية الذي يتميز بكون السلطات فيه محدودة بمجلس من الأرستقراطيين، كهيئة تمثل طبقات المجتمع الأخرى. وكان من بين أكبر المؤيدين لكاثرين بالطبع حبيبها أورلوف، وإخوته الأربعة.

وفي الثامن والعشرين من يونيو، قام الإخوة أورلوف، على رأس ثلاث فرق عسكرية، بإعلان كاثرين ملكةً على كلّ بلاد روسيا، ومن بين العسكريين الذين اعترفوا بها، جاء كثيرون وقد ارتدوا الزيَ العسكري القديم، الذي أُجبروا على استبداله بزيّ بروسيا. فوجئ مؤيدو حكمها بالوصاية لمصلحة الوريث بافيل بيتروفيتش بالمبادرة المباغتة التي قام بها الإخوة أورلوف، الذين قدموا كاثرين الثانية على أنها الملكة الواحدة والوحيدة. كان الاحتفال بالإخلاص للإمبراطورة الجديدة قد تمت مباركته في الكاتدرائية، وجمَعَ رئيس أساقفة نوفغورود القسَمَ بالولاء من جميع القوات. كان العمل الذي توّج مشهد الانقلاب على الحكم هو القبض على زوجها، وقامت كاثرين بذلك وقد امتطت ظهر حصان وهي ترتدي زياً للحراس مع واحدة من وصيفاتها، ارتدت الزي نفسه مثلها، ليتمّ الحصول من بطرس الثالث، بعد عدة مفاوضات، على التنازل عن العرش. وحتى إن لم يتم التأكد من أن عملية اغتياله كانت بناءً على أوامر الملكة، فإن القيصر، المستبعَد من الحكم، مات

في ظروف غامضة، أثناء إحدى الغارات في الخامس من يوليو 1762م، بينما كانت تحرسه كتيبة من العسكر. في كل الأحوال، كان موته في مصلحة كاثرين الثانية. تم إخفاء جريمة القتل، وحسب إعلان السابع من يوليو، فإن موت بطرس الثالث المفاجئ ردّ إلى إصابته بالبواسير وتقلصات في القولون، ويرجع بالتأكيد إلى «مشيئة الله»، الذي توفّاه لتجلس كاثرين على العرش[1].

إن خبرةَ كاثرين لتطرح، أمام أعين المراقبين الغربيين، الكثيرَ من التساؤلات. علقت بريندا ميهان–ووترز كيف أن التجسيد السلبي للإمكانيات النسائية للقيصرة قد تمّ استقباله إيجابياً بصورة عامة، وكيف تضاءلت، بشكل جوهري، تلك التخيلات حول جرائم القتل المزعومة، أو بشأن انحرافاتها الجنسية: إن التناقض بين الأكاذيب التي كانت كاثرين الثانية موضوعها والصورة التي انتقلت عمن عاشت في الفترة نفسها، الإمبراطورة ماريا تيريزا النمساوية، لا يمكن أن يكون أقوى مما هي عليه. وهو التناقض ذلك الذي تساءلت عنه ميهان–ووترز إذ لم تمارس أي من الإمبراطورتين فعلياً سلطة أكبر، ولكن بالأحرى، من منهما هددت الثقافة الذكورية السائدة تهديداً أكبر. الجدير بالذكر أن الصورة الأكثر شعبية لماريا تيريزا كانت صورة الزوجة والأم، التي تميزت بأمومتها المدهشة، وبخاصة لأن الإمبراطورة النمساوية حكمت دائماً بالاشتراك مع زوجها، ثم بعد موته بالاشتراك مع ابنها الإمبراطور جوزيبي الثاني، وقد أعلنت أنها ضعيفة لكونها امرأة وغير قادرة على النهوض بمهام واجباتها المضنية بمفردها[2].

كيف ولماذا انقطعت السلسلة الطويلة للقياصرة من الذكور؟ لم يتضح السبب في ذلك، ولكن يبقى واقعاً أنه عندما حدث هذا، لم تُثَر المناقشات

(1) Ivi, p. 42.

(2) B. Meehan-Waters, *Catherine the Great and the Problem of Female Rule*, in «Russian Review», 34, 1975, 3, pp. 293-307, citazione a p. 300.

التي ظهرت في الغرب في القرون الماضية: لم يكن في روسيا ثمة هجوم وحشي على حكم النساء مثلما حدث في إنجلترا في منتصف القرن السادس عشر. كانت كاثرين الأولى أول قيصرة في روسيا، بعد وفاة بطرس الأكبر، وكان ذلك بناء على رغبة زوجها، دون وجود أية شرعية متعلقة بالسلالة الملكية. كان يكفي لتأييدها رغبة الملك وقد عبر عنها بشكل رسمي قبل وفاته بعامين، وفتح لها من خلالها الباب للاعتراف الرسمي، ومدح شجاعة زوجته وجسارتها في ساحات القتال ومدحَ كذلك طبعها القوي والبعيد تمام البعد عن أي ضعف نسائي. وعلى خلاف ما حدث لماريا تيريزا في أوروبا الغربية، فإن ذلك التصرف السلطوي للقيصر المسن، لم يلق الرفض، وقبلت البلاد أن تكون الملكة الجديدة امرأة من طبقة أدنى، بدل أن تكون من سلالة عائلة رومانوف.

وأثناء الأزمة السياسية لعام 1730، لم يعترض أي شخص، عملياً، على أن يتمَ تجاوز الأزمة السياسية باعتلاء امرأة العرش[1]. كانت الطقوس الدينية، وبخاصة طقس التتويج تُمجّد صورة السلطة المطلقة، ثم جرى تحديدها أكثر في القرن الثامن عشر، وذلك من خلال قبول التحول السلطوي وتفسيره الذي أسسه بطرس الأكبر. في عام 1723 تم الاحتفال للمرة الأولى بمناسبة التتويج المهيب لكاثرين الأولى. كان الطقس مختلفاً عما تمّ من قبلُ، بسبب تضاؤل دور الكنيسة وتمّ في مقابل ذلك، وبالنتيجة، تمجيد دور الحاكم المنفرد. كان يمكن أن تكمن المشكلة في أن الاحتفالات المسيحية بصفة عامة، تحتوي على رموز تشير إلى إجراءات طقسية للملوك الرجال، إضافة إلى منع المرأة من الدخول إلى الهيكل. شكّل تتويج الملكة آن عام 1730 سابقةً مهمةً، لتعريف طقس التتويج: صعدت آن إلى الهيكل إلى جوار الكاهن

(1) Ivi, pp. 303-304.

ليتمّ تكريسها، وحصلت على التناول تبعاً للطقس المخصص للشمامسة. عام 1742 أضافت الملكة إليزابيث جزيئة أخرى، غير معهودة، بأن وضعت التاج على رأسها بنفسها، وارتدت المعطف بلا مساعدة من رئيس الأساقفة: لقد أعطى هذا التصرف معنى رمزياً قوياً، يوحي باستقلالها عن الكنيسة. واتبعت كاثرين الثانية الطقس نفسه، وظلّ كما هو في القرن التالي أيضاً.

عندما اعتلى ابن كاثرين العرش باسم بافيل [باول] الأول عام 1796، غيّر قانون الخلافة وأسّس فكرة أن توارث الملك ليس مرتبطاً برغبة الملك: حتى وإن لم يكن هذا يستبعد تولي النساء الحكم بشكل رسمي، إلا أنه تقرّرَ أن يصبح الذكور هم المفضلون، وأصبح هذا هو الحال، بسبب الأحداث غير المتوقعة لتسلسل الأجيال. على كلّ حال، لم يكن يوجد في روسيا، قانون سالي يستبعد النساء من الحكم، وشهد القرن الثامن عشر أن تصبح سلطة القيصر التي يكتسبها بتكريس مهيب، هي ذاتها ما يسمح بالاعتراف الرسمي بكاثرين الأولى وكاثرين الثانية وآن وإليزابيث كملكات[1]. تشير بريندا مييهان–ووترز إلى مقال لدين ميلر يؤكد فيه أن مفهوم العصور الوسطى المبكرة والبيزنطية كان يرى الملك على هيئة شخص مزدوج الجنس، وأن الاستقطاب تجاه الذكورية ظاهرة حديثة. تستنتج المؤلفة من ذلك أن الروس في القرن الثامن عشر، ومن خلال قبولهم للحكم النسائي بلا إشكاليات، يمكن اعتبارهم مقلّدين لمفهوم السلطة في عصر ما قبل الحداثة، وتتساءل عمّا إذا كانت صورة القيصر القديمة قد أصبحت صورةً معنويةً طغت طغياناً قوياً جداً على حقيقة الأشخاص المادية حتى أمكن تطبيقها على أميرة ألمانية، ليس لها أي صلة عائلية بآل رومانوف[2].

(1) Ivi, pp. 305-306.

(2) Ivi, p. 307.

2. ماريا تيريزا، زوجةٌ صالحة وأمٌّ طيبة

كانت ماريا تيريزا هي المثال الأول تقريباً للملكة التي تم عرضها بلا أي تشويه من خلال صورة احتفائية تمجدها كثمرة للوحدة النمساوية. وهكذا في حالتها تلك، فإن الجنس الذي تنتمي إليه، الذي كان منذ ألف عام دليلاً على الضعف، قد تحول إلى رمز للقوة. واستطاعت قدرتها على الحكم أن تتخلّص من الثقافة الخاصة بمحدودية القدرات النسائية، وأن تمحوها من خلال نتائج حملاتها الحربية وأعمالها من أجل السلام. كانت ماريا تيريزا مشهورة، في واقع الأمر، بكونها مُصلحة -إذا أخذنا في الحسبان مشروع تسجيل الأراضي الذي نفذته في لومبارديا النمساوية للحصول على تقسيم ضريبي أكثر عدلاً، والذي أمكن من خلاله إطلاق الاستثمارات المنتجة[1]- حتى وإن لم يكن لديها أي تعاطف مع الأفكار المُجدّدة في زمانها. كان معروفاً أن النزعة التقليدية لمبادئها -خلافاً لكاثرين الثانية- لم تول أي اعتبار لفكرة التسامح التي روّجها فلاسفة الأنوار في أوروبا، كما أن قناعاتها الكاثوليكية المغالية كانت تلهمها «مفهوماً أوميّاً للسلطة»: فقد جعلتهم يقدّمونها ويروّجون لصورتها، في ذهن الشعب، كأم لأسرة (أنجبت ستة عشر ابناً وابنة، عاش منهم عشرة) وكأم للشعب. وقد ظلّت تلك الصورة راسخة مثل الكليشيه في التاريخ الذي تلاها[2].

كانت ماريا تيريزا هي الابنة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة للإمبراطور كارلوس السادس الهابسبورغي، إمبراطور النمسا، وإليزابيث كريستينا دي

---

(1) حول أهمية قانون تسجيل الأراضي كخطوة لتحقيق الإصلاح السياسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر، يمكن الاطلاع على زانغيري:

R. Zangheri, *Catasti e storia della proprietà terriera*, Einaudi, Torino 1980.

(2) J.-P. Bled, *Maria Teresa d'Austria*, Il Mulino, Bologna 2003, p. 10.

برونسفيك–ولفنبوتل، التي أخذت موضع زوجها في أماكن العمليات الحربية، أثناء العامين الأخيرين من حرب الخلافة الإسبانية. في الواقع حارب كارلوس عبثاً لضمّ خلافة الفرع الإيبيري من عائلة هابسبورغ، وكان لا بد أن يعود إلى فيينا، ولكنه عهد إلى إليزابيث كريستينا شرف استكمال الحرب بصفتها «القائد العام». عند انتهاء الحرب عادت الإمبراطورة بدورها إلى النمسا، كقرينة للإمبراطور، ولم تتقلّد أي دور سياسي، ولكنها أوْرثت إصرارها لابنتها ماريا تيريزا، كما أورثتها جمالها أيضاً. اتّخذت ماريا تيريزا نموذجاً من الحياة الخاصة التي عاشتها مع عائلتها من محبة وبساطة، لتطبّقه في أسرتها (الجديدة)، بدءاً من ذلك الإصرار غير العادي على أن تُتمّ زواجها القائم على الحب. عام 1724 أخذ الدوق فرانشيسكو ستيفانو من لورينا مكان أخيه الابن البكر ليوبولدو كليمنتي، الذي كان كارلوس السادس قد وعده بالزواج بماريا تيريزا، ولكن مرض الجدري قضى عليه بغتة، وتوجّه مع عدد كبير من حاشيته إلى براغ حيث، رأى وهو في سنّ الخامسة عشرة، خطيبته الصغيرة للمرة الأولى، وقد كانت آنذاك في السابعة من عمرها. تعلّم فرانشيسكو ستيفانو في بلاط فيينا، فسنحت لهما فرصة أكبر ليتعارفا بشكل أفضل؛ ثم مع مرور الوقت لم تُخفِ ماريا تيريزا انجذابها نحو الدوق الشاب.

وكأحد أهمّ العناصر في لعبة التوازنات السياسية الدولية، تمّ دفعُ فرانشيسكو ستيفانو للتنازل عن مقاطعة لورينا في مقابل أن يصبح حاكم توسكانا، حيث ستنتهي سلالة دي ميديتشي عام 1737 مع نهاية جان غاستون. قبل ذلك بقليل، في 31 يناير 1736، وافق كارلوس السادس رسمياً على زواج وريثته بفرانشيسكو ستيفانو، وتقرر إقامة الاحتفال يوم 12 فبراير. كان على العريس في تلك الفترة القصيرة أن يبتعد عن البلاط –كما هي العادة في هذه الاحتفالات– فأرسلت ماريا تيريزا إليه رسالة تصرح له فيها بأنها «متألمة

مثل الجرو الصغير» في انتظار رؤية «وجهه الغالي»[1]. تسلم فرانشيسكو ستيفانو، مهمة حكم هولندا، ثم أصبح القائد الأعلى عام 1737. ومع العودة مرة أخرى إلى الحرب ضد الأتراك؛ اتضح خلالها أنه ليس بالقائد الحربي الماهر، وانتهى به الأمر إلى أن يترك القيادة لجنرالات تابعين له، ولكن أكثر منه خبرة. لقد منعه هذا الالتزام، على كل حال، من أن يتولى هو وقرينته الحكم قبل 1739. كان العروسان قد وصلا لتوّهما إلى فلورنسا، حيث تم استقبالهما باحتفالات بهيجة مليئة بالحماس، عندما تمّ استدعاؤهما في أبريل من العام نفسه إلى فيينا ليذهبا إلى الإمبراطور كارلوس السادس، الذي كان ينتظر حفيداً ذكراً بفارغ الصبر. احتفظ فرانشيسكو ستيفانو بلقب الدوق الكبير ولكنه لم يعد قطّ إلى توسكانا.

كان على ماريا أن تخلُف أباها عندما مات في 20 أكتوبر 1740م لأسباب لم يستطع الأطباء كشفها وبالتالي علاجها. منذ عام 1709 أراد كارلوس السادس أن يضع الخلافة في السلالة النسائية، وفي 19 أبريل 1719 أصدر «المرسوم العملي»، الذي يُلزم أوروبا بأن تقبل ابنته خليفةً له، على الرغم من أن الإمبراطور كان لا يزال بإمكانه، في تلك الفترة، إنجاب طفل ذكر. غيّرَ «المرسوم العملي» الشروط المُتفق عليها من قبل في العائلة عام 1703 في نهاية حكم والد كارلوس السادس، ليوبولدو الأول، إذ كان ينصّ على الخلافة النسائية في حال عدم وجود ورثة من الذكور، ولكن ذلك كان يمنح الأولوية لابنتي الإمبراطور جوزيبي الأول، الأخ الأكبر لكارلوس. لكن كارلوس السادس أقرّ، إثر موت جوزيبي المفاجئ، وحصوله على اللقب الإمبراطوري، أسبقية بناته لتولّي الحكم قبل بنات أخيه.

ومع تغيير الإطار السياسي الأوروبي، اهتمّ كارلوس السادس بحصول

(1) Ivi, p. 23.

الوفاق على المرسوم العملي من جانب إسبانيا (1725)، وروسيا (1726)، وإنجلترا (1731)، وفرنسا (1735)، وأيضاً على انضمام الدول الألمانية وخاصة ساكسونيا وبافاريا، واللتين كان أميراهما قد تزوجا ماريا جوزيبا وماريا أماليا، ابنتي الإمبراطور جوزيبي الأول، الابن الأكبر لليوبولدو الأول، وأخو كارلوس السادس، وهما اللتان، كابنتي عمّ لماريا تيريزا، وابنتي الابن الأكبر، يمكنهما التطلّع إلى منافستها على الخلافة. على كل حال، كانت موافقة كارلوس السادس على الزيجتين مرتبطةً بشرط الإعلان العام لتلك الحقوق والموافقة على المرسوم العملي. ولقد اعترفت به بروسيا عام 1728، ثم في عام 1732 قامت كل الإمارات الألمانية التي كانت ممثلة في هيئة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بالموافقة بالمثل[1].

كان ذلك القلق، رغم كل شيء، بلا جدوى. فعند وفاة الإمبراطور، أكّد مرشحا الرئاسة في بافاريا وساكسونيا أن هذا الالتزام يتعلق بزوجتيهما، وليس بهما كزوجين. على الفور وبعد الاعتراف بمُلك ماريا تيريزا في خلافة الحكم في بوهيميا والمجر، ظهرت مسألة حقوقها التي جاءت في الشروط الموضوعة في المرسوم العملي. واجهت ماريا تيريزا الموقف بشجاعة استثنائية، سمحت لها بأن تنتصر في حرب دامت ثمانية أعوام (1740–1748م)، والتي بسببها زادت حظوتها جداً. وكما كتب باولو فريسي عام 1780، في تأبين الإمبراطورة، إن ماريا تيريزا وجدت نفسها، في الثالثة والعشرين من عمرها، في مواجهة أغلب ملوك أوروبا، فجميعهم يطالبون بحقوقهم في الخلافة بدلاً منها: ليس فقط أميرا بافاريا وساكسونيا، بل ملك بروسيا وبولندا أيضاً، وملك إسبانيا وسردينيا، ومع دعم من ملك فرنسا. كانت أوروبا كلها تغرقها التصريحات. كانت الإعدادات الرهيبة في كل مكان، وكانت تُسمع قعقعة

---

(1) Ivi, p. 47.

السلاح في كل مكان [...]. كان يبدو أن العصر سيغدو الأكثر تدهوراً بالنسبة إلى العائلة الملكية في النمسا، ولكنه كان الأكثر مجداً». قام فريدريك الأول ملك بروسيا بغزو سليسيا (Slesia) برفقة أربعين ألف رجل، ولكن الملكة الشابة لم تضطرب على الإطلاق من تلك الحوادث الأولى للحرب. كان لا بد لشجاعتها أن تُختبر في تجارب أكبر من هذه [...]. رفَعَ كبار المملكة قبعاتهم إجلالاً وصاحوا: لنمت جميعاً فداء «ملكنا» ماريا تيريزا[1].

كانت الخطابات التي تلقيها أمام الجند تحثّ على الارتباط بشخصها والإخلاص لها، وكانت مقنعة بسبب جمالها، وقدرتها على الخطابة التي بها تشجع الجنود على الثبات وأن فضائل الفروسية القديمة ما زالت موجودة. كانت الملكة ناجحة في تأسيس علاقة وجدانية عميقة ليس فقط أثناء أزمات الحروب القاسية، بل كذلك في العلاقات اليومية مع الرعايا، ذلك أنها صنعت من شخصيتها معبودة للجماهير لم يكن لها مثيلٌ في القرن الثامن عشر. كانت صور الملكية تُمجّد في حالتها فقط الانتماء إلى الجنس الأنثوي، عنصراً من عناصر القوة وليس الضعف، بينما كانت قدرتها الإنجابية تستدعي الحب الأمومي الذي سيمتد من نواة أسرتها إلى عائلة شعبها الواسعة. كان هذا التكريس المخلص يحولها إلى موضوع إجلال، وهي لا تزال على قيد الحياة، وهو تكريس كان يمكن، بحسب بليد، أن يكون النسخة العلمانية من تقديس العذراء[2].

(1) P. Frisi, *Elogio di Maria Teresa imperatrice*, a cura di G. Barbarisi, Biblioteca Comunale, Milano 1981, pp. 11, 14, 19.

(2) Bled, *Maria Teresa d'Austria* cit., p. 352.

درس مؤخراً ميكائيل يونان «الهوية الملكية» التي عرضت بها ماريا تيريزا صورتها الشعبية من خلال الأيقونات الظاهرة في اللوحات الرسمية والأشكال الأخرى التي قدمت شخصيتها:

Michael Yonan in *Empress Maria Theresa and the Politics of Habsburg Imperial Art*, Pennsylvania State University Press, University Park 2011;

يلاحظ يونان كيف أن التاريخ الحديث قد منح الإمبراطورة الاهتمام الذي تستحقه (ص: 8).

على كل حال، إذا كان في وسع ماريا تيريزا أن تصير «ملكاً»، فإنها لم تكن إمبراطورة «على أنه حق لها» ولكنها كانت كذلك إذ كانت قرينة الإمبراطور. فوفق معاهدة السلام في فوسن في 22 أبريل 1745، فإن حاكم بافاريا المُنتخب ماسيميليانو جوزيبي، الذي كان قد وضع نهاية لتدخله في حرب الخلافة النمساوية، قد تنازل عن التطلع إلى لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واعترف بصلاحية «الإعلان العمومي» النمساوي. قامت النمسا من جهتها بالتنازل عن طلب التعويضات عن الحرب، وسحبت قواتها من بافاريا واعترفت، بعد موته، بكرامة كارلوس السابع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، (مات كارلوس ألبرتو دي بافاريا، في 20 يناير 1745). وكان ابنه ماسيميليانو جوزيبي مشغولاً بدعم انتخابات فرانشيسكو ستيفانو ليصبح إمبراطوراً، وليترشّح أميراً مُنتخباً لِبلاتيناتو ولِكولونيا. في 13 سبتمبر 1745، في فرانكفورت، حصل فرانشيسكو على سبعة أصوات من تسعة ناخبين، وفي 4 أكتوبر تمّ تتويجه إمبراطوراً باسم فرانشيسكو الأول. عندئذ، لم يتم انتخاب ماريا تيريزا، ملكة بوهيميا والمجر، وحاكمة النمسا، ولكنها أصبحت زوجةً للإمبراطور فحسب. لم يمنعها هذا من أن تحكم أو أن تتّخذ القرارات المهمة بدل فرانشيسكو الأول، الذي اكتفى بالاهتمام بالأحوال الجارية.

عرَفتْ ماريا تيريزا، كالمعتاد، كيف تنتهز الفرص السياسية لاختياراتها:

إن الحصول على التاج الإمبراطوري، هو أمر ثانوي لحرب الخلافة النمساوية، التي كانت قد وصلت إلى أن تمنح الوجود نفسه للملكية، منذ اللحظة التي أعاد أعداؤها الوعد بأن يتقاسموا الأطلال فيما بينهم. بعد إزاحة هذا الخطر، لم تنقذ ماريا تيريزا الملكية فقط، بل أثبتت للجميع، أكانوا حلفاء أم أعداء، أن ما تمتلكه ليس مجرد أشياء سطحية. حتى في حرب

الأعوام السبعة [1756–1763] التي وضعت دولتين من أوروبا الوسطى في تصادم، النمسا وبروسيا، لامتلاك مقاطعة (سليسيا) وللهيمنة على ألمانيا، كانت مشكلات الإمبراطورية الرومانية المقدسة، مشكلات هامشية. في الحالتين كانت ماريا تيريزا تتعامل مع أعمال الإمبراطورية كوسيلة وليس كهدف[1].

بعد حرب الأعوام السبعة، نسجت ماريا تيريزا شبكة دبلوماسية جديدة وذلك من خلال المصَادِر غير المحدودة لأبنائها، وخاصة لبناتها، حتى وإن اضطرت ثلاث منهن إلى الخروج من سوق الزواج بسبب عيوب خلقية بالولادة وبسبب الإصابة بمرض الجدري. كانت إحدى تلك الزيجات، زواج ماريا كريستينا بألبرتو الساكسوني، رضوخاً غير معتاد من ماريا تيريزا، لرغبات ابنتها. وبالنسبة إلى الأخريات كانت الاختيارات تعتمد دائماً حسابات سياسية. قبل أن تكمل ماريا كارولينا أعوامها الستة عشر، كانت قد خُطبت إلى الملك فرديناندو الرابع في نابولي، وكانت الأرشيدوقة الشابة مستعدّة إلى درجة كبيرة لأن تحبّ زوجها «القبيح جداً» بحسب قولها، «بدافع الواجب»، وكابنة مطيعة، ومسيحية صالحة. هكذا كانت تشجّعها أمها أن تفعل، وكانت تكتب لها توصياتها، التي تتضمّن أن تظل في مكانها زوجة محترمة ومُخلصة. فعلت ماريا تيريزا بعد ذلك الشيء نفسه، متّبعةً النموذج الذي ضمنته وصاياها لماريا كاترينا، موصية به كل بناتها المقْدِمات على الزواج.

في أبريل 1768م كانت الإمبراطورة تُذكّر ماريا كارولينا بواجبها في الإذعان «للزوج، وتلبية رغباته وحتى شهواته، إذا كانت بريئة»[2]. ومع

(1) Bled, *Maria Teresa d'Austria* cit., p. 349.

(2) Maria Teresa d'Austria, *Consigli matrimoniali alle figlie sovrane*, a cura di A. Frugoni, Passigli, Firenze 2000, p. 57.

أنها كانت تُطمئن أمها على وداعتها، وقدرتها على استيعاب إحباطاتها، وخضوعها المسيحي لإرادة الربّ في حياتها، فإن ملكة نابولي، أفصحت عن مشاعرها الحقيقية في خطاب، أقل تحفظاً، أرسلته إلى الكونتيسة ليرشينفيلد، فأسرّت إليها بأنها كانت تعيش «في جحيم» وأنها فكرت في الانتحار بسبب الإحباطات وصعوبات الأيام الأولى للحياة مع زوجها. وعلى كل فإن التعليم الذي تلقّته كان له تأثيره الجيد فيها، وعلى الفور استطاعت الملكة أن تُعيد زوجها نحو الاتجاه الخاص بأمور الدولة، وهو الأمر الذي دفعها إلى أن تنظم من صقلية، المقاومة المناهضة لنابولي في بداية القرن[1].

في عام 1765، عندما بدأت الاتفاقيات الخاصة بالزواج بين ابنتها الصغرى ماري أنطوانيت، ووريث عرش فرنسا، كانت دبلوماسية ماريا تيريزا قد وصلت إلى الذروة: كان يبدو، بالفعل، أنها قد ضمنت تحالفاً قوياً، في أعقاب نهاية حرب الأعوام السبعة. أصبح الاتفاق رسمياً فقط بعد

(1) Bled, *Maria Teresa d'Austria* cit., pp. 318-320.

حول دور ماريا كارولينا السياسي يمكن الاطلاع على برونينغ:

O. Browning, *Queen Caroline of Naples*, in «The English Historical Review», 2, 1887, 7, pp. 482-517 e R. M. Johnston, *A Memoir of Queen Mary Caroline of Naples*, in «The English Historical Review», 22, 1907, 86, pp. 315-324; B. Croce, *Storia del Regno di Napoli*, Laterza, Bari 1924, pp. 180-186, 210-232 (cito dall'ediz. del 1972).

عن موجة التمثيل الواضحة في القرن التاسع عشر لحادثة ماريا كارولينا من قِبل ألكسندر دوما الأب، الذي كان قد كتب روايتين بين عامي (1864 و 1865م) حول ملحمة مملكة نابولي: «سان فيليتشي» و «اعترافات أثيرة»

«La San-felice» e «Le confessioni di una favorita».

وتم إضفاء الخصائص القوية جميعها على البطلة التي أتت كل الأعمال الجسورة لقمع الثورة البارثينوبية عام 1799. يمكن الرجوع حول الأمثلة الأخيرة إلى المؤلفين التاليين:

A. Coletti, *La regina di Napoli. La vita appassionata di Maria Carolina protagonista di splendori e miserie del Settecento napoletano*, Istituto Geografico De Agostini, Novara 1986; C. Erickson, Maria Antonietta, Mondadori, Milano 1997.

ذلك بأربعة أعوام، وذلك بسبب صغر سنّ الخطيبين. عندما بلغت ماري أنطوانيت خمسة عشر عاماً من العمر، أعدّت الأمُ ابنتها الحسناء والمليئة حيوية، لتتولّى الدور المُقدّر أن تشغله، ولكن تعليمها لم يكن دقيقاً جداً. في المقابل كان الزوج المقدّر لويس قبيحاً وخجولاً وعلى قدر كبير من الثقافة. تمّ عقْدُ الزواج من خلال توكيلات رسمية في 19 أبريل 1770، وبعد ذلك بيومين أبحرت العروس الشابة نحو فرنسا، تصحبها توصيات الأم[1].

3. تنبؤات دون جدوى للامبراطورة

في خطاب يعود إلى 30 يوليو 1775م –كان لويس الخامس عشر حينها قد مات وأصبح لويس السادس عشر ملكاً لفرنسا منذ ما يربو على السنة– كانت ماريا تيريزا تلوم ابنتها بشدة بسبب رعونة تصرفاتها وبسبب ضعفها في مواجهة العشاق الملتفين حولها، الذين كانت تحذرها منهم، وكانت الكلمات الختامية تبدو وكأنها تتنبأ بما سيحدث لها.

لا بد من أن يتغير قدركِ، ويؤدي بك، نتيجة أخطائك إلى أكثر الكوارث شدةً: إنه تأثير تلك الحياة المنحلة الرهيبة، التي لا تجعلك مفيدة في شيء [...]. ستعترفين بذلك يوماً ما، ولكن بعد فوات الأوان. لا أتمنى أن أعيش حتى أشهد تلك الكارثة، وأصلي إلى الربّ أن يقصّر أيامي، إذ أنني لن أستطيع مساعدتك، ولن أستطيع تحمّل أن أشهد فقداني ابنتي العزيزة التي أحبُّها، حتى آخر أنفاسي، ومن كل قلبي[2].

تزوج الملك والملكة فعلياً بعد سبع سنوات فقط من عقد الزواج، حسب ما صرحت به ماري أنطوانيت لأمها، في خطاب بتاريخ الثالث من أكتوبر

(1) *Maria Teresa d'Austria, Consigli matrimoniali alle figlie sovrane* cit., pp. 113 sgg.
(2) Ivi, p. 122.

1777 [1]: وأدى تدخّل جراحي إلى حلّ مشكلة العجز الجسدي والنفسي لدى لويس السادس عشر، وجَعَل الزوجة خاضعة للمسؤولية الواجبة لتنفيذ دورها الأول تجاه الدولة، وهو أن تأتي بوريث للعرش. على كل حال لم يتمتّع الزوجان قط بخبرة العواطف الحميمة التي تمنت ماريا تيريزا أن تعيشها ابنتها، والتي عاشتها الإمبراطورة بنفسها حتى عام 1765، تاريخ موت فرانشيسكو ستيفانو. وكانت الأم تشجب بشدّة عادة أن يكون لكل منهما فراشه المستقل، وإذا ما كانت الإمبراطورة تبدو لجوجاً، وغير متحفظة في نظر ماري أنطوانيت، فإنها تبرر ذلك، في 19 ديسمبر 1778، بأن وصفت نفسها، وسواء في رعايتها أو في عواطفها، بأنها لا تلتزم بأية حدود:

ليس لديّ شيء آخر يشغلني، يا أغلى الأعزاء، سوى أن أهتم بأبنائي الأحباب. إنها اللحظات السعيدة الوحيدة في حياتي المؤلمة[2].

بعد مولد الصغيرة ماريا تيريزا، في ديسمبر 1778، حثّت الإمبراطورة ابنتها على الحمل من جديد، وكانت تتمنى لها أن تضمن هذه المرة أن يرث العرش مولود «ذكر». وفي يونيو 1780، أي خمسة أشهر قبل موتها، رددت ماريا تيريزا مرة أخرى «لا بد من وريث للعهد. حتى الآن حاولت أن أكونَ متحفظةً، ولكنني سأصبح أكثر إلحاحاً بمرور الوقت»[3]. ماتت ماريا تيريزا

(1) Ivi, pp. 125-126.

(2) Ivi, p. 127.

في السنوات الأولى من حياة ماري أنطوانيت في البلاط، كانت الإمبراطورة تعبر أيضاً عن رغبتها في أن تضع ابنتها أحمر الخدود على وجنتيها.

(P. Saint-Amand, *Terrorizing Marie Antoinette*, in «Critical Inquiry», 20, 1994, 3, pp. 379-400, pp. 388-389).

فيما بعد وصل الأمر بماريا تيريزا إلى أن تخصص أجزاء من خطاباتها حول الطريقة التي تصفف بها ماري أنطوانيت شعرها، في محاولة -بلا فائدة- لأن تفرض عليها استخدام أسلوب أقل عجباً لتصفيف الشعر:

D. Hosford, *The Queen's Hair: Marie-Antoinette, Politics, and DNA*, in «Eighteenth-Century studies», 38, 2004, 1, pp. 183-200, p. 189.

(3) Bled, *Maria Teresa d'Austria* cit., p. 331.

قبل أن تتألم بسبب نهاية ابنتها، ونهاية نظام سياسي أوروبي، ذلك النظام الأرستقراطي القديم، الذي كانت هي بطلته في القرن الثامن عشر، وقبل أن ترى فشل المشروعات، التي كانت تنوي أن تنفذها بناتها، متبعات ذلك النموذج للملكية النسائية والتناغم في الحياة العائلية وقد حاولت أمهن أن تطبعه فيهن. وكانت كل من ماري أنطوانيت وماريا كارولينا في وسط أحداث الثورة. بالنسبة إلى ملكة نابولي، وفي الأعوام الأولى من المُلك، كان الزوج فرديناندو قد ترك لها هامشا كبيراً في الحكم، استخدمته في تطوير سياسة الإصلاحات الاقتصادية. يرتبط تأسيس مستوطنة سان لاوشيو، بصفة خاصة بماريا كارولينا، وهي المستوطنة التي يعمل فيها الرجال والنساء في صناعة الحرير، ويحصلون على القدر نفسه من التعليم والرواتب وحقوق الوراثة والمِلْكية وتعليم الأبناء واختيار شركاء الحياة[1].

لم يقلّص صدى الثورة الفرنسية من حماس الإصلاح لدى ماريا كارولينا، ولكن خبر إعدام أختها الحبيبة ماري أنطوانيت (16 أكتوبر 1793) أجّج كراهيتها، وزاد من رغبتها في الانتقام، وقد عبرت عنهما بحدّة في قمع جمهورية نابليون عام 1799. أُجبرت العائلة الملكية على الحياة في المنفى منذ العام 1806، وماتت ماريا كارولينا في فيينا في الثامن من سبتمبر 1814. لم تحظ حياة الأخت الكبرى بتغطية تاريخية، مقارنة بحياة أختها ماري أنطوانيت، وظلت صورتها مرتبطة بالقسوة التي بها ضحت بالجمهوريين، وخاصة بلويزا سانفيليتشي والصديقة إيليونورا بيمنتيل فونسكا وقد قاسمتها، لعدة أعوام، الأفكار الخاصة بحقوق المرأة: إن تعقيد هذه الشخصية يستحق، لأسباب كثيرة، اهتماماً أكبر.

---

(1) L'utopia *di Carolina. Il Codice delle leggi leuciane*, a cura di N. Verdile, Regione Campania, Stamperia Digitale, Napoli 2007.

إلا أن صورة ماري أنطوانيت، تبقى محاطة بأسلوب عرض مبالغ فيه، يجعل من الصعوبة تشخيصها إلا على كونها ضحية بريئة لشطحات ثورية أو أنها كانت نموذجاً للتهور النسائي والأنانية الأرستقراطية. أشارت سيسيل بيرلي إلى أهمية وسائل الاتصال الحديثة والتشويه المُتعمد لصورة ماري أنطوانيت التاريخية: توجد عن هذه الظاهرة بعض مواقع الإنترنت التي تمثل التعبير الأحدث وهو يُظهر دغلاً من النماذج النمطية للملكية وللنساء وللأمومة. وتنتج عن الأمر صورة مطلقة إلى حد كبير، لا تعبأ بالجدل التاريخي منذ مئات السنين، وتُفضل الجوانب النفسية التي تُضخم الخصائص الملازمة لغرور ماري أنطوانيت. منذ عدة عقود ظهرت ملكة فرنسا في أفلام الرسوم المتحركة المُنتَجة في اليابان، في سلسلة «مغامرات ليدي أوسكار»، كنمط مُبالغ فيه لمعالجة النماذج النسائية، ولتشويه الشخصية وتحويل أحداث التاريخ الفرنسي الأكثر أهمية في القرون الأخيرة إلى سلسلة من أفلام الرسوم المتحركة للأطفال.

ومنذ فترة وجيزة، ضخّمت وسيلة الاتصال التي لا مثيل لها، الإنترنت، تأثير تلك الأساطير التاريخية، وأثبتتها بكفاءة ومنحتها استمرارية، مكتفية بنشر معرفة متفق عليها على نطاق واسع، مستخدمة القواعد البسيطة لنوع السير الذاتية (في هذه الحالة، وبشكل جوهري، تلك القاعدة الخاصة بتضافر شخصيتين بداخل ماري أنطوانيت، متناقضتين فيما بينهما[1]). إذا أردنا تأكيد

---

(1) يوجد أحد نماذج الازدواج كأداة لتفسير شخصية الملكة المتداول في إيطاليا بداية القرن العشرين لدى غونكور:

E. e J. de Goncourt, *Maria Antonietta*, Sonzogno, Milano 1940 (ed. orig. Parigi 1858).

حيث نقرأ: «بالنسبة إلى التناقض الشخصي، وهو ليس شيئاً نادراً في النساء، فإن الفرح كان يطفو فوق ذلك العمق العاطفي والحزين للملكة. كانت سعادة مجنونة نوعاً ما، طائشة، منفعلة باستمرار وتملأ فرساي كلها بفرح وحيوية» (ص: 18) كانت شخصية تتأقلم بصعوبة مع =

أن شبكة الإنترنت هي أقصى إثبات لقدرات التلاعب بالمعنى العام للتاريخ، فإن شخصية ماري أنطوانيت هي بالتأكيد دليل على هذه القصة «التي تحولت للعامية»، وأصبحت تجارية، وهي خصائص ينبغي لجماعة المؤرخين أن يتعلموا ألا يضعوها في الحسبان دون الاحتراس من استثناءات سلبية[1]. لقد أصبحت الملكة، رغماً عنها، أيقونة لدى هؤلاء المؤرخين المقروئين على نطاق واسع، مما أبعدها عن تقييم التاريخ. لهذا لا يمكننا أن نقلل من شأن العالم الافتراضي، ولا أن نتجاهله، ولا حتى أن نسخر منه: لأن معرفته تطلعنا على كم الأخطاء المعرفية الشائعة والتحريفات التاريخية التي ما زالت ترتبط حتى الآن بماري أنطوانيت في الصورة المتداولة عن إطار عرض إعدامها، وقد صنعها لها جاك لويس ديفيد، في الخلفية التراجيدية والمُمجدة للثورة[2].

= لامبالاة الملك وقسوته. بعد أن أصبحت ملكة عام 1774، لم تكن أساليبها المتحررة تلقى معارضة من الملك، وكذلك «عدم المراعاة، والبراءة المجنونة وطيش الصبا وهو ما كانت ماري أنطوانيت تستسلم له أيضاً أثناء الاحتفالات الملكية المهمة أو حتى مناسبات الحداد، وقد كانت كلها أسلحة تُستخدم ضدها، على أيدي الأميرات المسنات اللواتي يضمرن لها ضغائن (ص: 27).

(1) الحديث الخاص بتحويل صورة الملكة إلى «صورة مبتذلة» يمكن أن نحيله أيضاً إلى الفيلم الحديث «ماري أنطوانيت» لصوفيا كوبولا. وضعت المخرجة في الفيلم، الذي عُرض عام 2006، جانباً فصل نواياها في تقديم انفعالات متصلة بحقيقة الوقائع، تم استخلاصها من كتاب «ماري أنطوانيت» لأنطونيا فريزر، المنشور في إيطاليا من قِبل دار موندادوري عام 2002، وكانت النسخة الأصلية قد ظهرت قبل ذلك بعام، وهي سيرة ذاتية من النوع الأول الذي يركز في الجوانب النفسية للشخصية ولكن دون أن يتنكر للصرامة التاريخية.

(2) C. Berly, *Marie-Antoinette sur le Net: de l'usage de la reine ou des usages d'une mémoire royale et féminine*, in «Annales historiques de la révolution française», 333, 2003, pp. 85-101, citazioni alle pp. 87 e 101.

لم تكن جديدة، على كل حال، تلك الظاهرة الخاصة بشعبية الملكة وبتشويه الحقيقة، ولا احتاجت إلى وسائل الاتصال الحديثة لتجد أرضية خصبة في التصورات الشعبية. مقال مهم يقدّم أمثلة مثيرة لظهور ماري أنطوانيت سجّلها شهود عيان بين القرنين التاسع عشر والعشرين وقد تم تشخيصها بكونها حالات من التملك الجنوني:

T. Castle, *Marie Antoinette Obsession*, in «Representations», 38, 1992, pp. 1-38,.

أحد مظاهر تحيز الأحكام حول الملكة، التي لا تقتصر على مناقشات شبكة الإنترنت ولكن تُميز أيضاً الجدل التاريخي، هي تلك المتعلقة بعاداتها الجنسية والإدانة العامة لسلوكها المنحلّ: وهو أمر شائع يجتاح كل الأدب الخاص بالنساء في السلطة وهو ما لم تستطع ابنة ماريا تيريزا -الوحيدة المحصّنة من الهجوم على نوعها كامرأة- أن تنزع نفسها منه، ونجد له نسخة إيجابية أحدث، تلك التي تتناول الاستقلال القاسي لابنة الإمبراطورة[1]. في إحدى الدراسات المهمة، أثبتت فيرونيك كامبيو-فينسنت وكريستين سوجاي كَوَان، كيف أن المثال الشائع على غبائها -العبارة الشهيرة التي قالتها الملكة للشعب الذي يتضور جوعاً- كانت دعابة قديمة قد تم بالفعل استخدامها في مناسبات متنوعة. وعلى أن هذا الأمر لم يكن جديداً، فإن الكاتبتين تشيران إلى أن مقولة الخبز والكعك قد تمّ استخدامها في الكتب -وسيلةً تربويةً وسياسيةً- لتعليم الأولاد القِيَم من قبيل العدالة والمساواة والتضامن الاجتماعي. إن التركيب المعقد لتلك الفترة والدور الذي لعبته ماري أنطوانيت في ذلك السياق يتم تركيزهما في إجابة قوية -«فليأكلوا الكعك!»- إجابة بسيطة، سهلة التذكر وتلخص مشكلات الشعب، الجوع والبطالة من جهة، والاستخفاف وغياب الضمير الاجتماعي لطبقة النبلاء من جهة أخرى. تمّ تناقل تلك العبارة تدريجياً، ثم تحوّلَ مقصدها، وأصبحت عبارة حقيقية إلى حد أن نقداً لاذعاً يوجه وإلى وقت قريب لأيّ كتاب تاريخ لا يذكرها، وبالنتيجة فقد محيت المشكلات التي يتضمنها المثال، وحُيّدت إمكانية الاقتراب من التركيب المعقد لتاريخ ماري أنطوانيت وحياتها[2].

---

(1) Bertière, *Marie-Antoinette l'insoumise*, De Fallois, Paris 2002.

(2) V. Campion-Vincent, C. Shojaei Kawan, *Marie-Antoinette et son célèbre dire*, in «Annales historiques de la révolution française», 327, 2002, pp. 29-56.

إن مفهوماً تاريخياً شائعاً آخر ينصّ على أن سلوك الملكة قد ساهم في انتشار الاعتراضات الشعبية قبل عشر سنوات من تفجر الثورة، والقضاء بشكل نهائي على الملَكِية. فَحَص سيمون بورروز المنشورات السياسية– الإباحية التي كانت تهاجمها، ونَزَع المصداقية عن مواقف المؤرخين مثل روبرت دارتون[1]، شونتال توماس[2] ولين هانت[3]، الذين نسبوا إلى تلك الاتهامات دوراً حاسماً في تهديد الثقة في الحكم الملكي. أثبت بورروز ألاّ وجود لأيّة كتابات تتضمن تهجّماً على الملكة، على الرغم من أنها كُتبت ونُشرت عام 1780، وتم توزيعها قبل الاستيلاء على الباستيل، وعندئذ انتشرت لتجييش الناس ضد التأثير الشرير لماري أنطوانيت على اختيارات زوجها، وعلى عدم الثقة فيها لكونها أجنبية[4]. إن واقع بقاء الملك والملكة بلا أطفال لسبع سنوات لم يساعد ماري أنطوانيت على كسب شعبية، إلى حد أنه، كما سبق أن رأينا، دَفَع الإمبراطورة إلى التدخل أكثر من مرة لشجْبِ واقع أن الملك والملكة لا يتشاركان فراشاً واحداً. استعاد بورروز نصوص فيفيان غرودي، التي فحصت تشهير الإباحية السياسية في الأعوام نفسها: في تلك الأعوام طُرح على المستوى الشعبي، إضافة إلى سلوك ماري أنطوانيت الآخر المرفوض من الناحية الأخلاقية، ميولها السحاقية المزعومة، وهي الميول التي اعتقد الجميع أنها سبب ذلك الانتظار الطويل لوصول وريثٍ إلى عرش

(1) R. Darnton, Libri proibiti: pornografia, satira e utopia all'origine della rivoluzione francese, Mondadori, Milano 1997.

(2) C. Thomas, *La Reine scélérate: Marie-Antoinette dans les pamphlets*, Seuil, Paris 1989.

(3) L. Hunt, *The Many Bodies of Marie Antoinette: Political Pornography and the Problem of the Feminine in the French Revolution*, in *Eroticism and the Body Politic*, a cura di L. Hunt, Johns Hopkins University Press, Baltimore 1991, pp. 108-130.

(4) S. Burrows, *Blackmail, Scandal, and Revolution: London's French «libel listes», 1758-92*, Manchester University Press, Manchester 2006, pp. 151 sgg.

فرنسا. أكد بورورز أن تلك الكتابات المشوهة للسمعة كانت تجد أرضية خصبة في محيط الملكة الأرستقراطي، ولكنها كانت ذات تأثير ضئيل في عامة الشعب، ولذلك، كما تؤكد فيفيان غرودي، من الخطأ أن يتم الإشارة إليها كعناصر حاسمة في الدعاية المناهضة للملكية، وفي تصاعد الكراهية الشعبية تجاه الملوك[1].

لكن فضيحة انتشرت تسببت في ضجة كبيرة في البلاط عام 1785، عندما طلب الصائغ شارل-أوغست بومر من الملكة أن تسدد له ثمن عقد، اشتراه لها الكردينال روان، وقيمته مليون وستمائة ألف ليرة[2]. استثمر الصائغ في ذلك العقد كل رأس ماله، وانتظر على مدى ستة أشهر أن يتم تسديد الثمن. وكان الأمر يتعلق بمؤامرة خبيثة من قبل الكردينال وجان دو سان-ريمي، كونتيسة لاموت، من السلالة الزائفة لعائلة فالوا، وذلك للنيل من مصداقية ماري أنطوانيت، التي ستقول إنها لم تعهد قط لأحد بشراء ذلك العقد، الذي كان باهظ الثمن بشكل لا يُصدَّق، وتصرفت الملكة ضد أعدائها كما توقّع

(1) V.R. Gruder, *Où va le révisionnisme? Perspectives politiques sur l'Ancien Régime*, in «Annales historiques de la Révolution française», 310, 1997, pp. 567- 584, citazione a p. 578.

إن اتهامات السحاقية الموجهة لماري أنطوانيت صنعت منها شخصية شعبية في ثقافة المثلية الجنسية، وعن هذا يمكن الاطلاع على فريزر:

Fraser, *Maria Antonietta* cit.,

التي تذكر صفحة 491 الاستشهاد الخاص حول علاقة العشق بين الملكة وأميرة لامبال في رواية رادكليف هول «بئر العزلة»، وهي تُعدّ الرواية الأولى التي تناولت موضوع السحاق، وقد نُشرت في الأصل عام 1928، وتمت ترجمتها إلى الإيطالية عام 1930.

كان التأويل الأول للعلاقة بين ماري أنطوانيت وأميرة لامبال كارتباط من النوع الجنسي يعود إلى الكاتبة غير المعروفة روز لور ألاتيني التي نشرت عام 1918 «محتقر ومنبوذ» باسم مستعار أ.ت. فيتزوري وعن هذا يمكن الاطلاع على المقال المتميز الذي كتبه كاستل:

Castle, *Marie Antoinette Obsession* cit., in particolare a p. 25.

(2) F. Furet, *La rivoluzione francese*, vol. I, Laterza, Roma-Bari 1991, USA

في الصفحة 40 يعطينا فكرة عن فحش ثمن العقد ومثالاً للمقارنة: كانت ملابس قصر فرساي، للبلاط كله، تكلف مائة ألف ليرة في العام.

منها الجميع أن تفعل.

كان الكردينال روان قد تسلم العقد، باهظ الثمن بالفعل، وسلمه إلى كونتيسة لاموت، التي سرقته بأن نزعت كل ما به من ألماس والبالغ 647 قطعة، وباعته لتهربَ بعد ذلك مع زوجها. كان الكردينال مقتنعاً بأنه يشارك في مشروع السيدة الماهرة، التي أطلعته على توقيعات مزيفة للملكة، وأطلعته على سيدة ترتدي ملابس مثل ماري أنطوانيت وتغطي وجهها، وقد قابلها روان ليلاً، وأهدته، على عجل، وردة كعلامة على العرفان بالجميل. إذا توقفنا عند هذه الرواية فإن الكردينال أيضاً كان ضحية خدعة، بينما كانت الملكة واثقة من أنه هو مُدبّر كل شيء، فأمرت بالقبض عليه. أمر الملك، مؤازرةً لزوجته، أن تتمّ محاكمته أمام برلمان باريس، مما أثار حفيظة الكهنة، ورغبة طبقة القضاة في الانتقام، ورد فعل عائلة روان. تمت تبرئة الكردينال واستخلص الرأي العام من ذلك الحادث العجيب القناعة بأن المسؤولية تقع على طيش ماري أنطوانيت وحبها الجامح لحياة البذخ[1].

تأتي بعد ذلك المرحلة الأخيرة من حياة الملكة، تلك الخاصة بفترة القبض عليها وقتلها، والتي على أساسها تمّ بناء قصة تحريرها وأسطورتها الحزينة،

(1) تحول هذا الحدث إلى موضوع روائي بداية من ألكسندر دوما الأب، الذي كتب «عقد الملكة»، ونشره عام 1850، ويمكن أيضاً الاطلاع على مؤلف:

F. Funck-Brentano, *L'affaire du collier*, Hachette, Paris 1901,

الذي صنع من هذه الفضيحة أحد أسباب الثورة وقد أهدى كتابه إلى ألبير سوريل. ويوجد عمل حديث موثق بشكل جيد لكرافيري:

B. Craveri, *Maria Antonietta e lo scandalo della collana*, Adelphi, Milano 2008.

وفيما يتعلق بالجزء الأخير من السير الذاتية الأكثر شعبية، نجد أن صورة الملكة تظهر كشخصية متهورة ولعوب، إضافة إلى أنها لا تشعر بالندم على شيء نظراً إلى عدم قدرتها على التفكير، فهي في وسعها أن تُظهر تماسكاً وقت الكارثة فحسب. إن النموذج المتبع في هذا هو ذلك الخاص بزويغ:

S. Zweig, *Maria Antonietta. Una vita involontariamente eroica*, Mondadori, Milano 1933.

وهالة البطلة ضحية الوحشية الثورية، وإخلاص الكاثوليك أصحاب القلب الرحيم. حتى بخوض ذلك الطريق يبقى الجانب الإنساني من حياة ماري أنطوانيت تائهاً. فيما يتعلق بعملية إعدامها، أعادت لين هانت صياغة تعريف كانتاروفيتش متحدثة عن موتها لا بالإشارة إلى جسدين، جسد الإنسان وجسد الملك، الأول زائل، والثاني «سياسي» لا يموت، بل من خلال الإشارة إلى جسد «غامض» لا يسمح بأن تُضفى عليه قداسة بعيداً عن حياة الملكة، ولكنه يظهر، كما خمن لويس مارين، مانحاً لكانتاروفيتش قراءة أكثر تحرراً[1]، في رموز التصوير الأيقوني والتجسيد الأدبي.

إن جسد الملكة هو قبل كل شيء تقاطع لعلامات مُنحت بصورة مُتعمّدة إلى خيال الرعايا: فهذا الجسد كان من الطبيعي أن يشحذ الخيال الشعبي حول المَلَكية النسائية الغامضة، وقد كان ذا معنى سياسي وإغواء جنسي في الآن نفسه. كانت الشابة النمساوية قد أظهرت التمرد على قواعد البلاط والخضوع له في آن واحد. وكان التزامها بقواعد اللياقة، مصحوباً بتدخلها المتحمس والغريب في مؤامرات البلاط، الكبيرة منها والصغيرة، وكانت الشروط التي وضعتها هي نفسها قد جعلتها هدفاً سهلاً للتشهير والنعوت الإباحية التي كانت تشوه دورها السياسي لها كقرينة الملك، بينما كان ظهورها في العلن يغطي على صورة لويس السادس عشر نفسه.

أدّى التشهير دوره، من خلال إعادة فحص المنشورات السابقة، مضخماً إياها ليشعل الكراهية ضد الملكة وضد الملكية، فمثّل ماري أنطوانيت في ثوب بشع التصقت به الملكة، وانتهى الأمر بأن أصبحت تخاف من نفسها. هذا التغيير مُمَثَّل رمزياً من خلال التضحية بجمالها الفاتن، الذي اِلتَفتَ إليه ديفيد قبل طقس الإعدام. وبالطريقة نفسها، فإن الحكم عليها لأنها نمساوية

(1) L. Marin, *Le portrait du roi*, Éditions de Minuit, Paris 1981.

وأجنبية حرمها من المزايا التي مُنحت إياها وهي في الرابعة عشرة من عمرها حينما جرى استقبالها بحفاوة كبيرة عند وصولها إلى باريس[1]. أما فيما يتعلق بضعفها، الذي كان يعود إلى واقع عدم اندماجها في المملكة ولم تكن تبدو في قامة المشروعات الخاصة بتحالفات العائلات الملكية، لاحظت فاني كوساندي أن القيمة السلبية لكون الأميرة أجنبية، ازدادت بخطى متساوية مع تصرفاتها غير العادية تجاه تقاليد البلاط، واقترحت معنى آخر للمجاز الخاص بضعف جسد الملكة، متأثرة في هذه المرة بعدم التواصل في شخصيتها، بين الانتماءين الوطنيين المختلفين، ذلك الانتماء الأصلي والآخر المُكتسب:

إن ضعف ملكة فرنسا ينبع من واقع أنها ظلت في سجل مزدوج، لملكة ولإحدى أفراد الرعية، للهوية الفرنسية ولجذورها الأجنبية. في هذه الحالة، للعثور على أصولها الخاصة وهويتها الشخصية ليس من باب كونها ملكة ذات شخصية ملكية، ولكن من حيث كونها ملكة إنساناً، وكائناً حياً. فهذا يزيد من استهدافها لأنه يجعل المقام الذي تشغله أقل شرعية. إن ذكرها على أساس أنها كائن أجنبي كان يمكن أن يتسبب في إيذائها بسهولة [...] فكل التصرفات غير الطبيعية كانت تعود إلى طابع الملكة الأجنبية.

من جهة أخرى، كان الشيء نفسه قد حدث بالفعل لكاترينا وماريا دي ميديتشي ولآنا النمساوية[2].

نشرت شونتال توماس كتاباً بمناسبة المئوية الثانية للثورة[3] –عندما

(1) Saint-Amand, *Terrorizing Marie Antoinette* cit., pp. 388 sgg.

(2) F. Cosandey, *Francese o straniera? La regina di Francia tra dignità regale e successione ereditaria*, in «genesis», 1, 2002, 1, pp. 35-60, citazione alle pp. 59-60.

(3) Thomas, *La Reine scélérate* cit.

تضاعفت الأبحاث النسائية حول تلك الأحداث[1]– وكان الكتاب يعيد النظر في العديد من الأعمال الأدبية السابقة من جوانب متنوعة، وخاصة بالعودة إلى المنشورات التي كانت تتناول السمعة السيئة للملكة. يكاد يكون من المتعذّر العثور على دراسات مُخصصة لماري أنطوانيت، وهي لا تواجه مشكلة المناورات السياسية الضخمة حول صورتها: إن عملية تشويه صورتها بصفة مُتعمَّدة، جعلت ثمة استمرارية في الاستعادة العملية للمواضيع نفسها والمناقشات الجارية في الأدب التاريخي والسيرة الذاتية خاصة. إن الأحكام الإيديولوجية المُسبقة، أو التعاطف، ورفض الشخصية رفضاً مشطّاً، استمرت في طرح قراءات مختلفة وبشكل متناسق، ولكنها تساوت في استخدام الوثائق نفسها التي لم تتغير جوهرياً منذ أكثر من قرنين: الخطابات الخاصة والرسمية، التقارير الدبلوماسية، شهادات المعاصرين، ومحاضر الجلسات (مثل تلك الخاصة بقضية الكردينال روان). يتم التركيز بهذا الشكل، تبعاً للحالات، في فساد نظام سياسي يوشك أن يسقط، وندم ماري أنطوانيت المثالي واستسلامها المقدس أمام المقصلة، وحول براءتها وطيبة قلبها، اللذين أُسيء فهمهما من لدنّ باريس الفاتنة (على الرغم من التوصيات المُلحة للإمبراطورة)، وحول ازدواجيتها الجنسية الحقيقية أو المزعومة، والتي كُتب حولها كما رأينا في بداية القرن العشرين، وأُعيد اكتشافها في أيامنا الحالية بغية الحصول على دعم سياسي للاعتراف بحقوق المثليين.

من المؤكد، كما كتب الكثيرون، أن تلك الأكاذيب «كوّنت شخصية» ماري أنطوانيت بل وحددت ملامحها. وليس مصادفة إذن أن تتحدث شونتال

(1) على سبيل المثال يمكن الاطلاع على مؤلف ماران فوكي:
C. Marand-Fouquet, *La femme au temps de la Révolution*, Stock-Laurence Pernoud, Paris 1989.

توماس ليس عن «تاريخ»، بل عن «أسطورة» ماري أنطوانيت، مقارِنة إياها بليدي ديانا، ضحية مغالاة وسائل الإعلام، وضحية سحرها نفسه. وكمثال على تجاوز تبعات الخروج عن الحدود التقليدية، وصعوبات العثور على حلّ لمعضلة «تاريخ أمْ أسطورة»، «سيرة ذاتية أدبية أمْ إعادة بناء تاريخية»، غير مؤسس على التحليل النفسي وبعيداً عن العاطفة، اخترتُ بعض العبارات لبنيديتا كرافيري، لأنّ كتاباتها كاشفة، وهذا الأسلوب وحده هو الأسلوب الناجح، من خلال إعادة تركيب التمزق الذي لا يزال يبعد ماري أنطوانيت عن تماسكها كشخص وكملكة:

> لنقتصر فقط على استنتاج بسيط؛ بينما تضع الافتراءات الثورية المواطنة كابيتو بجوار ميسالينا، وأغرابينا، وفريديغوندا وكاترينا دي ميديتشي، جميعهن في قائمة الملكات الشريرات، فإن ماري أنطوانيت كشفت، أمام تجربة درب الآلام الذي لم تُطرح فيه أي ملكة فرنسية من قبل، أنها تتحلى بكل الفضائل التي تربطها بالملكات المثاليات في التراث اليهودي–المسيحي، تلك الفضائل التي احتفى بها قبل قرنين الأب المشهور كوسين في «الدرس المقدس» ليحثّ النساء على التحلّي بالقوة: تكريس العائلة، والكرامة، والشجاعة، والثبات أمام الأعداء، والإصرار، والخطابة [...]. فمثل ملكة وشهيدة مسيحية، أصبحت ماري أنطوانيت، المُنتخبة الوحيدة ضمن سلسلة طويلة من الملكات اللاتي جلسن على عرش فرنسا، في الفترة التي تلت الثورة الفرنسية، موضوعاً لتبجيل يقاوم بشجاعة كل المراجعات التاريخية. لقد دخلت في الأسطورة حتى قبل موتها، أثناء الرحلة التي كان يقودها فيها الحراس نحو ميدان المقصلة: ولكن تعبير الوجه الذي استطاع ديفيد

أن ينقله على الورق ما زال هناك، ليشهد بأن الشعور بالاشمئزاز هو ما سلّح إلى النهاية شجاعة ابنة عائلة هابسبورغ الأصيلة[1].

اعتبار آخر يفرض نفسه هنا، هو أنه بينما استطاعت الملكات مثيلات إليزابيث تيودر وكاترينا وماريا دي ميديتشي، وأخريات أيضاً، ولكن بالأخص ماريا تيريزا، السيطرة على الصورة التي قدّمنها عن أنفسهن وعن مُلكهن، فإنّ ابنة الإمبراطورة وُضعت تحت رحمة الرأي العام، الذي لم تكن قادرة قط على التأثير فيه، وبذلك سمحت أن «تُحاك حولها» صورٌ مختلفة. وبالطريقة نفسها، لم تعرف ماري أنطوانيت كيف تستفيد من الفرص التي استطاعت كل قرينات الملوك انتهازها: أن تكون لها علاقة برعاية الفنانين بحيث يمكن أن تستخدمها لمصلحتها.

(1) B. Craveri, *Amanti e regine. Il potere delle donne*, Adelphi, Milano 2005, pp. 372-373, 375.

وختاماً

السحر المزعج للسيرة الذاتية

سيطرت على المشهد الأوروبي والدولي في القرن التاسع عشر -كما حدث بالفعل قبل ذلك بثلاثة قرون مع إليزابيث الأولى- ملكة بالوراثة؛ فيكتوريا، تلك التي ورثت التاج الإنجليزي في سن الثامنة عشرة، بسبب سلسلة من المصادفات السعيدة، واحتفظت به لمدة طويلة جداً، محقّقة بذلك رقماً قياسياً في البقاء في حكم إنجلترا، يساوي تقريباً في عصرنا هذا، ملكة أخرى بالوراثة وهي إليزابيث الثانية. كان أبو فيكتوريا الملك إدوارد دوق كَنْت، الابن الرابع للملك جورج الثالث. لم يكن لإخوته الثلاثة الأكبر سناً أبناء يمكنهم أن يخلفوا آباءهم حين يموتون. تزوج إدوارد متأخراً -وهو في سنّ الخمسين- بأميرة ساكس كوبرغ سالفيلد. بعد ولادة فيكتوريا بثمانية أشهر -التي تم تعميدها باسم ألكسندرينا فيكتوريا، على شرف القيصر أليكساندرو، وكانوا يدعونها في المنزل باسم درينا، حتى وإن كان اسمها يظهر دائماً في الأعمال العامة فيكتوريا، مات أبوها إدوارد وجدها الملك جورج متعاقبين، بفارق بضعة أيام. كان ولي العهد عندئذ هو جورج الرابع، الابن الأكبر لجورج الثالث وعمّ فيكتوريا.

وعلى الرغم من وجود احتمالات لتولي الطفلة حكم إنجلترا بدورها، لم يتم إعدادها لذلك بسبب التعليم الذي كانت تفرضه عليها أمها القاسية، وقد كان لها رأيٌ لا يتغير بشأن ما يناسبها وما لا يناسبها. مؤكد أن درينا تعلمت الموسيقى والرقص، وتعلمت الإنجليزية أيضاً فضلاً عن الألمانية. وكانت في سن المراهقة قادرة أيضاً على التعبير عن نفسها بالإيطالية والفرنسية. في 26 يونيو 1830م مات الملك جورج الرابع وتولى الحكم بعده عمٌّ آخر لفيكتوريا، صار لقبه وليم الرابع. جعل هذا الحدث اقتراب درينا من العرش وشيكاً، وكانت تبلغ من العمر حينها أحد عشر عاماً، وجعل ذلك اقتراب إنجلترا من أن تتربّع على عرشها طفلة. تجنباً لهذا الموقف صوّت البرلمان مقدّماً عام 1831، على قانون الملكية الذي به يتمّ تسليم العرش في حالة الوفاة المفاجئة للملك وليم الرابع إلى وصاية الدوقة أرملة كَنْت، أمّ فيكتوريا. استمر تعليم البنت تحت إشراف الأم بطريقة تقمعها، على الرغم من وضوح مصيرها، ولم تسمح لها بالتعرّف أكثر إلى أوساط البلاط ولا أن تفهم الأمور السياسية. في المقابل، كانت فيكتوريا تخصب خيالها عن الماضي بقراءة مجلدات تاريخية، وبخاصة الروايات التاريخية، التي كانت تفضّل من بينها روايات سير والتر سكوت.

عند موت عمها وليم الرابع، في الثالث عشر من يوليو 1837م، تركت فيكتوريا قصر كنسينغتون لتنتقل إلى قصر باكنغهام كملكة. ولكن التتويج المهيب لم يتم سوى في العام التالي، في 28 يونيو 1838، مراعاة لفترة الحداد على الملك الراحل. كانت فيكتوريا تطلب المشورة منذ بداية تدرّبها كملكة، وتتّبع نصائح خالها، الملك ليوبولدو ملك البلجيك، في محاولة لتعويض عدم خبرتها المبدئية في مسائل الدولة. واستمرت في ذلك الوقت في إشباع ولعها بالروايات، ومن بين أكثر القراءات التي أحبّتها كانت شخصية أوليفر

تويست لتشارلز ديكنز[1].

بعد ذلك بعامين تزوجت الملكة بألبرت من ساكس كوبورغ غوثا. يُعيد رونالد ماركس قراءة أبعاد الأسطورة التي غذّتها الأرملة نفسها بعد موت زوجها، وقصة الحب العاصف من أول نظرة، الذي لم يكن ساحراً بالشكل نفسه في لقاءاتهما الأولى. ينكر ذلك ليتون ستراتشي نفسه الذي يؤكد، على العكس، أن علاقتهما، وخاصة من جهة الأمير، كانت باردة بعض الشيء[2]. ما كان يهمّ، على كل حال، هو أن فيكتوريا كانت سيدة نفسها، إلى حدّ أنها كانت تضع حدوداً واضحة لتدخلات زوجها في الحكومة، وإلى درجة أن ألبرت، كما يؤكد ستراتشي، «من الناحية السياسية، لم يكن له ثقل [...]. فيما يتعلق بأمور الدولة لم يكن يبدو أن ثمة مكاناً له»، حتى تبعاً للدستور الإنجليزي، والملكة نفسها «كانت تتمنى أن يكون زوجاً كاملاً، ولكن فيما يتعلق بحكم الدولة، كانت تعترف بأنها هي واللورد ميلبورن يمكنهما إدارة الأمر دون مساعدته»[3]. إنما وبمرور الوقت مع مخاوف فيكتوريا من فقدان مميزاتها إلى حد كبير، وكنتيجة لمأساة سقوط لورد ميلبورن وصعود لورد بيل، زاد تأثير ألبرت في الحياة العامة[4]. كيفما سارت الأمور، فقط في عام 1857م صدر القرار بأن يُمنح ألبرت لقب الأمير قرين الملكة. ولكن الأمر المثير

(1) R. Marx, *La regina Vittoria e il suo tempo*, Il Mulino, Bologna 2001, p. 58.
لقد استعنت بهذه السيرة الذاتية التاريخية الممتازة بشكل موسع في فقرات أخرى أيضاً.

(2) Ivi, pp. 62-64; *L. Strachey, La regina Vittoria*, Mondadori, Milano 1985 (ed. orig. 1921), p. 91-98.

(3) Strachey, *La regina Vittoria* cit., p. 103.

(4) Ivi, p. 127. (Marx, *La regina Vittoria e il suo tempo* cit., p. 68).
كانت العقبات المنتصبة أمام الملكة قد بدأت في التهاوي في أعقاب الولادة الأولى، وفي نوفمبر 1840م، توقفت فيكتوريا عن الجدال الخاص بتمكين ألبرت من الاطلاع على أسرار الدولة. بل وبدأت تلجأ إليه بشكل أكبر ليساعدها في المهام الدقيقة جداً وخاصة في الفترات الحرجة بسبب إنجابها المتكرر.

للدهشة هو اكتشاف رفضها بإصرار، طوال مدة حكمها، أن تتخذ أية خطوة للمطالبة بحقوق المرأة، حيث كانت النساء في تلك الفترة يطالبن بمزيد من الحريات والاستقلال داخل الأسرة وفي الحياة العامة[1].

وفي واقع الأمر، يمكن تفسير سلوك فيكتوريا، بأن نضع في الحسبان، أن الحركة النسائية كانت نخبوية، وكانت هي تفضل ألاّ تتخذ أية خطوة من شأنها تهديد القبول الشعبي الكبير الذي كانت تحظى به[2].

يستشهد رونالد ماركس بخاطرة غاية في الروعة كتبتها الملكة عام 1856، وهي تستعد لتقليد زوجها منصباً رسمياً، لم يكن منصوصاً عليه في الدستور الإنجليزي، وذلك في تناقض ما مع ينصّ عليه بخصوص حقوق زوجات الملوك.

إن زوج الملكة الحاكمة يتجاهله التشريع تجاهلاً تاماً. يبدو الأمر عجيباً إلى حدّ كبير، إذا فكرنا في أن للزوج، في بلادنا، حقوقاً بالفعل وسلطات كثيرة جداً على زوجته، وأن الملكة عندما تتزوج تَعِد بطاعة سيدها ورئيسها، مثلها مثل أي امرأة أخرى، بينما هو، من الناحية القانونية، ليس لديه رتبة ولا منصب محددان. بعد تفكير دام ستة عشر عاماً، وصلت فيكتوريا إلى خلاصة مفادها أن لا بد لقرين الملكة من أن يحصل على اللقب الذي يطلقه عليه الجميع حالياً، أي ذلك الخاص بـ«الأمير قرين الملكة»، إضافة إلى الرتبة العليا التالية مباشرة لرتبة الملكة وقبل أي ملك آخر ذي أصول ملكية، سواء في البرلمان أو خارجه [...]. إن للملكة الحق في أن تطلب أن يكون زوجها إنجليزياً، وأن يحمل لقباً إنجليزياً، وأن يتمتع بوضع قانوني، حتى لا تكون هي

(1) Marx, *La regina Vittoria e il suo tempo* cit., p. 71.

(2) حول رد فعل فيكتوريا الغاضب والعنيف عام 1870، بمناسبة الاجتماع الكبير مع مناضلات حركة حق المرأة في التصويت، انظر:
Marx, *La regina Vittoria e il suo tempo* cit., pp. 367 sgg.

بنفسها مُجبرة على الدفاع عنه، بكل حماس الزوجة، من تهمة أنه ينتحل لقباً أمام أبنائه، ورعاياه، والمحاكم الأجنبية[1].

وعلى الرغم من أن زوجها استمر في الاعتماد عليها كملكة، وكان مرتبطاً بشكل رسمي بدور الأمير قرين الملكة، فإن الحب أو صورة الحب والتفاهم الذي كان الزوجان يعكسانه للخارج، في إطار الحياة العائلية، كان من عناصر تعزيز صورة الملكية.

ومع تثبيت حزب العمال وتفضيله على المحافظين أصبحت فيكتوريا رمزاً حياً للطبقات الوسطى التي كانت تشعر بتعاطف حقيقي مع هذا الزواج القائم على الحب، وتلك العائلة التي تجمع بين قيم الملكية والفضائل، والتي من خلالها كان يبدو للناس أنهم يرون الصورة المنعكسة في مرآة لامعة، تلك الصورة المثالية لحياتهم نفسها [...] وذلك إضافة إلى المواعيد الصباحية، والحياة المُنظمة، والباقات البسيطة والألعاب البريئة، والشواء وخبز الفوكاتشا لمقاطعة يوركشاير، وقد كانت العائلة تستخدمه أثناء زياراتها لقصر أوزبورن[2]، وهو المكان المُفضل للعائلة الملكية. أصبحت الحياة الخاصة للملكة، من خلال براعتها المتناهية في عرض صورتها الخاصة، نموذجاً لقيم العائلة والحب العائلي البرجوازي. وبهذا سارعت فيكتوريا -التي كانت تئنّ تحت قبضة أمها ولكنها تحررت منها بمجرد أن صارت ملكة ثم أصبحت تخاف على استقلالها أمام زوجها- سارعت بتقديم نفسها للشعب كأمّ جادة وزوجة مخلصة.

وكما في حالة «العصر الإيليزابيثي»، مثّل العصر الفيكتوري فترة من النشاط ومن التجديدات العصرية، دفعت بعضاً من المعاصرين لها إلى الحديث

(1) Ivi, pp. 123-124.

(2) Strachey, *La regina Vittoria* cit., p. 130.

عن «عصر نهضة ثان». في واقع الأمر، كانت الأنوار والظلال تختلط في بلد ينتشر فيه الفقر الشديد والخوف المستشري من الجريمة. ولكن فيكتوريا في سنواتها الأخيرة، بدت بعيدة عن الأنواع الأدبية ذات الانتشار العريض، تلك التي كانت تضعها بشكل غير مباشر في تواصل مع معاناة الشعب. عندما تركت تشارلز ديكنز جانباً، لم تعد الملكة تهتم بالظروف المادية لرعاياها، بل ودُفعت لترفض إجراءات من شأنها تحسين ظروف العمال اليومية[1].

كانت مملكتها، على كل حال، قفزة نوعية من وجهة النظر الخاصة بالاعتراف بحقوق المرأة في خلافة العرش. أثبتت فيكتوريا في الواقع قناعات خاصة بأسلوب الحكم، وحول التوجهات الخاصة بالزواج ودور قرين المرأة الحاكمة، مختلفة تماماً عن تلك التي ميزت القرون السابقة. وليس مصادفة إذن أن عرفت السير الذاتية التاريخية، منذ «العصر الفيكتوري»، حظاً شعبياً لم يكن لها من قبل. وعلى غرار نجاح سيرة «الملكة فيكتوريا» لليتون ستراتشي، وُلد في الواقع نوعٌ أدبيٌّ ذو قيمة مماثلة: في حالة ستراتشي، ذلك النشر الجاد جداً والمُمتع، وفي حالات أخرى أيضاً حيث عُرضت على الساحة الحياة الخاصة للملكات، والحاكمات بالوصاية، والنساء في السلطة. لم تقدّر الثقافة الأوروبية، لفترة طويلة، الخبرات الكثيرة لحكم الملكات والملكات بالوصاية، فاعتبرتها خبرات هامشية، ووضعتها روايات السيرة الذاتية في المجال العام، مما ساهم في اختفاء حقول بحث كثيرة حول الأطر السياسية–المؤسسة التي فيها تحققت تلك الخبرات.

إن السير الذاتية التاريخية قليلة الحضور في التقليد الثقافي الإيطالي. حتى في الأعوام الأخيرة، فإن ما يُقدَّم في السوق مُكوَّن بشكل أساسي من ترجمات لأعمالٍ أجنبيةٍ. ولكن صناعة النشر تروِّج لمنتجات بمستويات

(1) Marx, *La regina Vittoria e il suo tempo* cit., pp. 297-298.

مختلفة جداً، متسببةً في نوع من الارتباك لدى الجمهور الأكثر وعياً -ومستغلة تباين الاهتمامات التي يمكن أن تُبدع، من رواية ما، حياة ما- بدءاً من طلب البحث النفسي الدقيق إلى تذوّق التفاصيل المثيرة. لقد تقصَّت إحدى الدوريات الأسبوعية، ذات التوزيع العريض -منذ بضعة أعوام- مع عينة من القراء عن كتاب «الملكة فيكتوريا» لستراتشي. رأت الأغلبية أنه عمل «كلاسيكي»، و«نموذج جاد لنوع السيرة الذاتية»، ولكن ثمة أيضاً من أظهروا رد فعل حافلاً بالضجر. «هل هذه بالفعل سيرة ذاتية أم مجرد محاولة لاغتيابها، ومجرد شذرات من المعلومات عن العصر الفيكتوري؟ وهي من وجهة النظر التاريخية تقدم القليل جداً»[1].

إن هذا التباين العميق في وجهات النظر هو ما عبّر عنه قراء إحدى الدوريات الموجهة للجمهور، إذ يفضّل معظمهم القراءات المتحفظة ذات التوجهات التحررية العامة، مما يعكس تصنيفاً للنوع الأدبي الذي يقود إلى نموذجين متعارضين: ذلك الذي لا يمكن الوثوق فيه، والخاص بالسير الذاتية الأدبية لاستهلاك القراء، والآخر هو النموذج «العلمي» الخاص بدراسات السير الذاتية-السياسية. إن نموذج دراسة السير الذاتية-السياسية الإيطالية يمكن أن يكون مُعترفاً به بحقّ في تعريف بنديتو كروتشه للسيرة الذاتية التاريخية «فعلياً»، في تناقض مع القصص المزيفة «الشاعرية»[2]. يوجد على الأقل تلميذان من تلامذة كروتشه (فيدريكو شابود بشكل استفزازي، وديليو كانتيموري من خلال نظرة مركبة للعلاقات بين النظرية والممارسة في

(1) إن الاستشهاد يشير إلى ملف ويملدون لعدد «الجمعة» في «جريدة لاريبوبليكا» الإيطالية، الذي نُشر في 13 مايو 1988. كانت مناسبة المقالة هي إعادة طبع كتاب الملكة فيكتوريا بوساطة دار نشر موندادوري في ميلانو عام 1985. وأيضاً كمقدمة للكتاب تمّ مرة أخرى أيضاً إعداد البحث الذي كتبه وولف:

V. Woolf, *L'arte della biografia*.

(2) B. Croce, *Teoria e storia della storiografia*, Laterza, Bari 1954 (7^a ed.), p. 28.

تعليم كروتشه)، ينسبان عملاً غير معروف لمعلمهما، السيرة الذاتية للماركيز دي فيكو، القيمة النموذجية للسيرة الذاتية[1]. أمام احتقار كروتشه لمن يؤلفون سيراً ذاتية تاريخية مزيفة كـ«خدام لا يغتسلون، ينظرون إلى سيدتهم في وجهها، بل وينزعون عنها ملابسها أيضاً»، ثمة احتمال قوي أن يكون هذا إشارة إلى ستراتشي نفسه، إذ يمكن أن يُنسب إليه غياب أي انفتاح على نشر التاريخ الإيطالي.

في إيطاليا في واقع الأمر، لم تُيسّر الشعبية المتزايدة للسِّير الذاتية تلك المواجهة بين الثقافة الأكاديمية ودوائر نشر التاريخ. ويؤكد غياب نموذج سرد السيرة الذاتية، وهو وسيلة لأفضل تقاليد النشر، خاصة في العالم المتحدث بالإنجليزية، يؤكد الأحكام المسبقة «العلمية» التي تشبِّهُهُ بالأمثلة التي لا تحمل خصائص هذا النوع: القصص الإباحية أو الحكايات، التفاهة في تناول الحالة النفسية، والبلاغة في المديح. منذ الخمسينيات في إيطاليا، كانت الظروف وشرعية الاعتراف نفسها بالسيرة الذاتية كنوع من التاريخ، بدلاً من كونها مخالفة له، تبدو أموراً جانبية وكأنها أمور لا يمكن تجاوزها ولكنها بلا شك بالية. حتى الأعين الإنجليزية لإدوراد. هـ. كار، قد توقفت سريعاً عند التاريخ الخاص بالملك جوفاني القبيح وبيتينا الصالحة، وضعف المملكات القديمة[2].

ومن جهة أخرى فإن بدعة السيرة الذاتية، التي بلغت أقصى حد لها في ثلاثينيات القرن العشرين، ما زالت تُعدّ حتى الآن، أمراً سيئاً بأثر رجعي، إذ حدث فيها التقاطع بين عدم نضج الجماهير الثقافي، وفقدان الأطر التفسيرية

(1) D. Cantimori, *Storia e storiografia in Benedetto Croce*, in Storici e storia, Einaudi, Torino 1971, pp. 397-409.

حول تحريض شابود، الذي أكد أن كروتشه كان مؤرخاً حقيقياً لدراسات السيرة الذاتية فحسب، يمكن الاطلاع على صفحة: 102.

(2) E. H. Carr, *Sei lezioni sulla storia*, Einaudi, Torino 1966, pp. 50-61.

للنخبة المثقفة التي اجتاحتها مؤشرات تحذيرية. «اِعتقد الجميع أن الميل إلى أسلوب السيرة الذاتية سينتهي سريعاً كأي موضة»، هكذا كتب كراكاور على صفحات جريدة «فرانكفورتر زايتونغ» الألمانية عام 1930. «لكن أسبابها تذهب أبعد بكثير من الموضة، وأنها بالأحرى تهدف إلى البحث في أحداث التاريخ العالمي للخمسة عشر عاماً الأخيرة»[1]. كان كروتشه يعتقد أن نجاح كتب إيميل لودفيغ، الكاتب الألماني الذي ألف العديد من السير الذاتية، ونجاح من قلدوه، ينبع من «ضعف معيَّن في العالم وسطحية ذهنية، سببتهما الحرب»، وهو شيء لا يستحقّ الانتباه[2]. بالنسبة إلى غرامشي كما لكراكاور، فإن الظاهرة تثير، على العكس، مسألة العلاقات بين النخبة الثقافية والثقافة الشعبية: «في فترة ما بعد الحرب ازدهرت في العالم ثقافة

(1) S. Kracauer, *La biografia come forma d'arte della nuova borghesia, in La massa come ornamento*, Prismi, Napoli 1982, p. 143.

(2) مقال كروتشه على صفحات جريدة «لاكريتيكا» عام 1930 تم اقتباسه من قِبل غرامشي:
A. Gramsci, *Quaderni del carcere*, ed. a cura di V. Gerratana, Einaudi, Torino 1975, vol. II, p. 688. Di Ludwig, Gramsci
عن لودفيغ عرف غرامشي السيرة الذاتية لوليم الثاني في الترجمة الفرنسية لعام 1927:
(cfr. *Quaderni del carcere* cit., vol. Iv, p. 2527)
والنسخة الإيطالية لأحاديث موسوليني التي نشرتها دار موندادوري عام 1932:
(Fondo Gramsci, cfr. *Quaderni del carcere* cit., vol. IV, p. 3133).
وعن ستراتشي تظهر بين العناوين النسخة الثانية من الترجمة الإيطالية لكتاب الملكة فيكتوريا لعام 1932.
(cfr. *Quaderni del carcere* cit., vol. IV, p. 3138*). La Vie de Disraeli di André maurois* (Gallimard, Paris 1927) Quaderni (cfr. Quaderni del carcere cit., vol. Iv, pp. 2635, 2761, 2978).
كتب غرامشي: «إن النوع الأخير من الكتب الشعبية هو روايات الحياة [...] هذا النوع من الأدب الذي لا يوجد من يمثله في إيطاليا [...]، أو على الأقل لا توجد إمكانية للمقارنة، من ناحية العدد أو الغزارة في الإنتاج، والمتعة الأدبية أيضاً بما لدى الفرنسيين والألمان والإنجليز، إن الأديب الإيطالي لا يعرف كيف يكتب سيرة ذاتية روائية دون أن يملأها بإضافات من الدعامات البلاغية»
(*Quaderni del carcere* cit., vol. I, p. 358).

واهتمام بالتاريخ من قِبَل طبقة اجتماعية ذات أهمية كبيرة، وقد عبّر عنها أدبياً كتّاب مثل لودفيغ».

إن حظ «التاريخ الجمالي»، للأعمال المنتشرة التي كان كروتشه يحتقرها، قد فرض نفسه للاهتمام وأثارَ التساؤل: «هل تعني ظاهرة لودفيغ التقدم أم التدهور الثقافي؟». بالنسبة إلى غرامشي تسبّب هذا الحظ في قفزة نوعية في أذواق الجمهور، الذي كان مدخله الوحيد في التاريخ في إيطاليا روايات دوما وهيجو. ولكن الظاهرة كان يمكن اعتبارها نجاحاً شرط أن تقود إلى مناقشة التقارير المتبادلة بين الثقافة الأكاديمية وانتشار التاريخ[1].

بين الأعوام 1911 و1938 في ألمانيا وحدها، وزَّعت السير الذاتية الشعبية للودفيغ مليوناً ومئتي ألف نسخة، وكانت معروفة جداً في الخارج، حتى إن موظفي الجمارك الإنجليز سألوا موس الشاب، إذا ما كانت مهنته كمؤرخ فرنسي ستجعل منه «إميل لودفيغ آخر»[2]. وعندما نشر ستراتشي «مشاهير من العصر الفيكتوري» عام 1918، اعترفت فرجينيا وولف أن الملامح التي أعطاها صديقها ليتون للصحافة أثارت الكثير من النقاش وكانت لا تزال تحتفظ «ببعض التركيز المبالغ فيه وبعض قشور الكاريكاتير»، ولكنها كانت التجربة الأولى، وقد انطلق منها المؤلف لِيقيس «كل الحريات التي اكتسبتها السير الذاتية كلها»[3]. إن ذلك الانفتاح، إذا كان موجوداً بالفعل، فقد كان من المقرر له أن يستمرّ عقداً واحداً فقط لا أكثر. عام 1941 كادت موضة السير الذاتية التاريخية أن تخبو: «كان يبدو أن رائحتها الكريهة قد استطاعت في

(1) Gramsci, *Quaderni del carcere* cit., vol. II, pp. 688-689.

(2) G. L. Mosse, *Il dialogo ebraico-tedesco. Da Goethe a Hitler*, Giuntina, Firenze 1988, p. 41.

(3) V. Woolf, *L'arte della biografia*, prefazione a Strachey, La regina Vittoria cit., pp. VI-VIII.

نهاية الأمر أن تدفع القراء إلى الهروب»[1].

ربما كان السبب في نجاح بعض السير الذاتية يكمن في انتشار الكلاسيكيات القديمة التي يُعاد طرحها باستمرار في سوق النشر، ويمكن أن يُعدّ ستراتشي نموذجاً لهذا النوع الأدبي. وبطبيعة الحال فإن ستراتشي بتأليفه «الملكة فيكتوريا»، «تعامل مع السيرة الذاتية كتقنية»، وكان خاضعاً «لشروطها»، حريصاً على استخدام الوثائق واحترام الوقائع، وقد استنفد الإمكانات الخاصة بالسيرة الذاتية «الكلاسيكية». كانت فرجينيا وولف تتخيل بالفعل الطرق الجديدة التي يمكنها أن تُقدَّم:

.بما أننا نعيش في عصر ظهرت فيه آلاف الأنواع من أدوات العرض، من الصحف والخطابات والمذكرات، عن كل شخصية ومن كل زاوية، فإن كاتب السير الذاتية لا بد أن يكون مستعداً للاعتراف بوجود نُسخٍ مختلفة لوجهه نفسه. إن السيرة الذاتية ستوسّع من حقلها معلقة مرايا في زوايا مائلة. إلا أن كل هذه التنوعات بدلاً من أن تنتج مزيداً من الاضطراب ستنتج وحدة أكثر ثراءً. ومن جديد، وبما أن المعروف أن هذا الأمر كان مجهولاً في البداية، فإن السؤال الذي، سيُطرح الآن دون شك، هو ما إذا كان لا بد للكتّاب أن

(1) L. Febvre, *Come ricostruire la vita affettiva di un tempo: la sensibilità e la storia, in Studi su Riforma e Rinascimento e altri scritti su problemi di metodo e di geografia storica*, Einaudi, Torino 1966 (ed. orig. 1938 e 1941), pp. 509-510.

إن الهدف المعلن من كتاب فيفر الذي تناول الحالة النفسية للشخصية بشكل مركّز بل ومبالغ فيه:

Amor sacro, amor profano. Margherita di Navarra: un caso di psicologia nel '500, Cappelli, Bologna 1980.

الهدف المعلن عنه هو «استخراج الشخص الحي»، «معرفة حالة النفس»، والتأمل «في عرض» حياة الرجال والنساء في الماضي. في مقدمة النسخة الإيطالية يكشف أدريانو بروسبيري عن القصور في ذلك البحث (وخاصة في ص: 17)، كما فعل من قبله ديليو:

Delio Cantimori (*Storici e storia* cit., pp. 213-254).

يسجّلوا فقط حيوات العظماء. ألَنْ تكون جديرة بالسيرة الذاتية أيضاً حياة أي شخص عادي، عاش وترك عنها وثيقة، سواء في ذلك من فشل كمن نجح، من البسطاء كان أو من العظماء؟ وما هو تعريف العظمة؟ وما الصغر؟ لا مناص لمؤلف السير الذاتية أن يعيد النظر في معاييرنا الخاصة بالاستحقاق، ويقترح علينا أبطالاً جدداً ليثيروا إعجابنا[1].

في الأعوام الأخيرة تحوّل البحث في تلك الاتجاهات، مُعدّلاً النقاش التاريخي، ومتجاوزاً مشكلة العلاقات بين السِّيَر الذاتية والتاريخ، ومُقرِّباً الاختلاف بين الأنواع كنقد تمييزي لموضوع بحثي محدد. وفيما يتعلّق بمسألة الانتشار، تبدو المناقشات حول التداخلات الممكنة للّغات المختلفة وكأنها تفتح آفاقاً جديدة أيضاً على مستوى الاتصال. إن تقييم الإمكانات المُقدَّمة من خلال الرواية التاريخية قد حطّم المميزات التراتبية التي كانت تفصل الأرضية المشتركة المُحدِّدة للتحريات التاريخية عن تلك المُخصصة للأنواع «الأصغر». إن رواية السيرة الذاتية، مثل رواية الحدث المفرد، طرق ممكنة لإعادة بناء التركيب المُعقَّد للتطورات الاجتماعية. لكن التأملات التي حثَّ عليها الجدل الإيطالي في الثمانينيات حوْل السيرة الذاتية تبدو لي صالحة جداً للوقت الراهن، وفي ضوء الأشياء الكثيرة أيضاً، التي كُتبت وقيلت في الوقت ذاته[2].

كان برنار بودال، يتحدث منذ عام 1994، عن «التضخّم في المنهج» وعن الثرثرة المفرطة حول السيرة الذاتية التي فاقت إنتاجها[3]. إن «الأدب

(1) Woolf, *L'arte della biografia* cit., p. 12.

(2) C. Casanova, *Il revival biografico: tra autori e lettori*, in «Movimento operaio e socialista», 1-2, 1989, pp. 119-128.

(3) B. Pudal, *Du biographique entre «science» et «fiction». Quelques remarques programmatiques*, in «Politix», 7, 1994, 27, pp. 5-24: «Les contributions méthodologiques et épistémologiques sur 'la/les' biographies sont aujourd'hui =

الجمالي» في مطلع القرن الحادي والعشرين، على كل حال، وفي فرنسا أيضاً قد ملأ السوق مستجيباً للإقبال على التاريخ الذي كان يجد، لا ريب، معجَبيه الذين لا تختلف أذواقهم في الواقع عن أذواق الماضي أو عن أي واقع ثقافي وطني آخر[1]. وحول التساؤل الخاص بكيفية تصنيف ذلك الإنتاج المتنوع، المتفتت، الذي يكاد يتعذّر حصره في نوع واحد، انتهى الأمر بدانيال ماديلينا إلى أن يعيد اقتراح الازدواج القديم بين استمرارية السِّير الذاتية التقليدية وظاهرة جديدة هي السيرة الذاتية لما بعد الحداثة، وهي تتخطّى حدود مجال البحث إلى حد أنها تُعرّف بكونها متجاوزة (من الناحية السياسية أيضاً) ومتطفّلة على الحياة الخاصة وقد تحولت إلى نقطة الذروة أي إلى «حالة تاريخية»[2].

تمّ حديثاً في الولايات المتحدة، وأثناء مائدة مستديرة، تقديم مساهمات تحرّكها بقوة نزعة نسوية واضحة. كان الأمر يتعلق بتدخلات تُعبّر عن اختيارات نظرية أو أسلوب يستعيد التمييز بين السير الذاتية الأكاديمية وتلك «الجمالية» من جهة، ويرفض قيمة السير الذاتية الجديدة للتسعينيات أو يقلل منها، من خلال التركيز في خاصية تكامل التخصصات من جهة أخرى، ولكن ذلك ليس في إعادة البناء التاريخية لإطار الشخصيات الثقافي، بل فيما يتعلق بالأحرى بالجانب الأدبي والتحليل النفسي، وبخاصة فيما يعود إلى

= légion à tel point qu'on peut s'étonner du/déséquilibre entre les travaux de recherche et les prises de position théoriques ou méthodologiques dont elles font l'objet» (pp. 6-7).

(1) D. Madelénat, *La biographie aujourd'hui: frontières et résistances*, in «Cahiers de l'Association internationale des études françaises», 52, 2000, pp. 153-168: «Les biographies nous assaillent et nous racolent; en crue, elles inondent les présen-toirs des libraires, s'imposent au 'hit parade' des meilleures ventes, donnent lieu à colloques, dossiers de revues, débats et disputes dans la grande presse» (p. 153).

(2) Ivi, pp. 155, 158, 164; G. Piketty, *La biographie comme genre historique? Étude de cas*, in «vingtième siècle. Revue d'histoire», 63, 1999, pp. 119-126.

تأثير «أصحاب النظريات النسوية، وما بعد الحداثة، والعرقية»[1].

على الرغم من ابتعاد ذلك عن موضوعي، يبقى إعادة طرح شخصيات السير الذاتية دائماً أمراً مشروعاً، كمفاتيح لقراءة بعض الأطر التاريخية والتنقيب عن «الاختلافات» النساء و«انحرافاتهن»، أولئك اللواتي خرجن عن حدود أدوارهن.

ومن بين الأصوات العديدة في القرن الواحد والعشرين التي عادت إلى المناقشة حول السيرة الذاتية، المؤرخ الإنجليزي الفرنسي روبرت ج. تشت الذي صرّح بأنه يقف على مسافة متساوية بين الوطنين، وأشار –بواقعية ودقة– إلى بعض ملامح المشكلات الشائعة في التاريخين الفرنسي والإيطالي: فإذا كانت السير الذاتية التاريخية تبقى في إنجلترا من جهة، مقتصرةً على قُرّاء ينتمون إلى ثقافة متوسطة ومحدودة، بالنتيجة، فهي تتوجّه في فرنسا –مثلما الحال في إيطاليا– إلى سوق ذات استهلاك أوسع. إضافة إلى ذلك، يحبُّ الإنجليز التاريخ إنما بشرط ألاّ يكون شديد الصخب. إن المؤرخين الفرنسيين الذين كان مرجعهم المجلة المحترمة «حوليات» (Annales)، اكتفوا طويلاً، من جهتهم، بأن يتركوا السير الذاتية للكتّاب الشعبيين الذين استطاعوا، بسبب عددهم الكبير، أن يرضوا الأذواق الأكثر شعبية. بالنسبة إلى الإيطاليين، نجح التلاحم بين الكتابة الشعبية والثقافة التاريخية في حالات نادرة فحسب.

ومن جهة أخرى، فإن تحقيق هذا التلاحم شيء في منتهى الصعوبة.

---

(1) من بين المساهمات الكثيرة المنشورة في المجلة الأمريكية:
«American Historical Review», 114, 2009, 3, Lois W. Banner, *Biography as History*, pp. 579-586 ; di Kate Brown, *A Place in Biography for Oneself*, pp. 596-605; di Barbara Taylor, *Separations of Soul: Solitude, Biography*, History, pp. 640-651; di Robin Fleming, *Writing Biography at the Edge of Hist*ory, pp. 606-614. Alice Kessler- Harris, *Why Biography?*, in «The American Historical Review», 114, 2009, 3, pp. 625-630.

فالنزعات المتفردة لا تترك نفسها في قبضة أحد، لذلك فعلى السيرة الذاتية أن تحاول التحرر من أشكال الافتراء والتملق التي تراكمت عليها على مدار العصور. لم تبق السير الذاتية إذن مخلصة للمصادر، ولا لقيم النقد القاسي، ولن تستطيع شيئاً سوى تكرار الكذب. إن الضحية الأولى لتلك التشوهات التي أشار إليها كنيشت هو فرانسوا الأول، ولكن كاترينا دي ميديتشي، التي كانت تطاردها صحافة معاصرة شرسة، هي الثانية. ولأنها إيطالية و«برجوازية» (عائلة دي ميديتشي لم تكن جزءاً من الدائرة المقرَّبة للعائلات الملكية الأوروبية)، كانت كاترينا هدفاً سهلاً لهجوم أعداء المرأة، وكارهي الأجانب والتعالي الأرستقراطي. إن «الأسطورة السوداء» المزعومة مقدَّمةٌ بشكل رمزي في «**خطابات رائعة عن حياة كاترينا دي ميديتشي وأعمالها وترحيلها**»، روين مار، وقد نشرها مجهول عام 1574م، شخص لم يتعرّف إليه أحدٌ قط. قد يتعلق الأمر بشخص تعس حقود، كان يتمنّى أن يحدث اتفاق بين الهوغونيين والكاثوليك المعتدلين. إن الملامح التي رسمها لكاترينا، حتى وإن كانت تشبهها قليلاً، كان لها على كل حال تأثير كبير في التاريخ التالي لتلك الفترة. إن «**الملكة مارغو**» لدوما و«**تاريخ فرنسا**» لميشيليه في القرن التاسع عشر كانا الواصلة بين المنشورات المسيئة للسمعة والسِّير الذاتية الأحدث. في الأعوام الأخيرة اِنشغل العديد من المؤرخين بإعادة تأهيل الملكة الأمّ، ولكن كنيشت يرى أنهم اندفعوا كثيراً دون أن يتساءلوا عما إذا كان «**للخطابات**» أي أساس بالفعل: كانت كاترينا شخصاً يمكن النقاش حوله، ومؤكد أنها لم تكن قدّيسة، ولا بد اليوم أيضاً من مقاومة إغراء التحزب، ومحاولة التوصل إلى مصادر جديدة أو إعادة قراءة تلك المتوافرة لدينا بطريقة مغايرة[1].

(1) R.J. Knecht, *La biographie et l'historien*, in «Cahiers de l'association internationale des études françaises», 2000, 52, pp. 169-181.

إن الجدل، القائم حتى الآن، حول قيمة السيرة الذاتية لِفهم الماضي، ولم يتجنب استعادة حياة الشهيرات من النساء، بشكل ميلودرامي وروائي، انتشر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: استعادة تسببت فقط في مزيد من الصمت على دورهن العام، والتركيز في مشاهد الغيرة والألم والحب والخيانات التي عشنها بطريقة أو بأخرى في السرّ، داخل البلاط، بالنسبة إلى بعض الشخصيات مثل كاترينا دي ميديتشي. أمّا بالنسبة إلى نساء أخريات تولين السلطة، قدّمهن معاصروهن بنوايا تتراوح بين القدح والمدح، كأمثلة نموذجية للرذائل أو الفضائل النسائية، وما زالت حتى الآن في إطار التقييم الجاري –الذي تغذيه عمليات النشر وإعادة النشر لبناء السير الذاتية وهي غالباً ما تكون متكررة وغير ناجحة– لحصيلة الأحكام المسبقة القديمة الخاصة بعدم قدرتهن «الطبيعية» على إدارة الحكم. إلا أنه، منذ ثلاثين عاماً على الأقل من التاريخ العالمي، والأحدث من التاريخ القومي، استطاع كتّابٌ إنتاج أعمال من السير الذاتية الصلبة، مؤسسة على مصادر فعلية وعلى إعادة التركيب التاريخية للصور الرمزية أو المثيرة للجدل، أو ببساطة إعادة تركيب الثرثرة التي أنتجتها بحماس الدعاية السياسية.

فهرس الأعلام